موافقة قول الخطيب عمله

السودان...
نداء اللحظات الأخيرة

بين(مقاصد الشريعة)
و(مقاصد النفوس)

القراءة
إذ تصنع الفرق!

الفتوى
وتغيير المجتمعات

تناقضات الحداثة

مستشفى أبها الخاص
ABHA PRIVATE HOSPITAL

توفير عناء السفر إلى الخارج

وحدات متخصصة في خدمتكم

- وحدة طب وجراحة المخ والأعصاب
- وحدة جراحة العظام والعمود الفقري
- وحدة جراحة التجميل وشفط الدهون
- وحدة جراحة الكلى والمسالك البولية
- وحدة الجراحة العامة والمناظير
- وحدة الأنف والأذن والحنجرة
- وحدة الأمراض الباطنية والمناظير
- وحدة طب وجراحة العيون
- وحدة النساء والولادة
- وحدة الأطفال وحديثي الولادة
- وحدة جراحة الأطفال
- وحدة الجلدية والتناسلية
- وحدة الأمراض الصدرية
- وحدة العلاج الطبيعي والتأهيل
- وحدة أمراض الكلى
- وحدة السمنة والسكري
- وحدة الطب النفسي
- وحدة أمراض القلب والشرايين
- وحدة علاج الروماتيزم والمفاصل
- وحدة طب وجراحة الأسنان
- وحدة العناية المركزة
- وحدة أمراض الشرج والمستقيم

جهاز الليزر الأخضر KTP
لإستئصال تضخم البروستاتا

جهاز ديناميكية التبول

جهاز الموجات الصوتية
رباعي الأبعاد

جهاز ديكسا DEXA لقياس هشاشة العظام

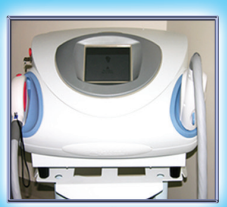
أحدث أجهزة الأمراض الجلدية

جهاز قياس جهد القلب

جهاز الأشعه تحت الحمراء لعلاج البواسير

وحدة الطوارئ واستقبال الحوادث والأشعة التشخيصية والمختبرات الطبية
على مدار ٢٤ ساعة

www.aph.med.sa

أبها – شمال الخطوط السعودية هاتف : ٢٢٩٢٢٢٢ فاكس : ٢٢٤٤٨٠١ ص ب : ١٧٩٤

أول جوال عربي لتحليل الأخبار

جوال فكر

أول جوال في العالم العربي يقدّم لك التحليل العميق للأخبار وفق فكر أصيل ينشد مصلحة الأمة ويكشف ما وراء الخبر .. ويزودك بمصداقية بالأخبار ذات الأبعاد ويصوغ رؤية أصيلة ترى بها الأحداث .

STC الا تصالات السعودية

للاشترا ك : أرسل ج إلى 807200 إتصالات

وقريبا بإذن الله : موبايلي وزين

موبايلي mobily

zain

ولا أسهل!

الآن .. منتجات دواجن الوطنية أصبحت أكثر تنوعاً وأكثر سهولة لتناسب كافة الأذواق، لتكون اختيار الأم الحقيقي

حب الأم الحقيقي.. متنوع حقيقي

AL-WATANIA POULTRY
دواجن الوطنية
غذاؤكم ترعاه أيد أمينة

ISO 22000 SYSTEM CERTIFICATION SGS
MOODY INTERNATIONAL UKAS QUALITY MANAGEMENT
ISO 9001:2008 REGISTERED COMPANY
أعلى المقاييس الدولية للغذاء

إنتاج المملكة العربية السعودية • الرقم المجاني ٨٠٠١٢٤٤٦٦٦ • www.al-watania.com

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية

ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
هاتف خدمة العملاء مباشر: ٢٢٥١٩٦٧
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٢٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة : شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١ .
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع:
هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩ .
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩ .
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩ .
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص.ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
خالد حسن عمارة

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan-magazine.com

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وايرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

الافتتاحية

٦ القراءة إذ تصنع الفرق! — التحرير

العقيدة والشريعة

٨ مراعاة الإمام مالك مقاصد الشريعة في فقهه وفتاويه — عبد الكريم القلالي
١٢ اقتران الجهاد بالمال بالجهاد النفس في القرآن... حِكَمٌ وأسرار الجماعية — د. توفيق علي زبادي

السياسة الشرعية

١٦ الفتوى وتغيير المجتمعات — محمد بن شاكر الشريف

الغرب: قراءة عقدية

٢٠ هل كُتبَت «الأناجيل» باليونانية؟ — فيصل بن علي الكاملي

قضايا دعوية

٢٢ وسائل التكنولوجيا الحديثة في خدمة الدعوة — عادل عبد الله هندي
٢٦ أئمة ومجددون — عبد العزيز مصطفى الشامي

قضايا تربوية

٣٢ موافقة قول الخطيب عمَلَه — إبراهيم بن محمد الحقيل
٣٦ أثر القَوَاعِدِ في جَمْعِ الكلمة — نبيل عبد المجيد النشمي

معركة النَّص

٣٨ بين (مقاصد الشريعة) و (مقاصد النفوس)! — فهد بن صالح العجلان

تحقيقات

٤٠ السودان... نداء اللحظات الأخيرة — إعداد: مجلة البيان

نص شعري

٤٦ كانوا هنا... — محمد أحمد حسن فقيه

المسلمون والعالم

٤٨ تقرير مصير السودان... لا مصير الجنوب
طلعت رميح

٥٤ جريمة التدمير الشامل في العراق (حجم الكارثة البيئية لجريمة غزو العراق) د. أكرم المشهداني

٥٨ ثنائية التعليم في نيجيريا... اتجاهات وتطلعات
د. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن

٦٢ مرصد الأحداث جلال الشايب

عين على العدو

٦٨ قدرة الردع الصهيونية آخذة بالتراجع مقابل قوى المقاومة د. عدنان أبو عامر

في دائرة الضوء

٧٠ عقيدة القتال والعلو الكبير أمين الدميري

قضايا فكرية

٧٤ تناقضات الحداثة هاني إسماعيل محمد

اقتصادية

٧٦ ابن خلدون... الرؤية الثاقبة في الفكر الاقتصادي
مولاي المصطفى البرجاوي

قراءة

٨٢ الاستشراق بين الغايات المسبقة والرؤى النقدية
هشام منور

تاريخية

٨٤ الدولة العبيدية في المغرب (إفريقية والمغربَيْن الأوسط والأقصى) أ. د. محمد أمحزون

بأقلامهن

٨٦ عمل الداعيات بين التطوع والعلم الشرعي المؤصَّل
د. حياة بنت سعيد بأخضر

الباب المفتوح

٨٨ وأيكم ليست له ليلى؟ منصور باوادي

خاطرة أدبية

٩١ الهدهد الحكيم د. بشرى بنت عبد الله اللهو

٩٢ منتدى القرّاء عدَّة كتَّاب

الورقة الأخيرة

٩٤ لِمَ كان القول بخلق القرآن كفراً؟
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

[كلمة صغيرة]

تطاول السفهاء!

الحمد لله وحدَه، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فمن الظواهر التي تصاعدت حدَّتها في القرن الماضي تطاوُل بعض المستشرقين وأتباعهم من أهل الأهواء من بني جلدتنا على سُنة النبي ﷺ، وعلى نَقَلة العلم من الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين، كأبي هريرة – رضي الله عنه – والإمام الزهري... وغيرهما.

وفي هذه الأيام ظهرت نابتة جديدة تتحدث بغَيْرَة (مصطنعة) على دين الإسلام، وتزعم حرصها على تنقيح السُّنة النبوية، والذبِّ عن سيِّد الثقلين ﷺ؛ فتطاولت على صحيحَي البخاري ومسلم خصوصاً، وزعمت أن فيهما أحاديثَ مكذوبةً وروايات مُنْكَرةً تسيء إلى نبي الإسلام ﷺ بحجة معارضتها للقرآن الكريم تارة، وبحجة مخالفتها للعقل تارة أخرى، ونحو ذلك من الحجج الواهية، والتخرصات الوهمية، كل ذلك تحت مظلة المطالبة بتنقيح الصحيحين وإعادة النظر في أحاديثهما.

ويأبى الله إلا أن ينصر دينه، ويفضح تعالُم الجاهلين؛ فتأتي الدراسات التي نشروها لتُظهِرَ جهلاً فاضحاً بالسُّنة النبوية عموماً، وبالصحيحين خصوصاً؛ حيث جاءت تلك الدراسات المزعومة محشوَّة بالأغلوطات الفجَّة والشبهات المتهافتة، لتبرهن من جهة أخرى على جهل أولئك بأصول السُّنة، وقواعد الرواية، ومناهج المحدِّثين. ومع ذلك يزعمون – بكل صفاقة ومكر – تدثُّرهم بالبحث العلمي، والتجرد من الأحكام المسبقة... ونحو ذلك من الهراء الذي لا حقيقة له ولا دليل معه.

إن التطاول على الصحيحين ما هو إلا قنطرة للتطاول على دين الإسلام وهدم سُنة سيد الأنام ﷺ؛ فقد أجمع أهل العلم عبر العصور قديماً وحديثاً على أنهما أصح الكتب بعد كتاب الله – تعالى – ولمَّا عجز أهل الأهواء عن نقد القرآن العظيم، وإبطال السُّنة النبوية بالكلية، أرادوا أن يهدموا الإسلام بإثارة الشبهات على كتب الإسلام الصحيحة، وإسقاط هيبتها ومكانتها عند المسلمين.

إن تَكاثُرَ هؤلاء المجترئين على التشكيك في السُّنة ومحاولة تحريفها يوجب على العلماء والمتخصصين في الدراسات الحديثية المبادرة للرد على مكائدهم، وكشف عوار أولئك المحرِّفين، وفضح مناهجهم النقدية المزعومة.

القـراءة
إذ تصنـع الفـرق!

للقراءة أثر في سلامة الطَّبع من آفات مقيتة؛ فالقـارئ الموفق محـاور ناجح، ومنصت لأقوال الآخرين، ولديه اسـتعدادٌ لسماع الآراء الأخرى وإن لم يؤمن بها.

الحمـد لله ربِّ العالمـين، والصَّلاة والسَّـلام على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد:

يـزداد الحديث عـن القـراءة وثقافـة الكتاب لدى المجتمعات التي ترنـو لنفض غبار التَّخلف عنها، وتحرص بعض الدول على إقامة معـارض الكتاب وإظهار الاهتمام بها كدليل على الوعي والرُّقي والثَّقافة. ومع أنَّ أمتنا متهمة بضعف الإقبال على القراءة وتراجُع أهمية الكتاب فيها؛ إلا أنَّ ما نلاحظه في أوساط الشَّباب من الجنسين يبشِّر بخير إذا أحسنَّا توجيهه واستثماره، والأمل يحدونا بانكباب أكثر النَّاس على الكتب والاهتمام بشؤونها وأخبارها بدلاً من الانغماس فيما لا طائل وراءه؛ خاصَّةً أنَّ معجزة نبينا ﷺ كتابٌ عزيزٌ يُتلى، وأوَّل آية منه أُمِرتْ بالقراءة، ثم تلتها آية أخرى مؤكِّدة، وجاءت بعدها آية كريمة ربطـت بين العلم والقلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

وليست القراءة عملية مجرَّدة؛ يفرغ الإنسان من كتاب ليبدأ رحلة جديدة مع كتابٍ آخـر، فهذه القراءة قد لا تفيد إلا لماماً على أحسـن الأحوال؛ لأنَّ القراءة المفيدة هي القراءة النَّاقلة؛ بحيـث تنقل القـارئ من حال إلى أفضل منهـا، وهي القراءة التَّحويلية التي يسـتطيع القارئ الحاذق معها توظيف المعلومة وبعث الحياة فيها من جديد. وهي القراءة التي تصنع الفرق في التَّصور والسُّلوك، ومن البديهي أنَّ القراءة حسب هذا الوصف عملية شاقَّة تتطلب جهداً كبيراً والتزاماً ثابتاً ممَّن يريد المضي في هذا الطَّريق الطَّويل حتى يبلغ الغاية المرجوَّة، وعند الصَّباح يحمد القوم السُّرى.

ومن الضَّروري أن نسعى إلى نكون قرَّاءً من الدَّرجة الأولى، فنقرأ مـا ينفعنا وحاجتنا إليه أكيدة أو محتملة، وننصرف عن المطبوع الذي لا قيمة له، وهو كثير في سوق الكتاب. ومن المهمِّ أن تكون القراءة بالطَّريقـة الصَّحيحة، وأن نتفاعل مع المقروء بأفضل السُّـبل من خلال مناقشة المؤلف على هامش الكتاب، وتقييـد فوائده، واختصار فكرته. وإذا حصل هذا فسـتكون أمتنا متميزة في أفرادها، منجزة في مجموعها، متفوقة في كلِّ شؤونها، بعيدةً عمَّا يغضب الله، آنفةً من الصَّغائر والضَّعة، ولا عجب حين نقول سـاعتئذٍ: إنَّ القراءة عبادة لله، وقربة يؤجر فاعلها ذو النِّيَّة الخالصة.

ويعـين على تحقيق ذلك حين تكون المـادَّة المقروءة منتقاة بعناية ومراعية حـال القارئ وحاجته وواجـب الوقت؛ وهذه الأمـور من أسـس التَّخطيط لقراءة مؤثـرة ماتعة، فليس من المناسـب للفتى - مثلاً - أن يخوض في أمَّات الكتب ولمَّا يقرأ كتب المبتدئين على شـيخ أو ذي اختصـاص. ومما يعين على بلـوغ ما نَصْبُو إليـه من القراءة أن يكون فعـل القراءة مركَّزاً عميقاً أصيلاً، وليس عملاً ثانوياً إنْ بقي له شـيء من فضول الوقت مارسـته، فالتَّركيز سرٌّ من أسرار النَّجاح والتَّميز، ومن التَّركيـز اتباع القارئ لمنهجية خاصَّة في القراءة تكون دليلاً له في مشواره المعرفي وسبباً في زيادة الوعي واتِّساع الأفق.

وللقراءة أهداف يبتغيها كلُّ مَنْ سلك سبيلها؛ فمنها إصلاح المنطق وتقويم اللسان، وإنَّ الأمَّة لتأمل أن يكون أبناؤها قادرين على الحديث بلسان عربي مبين، يفهمون به كتاب ربِّهم، وسنَّة نبيهم ﷺ، ويتواصلون دون صعوبة مع إرث سلفهم الصَّالح، رضوان الله عليهم. وباستقامة لسان القارئ فإنه سيجيد فنَّ الكلام فيأمر بحقٍّ أو ينهى عن باطل ويدفع السُّوء عن نفسه ومجتمعه وأمته، فمَنْ لا يستطيع التَّحدُّث والتَّعبير عمَّا يختلج في مكنونه يفقد شيئاً كثيراً من حقوقه.

والقراءة النَّافعة تُصلِح ذوق صاحبها، فيترَّفع عن خوارم المروءة، ويتجافى عن الخطايا، وسيظهر أثر الكتاب على القارئ المتمكن بعلوِّ كعبه في أخلاقه وسيرته، فزيادة العلم مانعة من الخطأ، وقديماً قال بعض السَّلف: لا يعصي الله إلاَّ جاهل. ومعرفة أيِّ شيء جديد تُوقِف الإنسانَ على حقيقة جهله فيتواضع، وتحجزه عن الكبر والغرور.

وللقراءة أثر في سلامة الطَّبع من آفات مقيتة؛ فالقارئ الموفق محاور ناجح، ومنصت لأقوال الآخرين، ولديه استعدادٌ لسماع الآراء الأخرى وإن لم يؤمن بها.

وللقراءة أثر واضح في بناء المَلَكَة النَّقدية، والقدرة على التَّفكير بحرية شرعية، وكم من كتاب علَّم التَّفكير قبل أن يعرض المعلومات! ويتعاظم هذا الأمر في عصرنا الذي يمتاز بإتاحة المعلومة عبر كثير من الوسائل، ليكون الشَّأن المبتغى هو الحصول على الأدوات التي تمهِّد لاستثمار المادة المتوافرة هنا وهناك. وتسدُّ القراءة حاجة الفرد إلى أدوات يستخدمها، ليستقيم تفكيره، ويتطور نقده، ويستطيع التَّحليل والتَّقويم، والتَّفكيك وإعادة التَّركيب، فجهود المؤلفين تشحذ العقول، وتجارب الآخرين عقل ثانٍ، وفي كل حدث عبرة. والكتاب ليس ورقاً مطبوعاً فقط؛ بل عقل المؤلف قد عرضه على القراء ليتعلموا منه أو ليتمرنوا على الفحص والتَّمحيص.

وحتى تؤتي القراءة ثمارها اليانعة، وتحقِّق لطلاب المعرفة ما ينشدونه منها، فلا بدَّ من عناية القارئ بأركان الثَّقافة[1]؛ فلا يتجاوزها إلى غيرها حتى يُلِّم بشيء منها، لتكون قراءته أكثر بركة وخيريَّة، وهذه الأركان هي: الدِّين، واللغة، والتَّاريخ. فالقارئ بحاجة إلى التَّزود من علوم الشَّريعة الغرَّاء ليدفع عن نفسه معرَّة الجهل بدين الله؛ وإنَّها لآفة حريٌّ بالعاقل أن يهرب منها. ثم ينظر في كتب اللغة والأدب ليستقيم لسانه، ويَعْذُب بيانه، ويعتز بلغته، ويعرف شيئاً من علومها وفنونها، ويختم مشوار بنائه الثقافي بدراسة تاريخ أمته؛ فالحاضر امتداد للماضي، ومعرفة التَّاريخ شرط في استشراف المستقبل بنجاح، وأشدُّ القرَّاء ضرراً مَنْ هجم على علوم أخرى قبل أن يبني ثقافته على هذه الأسس المتينة.

وإذا فرغ القارئ من هذه الأركان فلا ملامة عليه في الإبحار صوب العلوم والفنون الأخرى، فنحن نحتاج مع علماء الشَّريعة واللغة والتَّاريخ إلى مَنْ يخدمون الأمَّة في العلوم الطَّبيعية والاجتماعية والتِّقنية وغيرها، وبعضها فروض كفايات قد ترقى إلى الفرض العيني حتى يكتفيَ المسلمون بأنفسهم ويستغنوا عن غيرهم[2]. وخير طريقة للقارئ غير المتخصص حين يقرأ في غير فنِّه أن يهتم بتاريخ هذا العلم وتطوُّره عبر العصور، ثم يعرِّج على مصطلحاته حتى لا يقع ضحية الجهل بها، ثم يتعرَّف على رجالاته الأوائل.

وكم هو جميل أن يتخصص القارئ في فنٍّ ولا يقتصر عليه؛ بل يقرأ في كلِّ فن، والقراءة على هذه الجادَّة تفتح الذِّهن، وتسدِّد الرَّأي، وتجعل نظرتنا للأمور أشمل وأعمق. وجدير بالقارئ ألاَّ يقنع باليسير من الكتب أو القليل من الأوقات المبذولة لها، وأن يجعل كتابه حلقة نقاش، وساحة مناظرة، وألا يسلِّم للمؤلف بآرائه دون نظر وتدقيق وسؤال.

ولا يكتمل الحديث عن القراءة دون الإشارة إلى القرآن الكريم، فكلُّ قراءة تتطامن أمام قراءة كتاب ربِّنا، وكلُّ علم يتقاصر دون علوم القرآن العظيم، ولا يستغني القارئ المسلم عن النَّظر في كتاب مولاه، تالياً بخشوع وتدَّبر، وليس بعد التدَّبر إلاَّ الاعتقاد السَّليم، والعمل الصَّالح الذي يتعدَّى نورهُ الفردَ إلى المجتمع. وإنَّ بركة القرآن على القرَّاء واضحة فيمن دأبه العيش مع كتاب الله قراءة وتدَّبراً وتفسيراً وعملاً، وهذه درر العلماء وأقوال الأولياء شاهدة على أنَّ هذا الكتاب العزيز لا تفنى معجزاته ولا تنقضي حججه؛ فاللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصَّتك.

ويبقى أن نشير إلى أمرين:

فالأول: هو دعوة معاهدِ التَّعليم في بلاد المسلمين وأساتيذها إلى العناية بأمر القراءة من خلال تجويد الكتب المقرَّرة، وربط الطلاب بالكتاب، والاستغناء عن الملخصات التي تضر ولا تنفع.

والأمر الثَّاني: أنَّنا نَعجَب كثيراً من قارئ نَهِم متبصِّر لا يكتب؛ فالكتابة لا تؤتي قيادها إلا لمن كان هذا شأنه، وعَجَبُنا أكبر من كاتب يسَّطر أحرفه، ويبتلي القرَّاءَ بها، وهو أبعد الكتَّاب عن القراءة؛ أو أقلهم إفادةً ممَّا يقرأ.

(١) أشار إليها الأستاذ محمود محمد شاكر – رحمه الله – في كتابه: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا.

(٢) في سيرة الإمام المازري – رحمه الله – الواردة في سير أعلام النبلاء قصة لطيفة بهذا الخصوص.

مراعاة الإمام مالك مقاصد الشريعة في فقهه وفتاويه

بنى الإمام مالك كثيراً من فتاويه على أصل سدِّ الذرائع الذي هو اعتبارُ للمآل في جلب المصالح ودرء المفاسد، ويُعَدُّ من القواعد الأساسية في فقه الشريعة

عبد الكريم القلالي
Karim_kallali@targuistcity.net

المذهب المالكي أكثر المذاهب مراعاة لحِكَم الشريعة ومقاصدها، ويتجلى ذلك بوضوح في طبيعة الأصول التي قام عليها هذا المذهب، وهي التي كان الإمام مالك - رحمه الله - يبني عليها كثيراً من أقواله وفتاويه؛ خاصة في الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعاملات. ومنهجه في ذلك مستفاد من منهج السلف - رضوان الله عليهم - خصوصاً من عمر بن الخطاب وابنه عبدالله، رضي الله عنهما؛ فقد قرر منهجَهم في أقواله وفتاويه التي يسلك فيها مسلك التعليل ويراعي فيها المقاصد ومآلات الأفعال والنيات والعوائد والأحوال في مسائل الفتوى والأحكام، وبنى كثيراً من فتاويه على أصل سدِّ الذرائع الذي هو اعتبار للمآل في جلب المصالح ودرء المفاسد، ويُعَدُّ من القواعد الأساسية في فقه الشريعة. وقد قال الشاطبي: «إن مالكاً حكَّم سدَّ الذرائع في أكثر أبواب الفقه»[1].

(١) الشاطبي، الموافقات، تحقيق: عبدالله دراز: ٤/١٩٨.

والاعتماد على الذرائع سدّاً وفتحاً من قبيل العمل المقاصدي الذي يراعي الجانب المصلحي للأحكام؛ حيث يتناول مبحثُ الذرائع الوسائلَ والطرائقَ وما تفضي إليه من نتائج وآثار من حيث التحليل أو التحريم، من حيث القصد وعدمه، أو من حيث العبادة والمعاملة أو من حيث سلامة الفعل وغيره وما أشبه ذلك مما يفضي إلى غير المقصود الشرعي. ومن ثَمَّ قد أعطى الشارع حُكْمَ الأثر المترتب على الفعل لذلك الفعل نفسه ولو كان الفعل في حدِّ ذاته سليماً من جهة الشرع؛ إذ إن ميزان التحكيم في شأن الفعل في هذه الناحية ليس هو ذات الفعل؛ وإنما هو الأثر أو النتيجة التي أفضى إليها ذلك الفعل نفسه[2].

والاستحسان كان يراه: «تسعة أعشار العلم»[3]؛ لأنه يقوم على التيسير ودفع المشقة ورفع الحرج عن الناس.

(٢) نورالدين مختار الخادمي، المقاصد في المذهب المالكي خلال القرنين (الخامس والسادس الهجريين)، ص: ٢٨١.

(٣) علي بن عبد السلام التسولي، البهجة في شرح التحفة، فصل: في اختلاف المتراهنين، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين: ١/٢٩١.

وبيَّن فارس المقاصد (الإمام الشاطبي) بعض معاني الاستحسان الذي هو أخذٌ بالمصلحة عند المالكية قائلاً: «الاستحسان في مذهب مالك: الأخذ بمصلحة جزئية في مقابل دليل كلِّي. ومقتضاه: الرجوع إلى تقديم الاستدلال المرسَل على القياس؛ فإن من استحسن لم يرجع إلى مجرد ذوقه وتشهيه، وإنما رجع إلى ما علم من قصد الشارع في الجملة في أمثال تلك الأشياء المفروضة، كالمسائل التي يقتضي القياس فيها أمراً إلا أن ذلك الأمر يؤدي إلى فوت مصلحة من جهة أخرى، أو جلب مفسدة كذلك، وكثيراً ما يتفق في هذا الأصل الضروري مع الحاجِيِّ، والحاجيُّ مع التكميلي؛ فيكون إجراء القياس مطلقاً في الضروري يؤدي إلى حرج ومشقة في بعض موارده؛ فَيُستثنَى موضع الحرج، وكذلك في الحاجي مع التكميلي، أو الضروري مع التكميلي»[1].

ومذهب مالك في المعاملات الوقوف على المعاني؛ بخلاف العبادات التي كان يقف فيها على النصوص[2].

وإذا كانت مقاصد الشريعة تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد، فإن الإمام مالك هو حامل لواء الأخذ بالمصلحة المرسلة؛ لأنه جعلها أصلاً مستقلاً بذاته ثم أكثرَ من الأخذ بها، واسترسل فيها استرسالاً بليغاً؛ حتى أنكر عليه بعضُ العلماء بعضَ وجوه أخذِه بالمصلحة، وعدُّوا ذلك خروجاً عن رِبقَة الدين وتشريعاً بالتشهي والهوى.

والإمام مالك أبعد ما يكون عن ذلك. وكان - رحمه الله - يراعي المصلحة في الحاجيات والضروريات.

وكذلك الشأن في الأخذ بسد الذرائع التي تقوم على قطع وسائل الفساد وسد أبوابها، وفتح أبواب المصالح وتيسيرها؛ وذلك مقصد من مقاصد الشريعة.

وسدُّ الذرائع فيه اعتبار للمآلات وجلبِ المصالح ودرءِ المفاسد، ما أمكن الدفع والجلب؛ فإنه لما كان مقصود الشريعة إقامة مصالح الدنيا على طريقةٍ تُحكَم فيها بحكم الدين المسيطر على الوجدان والضمير، ودفع الفساد ومنع الأذى حيثما كان؛ فكل ما يؤدي إلى ذلك من الذرائع والأسباب يكون له حكم ذلك المقصد الأصلي، وهو الطلب للمصلحة، والمنع للفساد والأذى.

واعتبار أصل الذرائع بالسد أو الفتح يُعدُّ من وجهٍ توثيقاً لمبدأ المصلحة الذي استمسك مالك بعروته؛ فهو اعتبر المصلحة الثمرة التي أقرَّها الشارع واعتبرها ودعا إليها وحث عليها؛ فَجْلبُها مطلوب، وضدها - وهو الفساد - ممنوع؛ فكل ما يؤدي إلى المصلحة بطريق القطع أو بغلبة الظن يكون مطلوباً بقدره من العلم أو الظن، وكل ما يؤدي إلى الفساد على وجه اليقين أو غلبة الظن يكون ممنوعاً على حسب قدره من العلم؛ فالمصلحة بعد النص القطعي هي: قطب الرحى في المذهب المالكي، وبها كان خصباً كثير الإثمار[3].

ولعل أكثر الأبواب الفقهية التي حكَّم فيها مالك والمالكية سد الذرائع، هي: أبواب البيوع، والعقوبات، والمناكحات.

ففي مجال البيوع - مثلاً - يبطل المالكية - ومعهم الحنابلة -: البيوع التي يظهر فيها القصد الفاسد، المخالف لقصد الشارع: كبيع العِينَة؛ فإنه يفضي إلى مفسدة الربا،

(١) الشاطبي، الموافقات: ٤/٢٠٧.

(٢) وذلك لا يعني أن العبادات غير معلَّلة أو لا حكمة وراءها؛ بل إن كثيراً مما تخفى حكمتها؛ وعدم معرفة بعض الحكم والغايات لا يعني عدم وجودها.

(٣) أبو زهرة، مالك عصره آراؤه وفقهه، ص: ٣٥٢.

وكبيع العنب لعاصر الخمر، وبيع السلاح لأعداء المسلمين، أو لأهل الفتنة والعدوان، وبيع أرض لتُتَّخذ كنيسة؛ لما تجرُّه هذه البيوع من مفاسدَ وأضرارٍ ظاهرة.

أما الحنفية والشافعية: ففرقوا بين صحة العقد وفساد القصد؛ فالعقد عندهم صحيح ما دام مستوفياً لشروطه الظاهرية. والقصد أمره إلى الله... ويظل المذهب المالكي رائد المذاهب في مراعاة المقاصد وبناء الأحكام عليها[1].

ومن أمثلة ذلك:

١ - ما أورده مالك فيما يُكرَه من بيع الطعام إلى أجل عقب إيراده قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار في النهي عن بيع الرجل حنطة بذهب إلى أجل، ثم يشتري بالذهب تمراً قبل أن يقبض الذهب[2].

قال مالك في تعليل ذلك: (وإنما نهوا عن أن لا يبيع الرجل حنطة بذهب؛ ثم يشتري الرجل بالذهب تمراً قبل أن يقبض الذهب من بيعه الذي اشترى منه الحنطة؛ فأما أن يشتري بالذهب التي باع بها الحنطة إلى أجل تمراً من غير بائعه الذي باع منه الحنطة قبل أن يقبض الذهب ويحيل الذي اشترى منه التمر على غريمه الذي باع منه الحنطة بالذهب التي له عليه في ثمر التمر، فلا بأس بذلك).

قال مالك: (وقد سألت عن ذلك غير واحد من أهل العلم فلم يروا به بأساً)[3].

فمالك فسر النص تفسيراً مصلحياً؛ و لم يرَ بذلك بأساً لعدم التهمة.

وعن مراعاة المالكية لمقاصد المكلَّفين يقول الدكتور أحمد الريسوني في حديثه عن اعتبار الشاطبي مقاصد المكلفين: «ولكنه مدين في هذا على وجه الخصوص لمذهبه المالكي، الذي لم يقف عند حدِّ العناية بمقاصد المكلَّفين في ما يسمى بالعبادات، ولكنه أَوْلَى العناية البالغة لمقاصد المكلفين في جميع أقوالهم وأفعالهم وعقودهم وتصرفاتهم...»[4].

وموطأ الإمام مالك يحتوي على مادة مقاصدية غنية تتجلى في كثير من أصوله: كالمصلحة، والاستحسان، وسدِّ الذرائع، ومراعاة الخلاف.

وإذا أضفنا إلى هاته الأصول تطبيقاتها، فسنكون أمام مادة غزيرة جداً. وسيتسع الأمر أكثر إذا أضفنا بعض عبارات الإمام مالك المعلِّلة للأحكام والواردة في المدونة، وهي آراء الإمام مالك الفقهية جمعها ودونها سحنون بن سعيد التنوخي.

ومذهب مالك في المعاملات الوقوف على المعاني؛ بخلاف العبادات التي كان يقف فيها على النصوص.

وإذا كانت مقاصد الشريعة تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد، فإن الإمام مالك هو حامل لواء الأخذ بالمصلحة المرسلة؛ لأنه جعلها أصلاً مستقلاً بذاته ثم أكثر من الأخذ بها، واسترسل فيها استرسالاً بليغاً.

ولخص الدكتور نور الدين الخادمي مظاهر المقاصد المستفادة من الأدلة الأصلية لدى المالكية؛ فأورد منها:

أولاً: إقرار كبرى غايات الوجود الكوني وأهداف الحياة الإنسانية العامة المتمثلة في تثبيت الامتثال الكلي والانصياع التام إلى تعاليم المشرِّع الحكيم، وفي تحقيق صلاح الخلق وسعادتهم في الآل والمآل.

ثانياً: إقرار الكليات الخمس (حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال) التي روعيت في كثير من أحكام الكتاب والسُّنة ومعلومات الإجماع والقياس.

ثالثاً: إقرار علل الأحكام وحِكَمِها الجزئية التي أنيطت بها أحكامها من حيث الوجود والعدم.

رابعاً: إقرار كثير من المقاصد الإجمالية: (التيسير، التخفيف، رفع الحرج) التي تضافرت كثير من النصوص والاجتهادات الشرعية على تثبيتها والاعتداد بها.

خامساً: إقرار وجوب الالتفات إلى المعنى والمقصد والروح وعدم الاقتصار على الظاهر والشكل والمبنى[5].

(١) الدكتور أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ص: ٨٠.
(٢) الإمام مالك، الموطأ، باب: ما يكره من بيع الطعام إلى أجل: ٢/٦٤٣.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ص: ٣١٧.
(٥) نورالدين الخادمي، المقاصد في المذهب المالكي خلال القرنين (الخامس والسادس الهجريين)، ص: ٢١٩.

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات
تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

اقتران الجهاد بالمال بالجهاد النفس في القرآن... حِكَمٌ وأسرار

د. توفيق علي زبادي(*)

اقترن جهاد المال بجهاد النفس في القرآن في عَشرة مواضع، تقدَّم فيها جهاد المال على الجهاد بالنفس في تسعة مواضع، وتقدَّم جهاد النفس على جهاد المال في موضع واحد، ولذلك حِكَمٌ وأسرارٌ، وقف عليها المفسرون، رحمهم الله.

قال ابن القيم – رحمه الله – في تفاوت الناس في مراتب فَهْم القرآن: «مِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ حُكْماً أَوْ حُكْمَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ مِنْهَا عَشَرَةَ أَحْكَامٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ فِي الْفَهْمِ عَلَى مُجَرَّدِ اللَّفْظِ دُونَ سِيَاقِهِ وَدُونَ إِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ وَتَنْبِيهِهِ وَاعْتِبَارِهِ، وَأَخَصُّ مِنْ هَذَا وَأَلْطَفُ، ضَمُّهُ إِلَى نَصٍّ آخَرَ مُتَعَلِّقٍ بِهِ؛ فَيَفْهَمُ مِنَ اقْتِرَانِهِ بِهِ قَدْراً زَائِداً عَلَى ذَلِكَ اللَّفْظِ بِمُفْرَدِهِ. وَهَذَا بَابٌ عَجِيبٌ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ لَا يَتَنَبَّهُ لَهُ إِلَّا النَّادِرُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّ الذِّهْنَ قَدْ لَا يَشْعُرُ بِارْتِبَاطِ هَذَا بِهَذَا وَتَعَلُّقِهِ بِهِ»(١).

الآيات التي تقدَّم فيها المال على النفس:

١ – قال – تعالى –: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

٢ – قال – تعالى –: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١].

٣ – قال – تعالى –: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

٤ – قال – تعالى –: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

٥ – قال – تعالى –: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

٦ – قال – تعالى –: ﴿لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤].

٧ – قال – تعالى –: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

٨ – قال – تعالى –: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

٩ – قال – تعالى –: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨].

الآية التي تقدَّمت فيها النفس على المال:

١٠ – قال – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

من حِكَم تقديم المال على النفس في أقوال العلماء:

قال الآلوسي – رحمه الله –: «لعل تقديم الأموال على الأنفس

(*) عضو هيئة التدريس بالمركز العلمي الأول، ومعهد الإمام الشاطبي بجدة.

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ١/ ٤٨٤.

لِـمَا أن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعاً، وأتم دفعاً للحاجة؛ حيث لا يُتصَوَر المجاهدة بالنفس بـــلا مجاهدة بالمال، وقيل: ترتيب هذه المتعاطفات في الآية على حسب الوقوع؛ فالجهاد بـ (المال) لنحو التأهب للحرب، ثم الجهاد بالنفس»[1].

وقـــال ابن حيان – رحمـــه الله –: «تقـــديم الأموال على الأنفس؛ لأن المجاهد بائع، فأخَّر ذكرها تنبيهاً على أنَّ المضايقة فيها أشـــد؛ فلا يرضى ببذلها إلا في آخِر المراتب. والمشـــتري قُدِّمت له النفس تنبيهاً على أنَّ الرغبة فيها أشد، وإنما يرغب أولاً في الأَنْفَسِ الغالي»[2].

وقال صاحب البرهان – رحمـــه الله –: «وجه التقديم أن الجهاد يستدعي تقديم إنفاق الأموال أولاً؛ فهو من باب السبق بالسببية»[3].

وقال ابن القيم – رحمه الله – في حكمة تقديم المال على النفس:

«أولاً: هـــذا دليل على وجـــوب الجهاد بالمـــال كما يجب بالنفس، فإذا دهم العدو وجب على القادر الخروج بنفسه، فإن كان عاجزاً وجب عليه أن يكتري بماله.

ومن تأمَّل أحوال النبي ﷺ وســـيرته في أصحابه – رضي اللـــه عنهم – وأَمْرَهم بإخراج أموالهم في الجهاد، قطع بصحة هذا القول. والمقصود: تقديم المال في الذكر، وأن ذلك مشـــعِرٌ بإنكارِ وَهْمِ مَنْ يتوهم أن العاجز بنفســـه إذا كان قادراً على أن يغزو بماله لا يجب عليه شـــيء؛ فحيـــث ذكر الجهاد قدَّم ذكر المال؛ فكيف يقال: لا يجيب به؟

ولو قيل: إن وجوبه بالمال أعظم وأقوى من وجوبه بالنفس، لكان هذا القول أصحَّ من قـــول من قال: لا يجب بالمال، وهذا بَيِّن، وعلى هذا فتظهر الفائدة في تقديمه في الذكر.

وفائـــدة ثانية: علـــى تقدير عدم الوجـــوب؛ وهي أن المال محبوب النفس ومعشوقها التي تبذل ذاتَها في تحصيله وترتكب الأخطار وتتعـــرض للموت في طلبه، وهذا يـــدل على أنه هو محبوبها ومعشـــوقها، فندب الله – تعالى – محبِّيه المجاهدين في ســـبيله إلى بذل معشـــوقهم ومحبوبهم في مرضاته؛ فإن المقصـــود أن يكون الله هو أحب شـــيء إليهـــم، ولا يكون في الوجود شـــيء أحبَّ إليهم منه، فإذا بذلـــوا محبوبهم في حبه نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها؛ وهي بذل نفوسهم له؛ فهذا غاية الحب؛ فإن الإنســـان لا شـــيء أحبَّ إليه من نفسه، فإذا أحب شـــيئاً بذل له محبوبه من نفسه وماله، فإذا آل الأمر إلى

(١) الآلوسي: ٧/ ١٤١.
(٢) البحر المحيط: ٤/ ٢٤٢.
(٣) البرهان: ٣/ ٢٥٦.

تقدَّم جهـاد المال علـى الجهاد بالنفـس فـي تسـعة مواضـع، وتقدَّم جهاد النفـس على جهاد المال في موضع واحد

بَذْلِ نفســـه ضنَّ بنفســـه وآثرها على محبوبه. هذا هو الغالب وهو مقتضى الطبيعة الحيوانية والإنسانية؛ ولهذا يدافع الرجل عن ماله وأهله وولده فإذا أحس بالمغلوبية والوصول إلى مهجته ونفســـه فرَّ وتركهم، فلم يرضَ الله من محبيه بهذا، بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتهم. وأيضاً فبذل النفس آخر المراتب؛ فإن العبد يبذل ماله أولاً يقي به نفســـه، فإذا لم يبقَ له ماله بذل نفســـه؛ فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقاً للواقع.

وأما قوله – تعالى –: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْـتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَـهُمْ وَأَمْوَالَهُـم**﴾ [التوبة: ١١١]، فكان تقديم الأنفس هو الأَوْلَى؛ لأنها هي المشـــتراة في الحقيقة، وهي مورد العقد، وهي السلعة التي استلمها ربها وطلب شراءها لنفسه، وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنَّته، فكانت هـــي المقصودة بعقد الشـــراء. والأموال تَبَع لها فإذا مَلَكها مشـــتريها ملك مالها؛ فإن العبد وما يملكه لســـيده، ليس له فيه شـــيء؛ فالمالك الحـــق إذا ملك النفس ملك أموالها ومتعلقاتها»[4].

وقال الشـــنقيطي – رحمه اللـــه –: «وحقيقة الجهاد بَذْلُ الجهد والطاقة، والمال هـــو عصب الحرب، وهو مدد الجيش، وهو أهم من الجهاد بالســـلاح؛ فبالمال يُشـــتَرَى السلاح، وقد تُستَأجَر الرجال؛ كما في الجيوش الحديثة من الفِرَق الأجنبية، وبالمـــال يجهَّز الجيش؛ ولذا لما جـــاء الإذن بالجهاد أعذر الله المرضى والضعفاء، وأعذر معهم الفقراء الذين لا يســـتطيعون تجهيز أنفســـهم، وأعذر معهم الرسولَ ﷺ؛ إذ لم يوجد عنده مـا يجهزهم به؛ كما في قوله – تعالى –: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى**﴾ [التوبة: ٩١]، إلى قوله: ﴿**وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُـمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْـهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ**﴾ [التوبة: ٩٢].

وكذلـــك من جانب آخر: قد يجاهد بالمال من لا يســـتطيع بالسلاح كالنساء والضعفاء، كما ورد عن زيد بن خَالِدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ –: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(٤) بدائع الفوائد: ص ٨٦

فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»[1].

أما الآية الثانية: فهي في مَعْرِض الاستبدال والعرض والطلب أو ما يسمى بالمساومة؛ فقدَّم النفس؛ لأنها أعزُّ ما يملك الحي، وجعل في مقابلها الجنة؛ وهي أعزُّ ما يوهَب، وأحسن ما قيل في ذلك.

أُثامِنُ بالنفس النفيسة ربَّها
وليس لها في الخَلْقِ كلِّهم ثمن
بها تملك الأخرى؛ فإن أنا بعتُها
بشيءٍ من الدنيا؛ فذاك هو الغبن
لئن ذهبتْ نفسٌ بدنيا أصيبها
لقد ذهبت نفسي وقَدْ ذهب الثمَن

فالتجارة هنا معاملة مع الله إيماناً بالله وبرسوله، وجهاداً بالمال والنفس والعمل الصالح، كما قيل أيضاً[2]:

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً؛
فإنما الربح والخسران في العملِ»

وقال أبو بكر الجزائري: «يخبر - تعالى - مرغباً في الجهاد بالمال لتقدُّمه على الجهاد بالنفس؛ لأن العدة أولاً والرجال ثانياً»[3].

جهاد المال ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هو المشاركة بالمال في دعم المجاهدين وأُسَرِهم.

القسم الثاني: هو مقاطعة المعتدي الغاصب اقتصادياً ومالياً؛ وذلك من الجهاد بالمال أيضاً؛ فإذا كان الإنسان بخيلاً أو عاجزاً أو ضعيفاً؛ لا يستطيع المشاركة بماله في دعم تحرير هذه الأوطان المقدسة، فعلى الأقل يشاركُ بَقَطْعِ دعم العدو المحتل، الغاصب[4].

وفي سؤال لفضيلة الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله - قال فيه السائل: نجد أن الله - عزَّ وجل - في كثير من آيات الجهاد يقدِّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس؛ فما الحكمة من ذلك؟

فأجاب فضيلته بقوله: يظهر - والله أعلم - لأن الجيش الإسلامي قد يحتاج إلى المال أكثر من حاجته إلى الرجال؛ ولأن الجهاد بالمال أيسر من الجهاد بالنفس[5].

وفي السُّنة تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس:

عَنْ أَنَسٍ - رضي الله عنه - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ»[6].

الْجِهَادُ الْمُتَعَيِّنُ لِدَفْعِ الضَّرَرِ:

إذا كان المجاهد مديناً وتعيَّن الجهاد لدفع الضرر، قُدِمَ الجهاد بالمال على سداد الدين. قال ابن تيمية - رحمه الله -: «فَإِنْ كَانَ الْجِهَادُ الْمُتَعَيِّنُ لِدَفْعِ الضَّرَرِ؛ كَمَا إذَا حَضَرَهُ الْعَدُوُّ، أَوْ حَضَرَ الصَّفَّ قُدِّمَ عَلَى وَفَاءِ الدَّيْنِ كَالنَّفَقَةِ وَأَوْلَى»[7].

بعض النماذج التي توضح سبل الجهاد بالمال في ضوء الظروف التي تعايشها الأمة الإسلامية:

أولاً: إنفاق المال في تجهيز المجاهد بالسلاح:

فيجب على كل مسلم أن يدفع حقاً معلوماً من ماله لأُولِي الأمر من المسلمين؛ عقيدة وشريعة وقولاً وعملاً من المسؤولين عن الجهاد، وَلْيَكن لنا في سيرة الرسول ﷺ العبرة؛ حيث كان الصحابة والمسلمون من السابقين يتنافسون في نيل شرف إعداد الجيوش للغزوات: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]؛ وما تنافُس سيِّدنا أبي بكر وسيدنا عمر في تجهيز إحدى الغزوات بأموالهم إلاَّ نموذجٌ يجب أن يقتديَ به المسلمون.

ثانياً: إنفاق المال لكفالة أُسَر المجاهدين الذين استجابوا لنداء الجهاد تاركين خلفهم أولادهم ونسائهم:

إن هذه الأُسَر في حاجة مُلِحَّة إلى المال لكفالة متطلبات الحياة من المأكل والمشرب والمأوى. إن اطمئنان المجاهد أن هناك مجاهدين بأموالهم لا يبخلون بمالهم على أسرته، نوع من أنواع إعداد العدة للكفار الذين يحاربون الإسلام.

ثالثاً: إنفاق المال على أبناء الشهداء الذين سالت دماؤهم من أجل الإسلام والذود عنه:

فعلى أصحاب المال حقٌّ لهؤلاء؛ فإن المجاهد بنفسه، أقلُّ ما ينتظر منك تجاهه أن تجود بشيء من مالك من أجل زوجته وأولاده؛ حتى ينشؤوا أقوياء يتسلمون الراية ممن سبقوهم. إن أبناء الشهداء ينتظرون من أغنياء الأمة الإسلامية حقوقَهم، وألا يعتبروا ذلك منَّة أو هِبَةً منهم؛ ولكنه حق معلوم قرره الله لهم، في قوله - تبارك وتعالى -: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ - ٢٥].

رابعاً: إنفاق المال لتعمير آثار تدمير بيوت المسلمين:

فمن خصال اليهود والكفار والطواغيت على مَرِّ العصور التدمير والخراب، وتشريد المسلمين، وما أرض فلسطين وأفغانستان منَّا ببعيد؛ فماذا فعل اليهود في فلسطين؟ وماذا فعل الروس في أفغانستان؟ وماذا فعل الأمريكان في الصومال؟

اللهم يسِّر لنا سُبُلَ الجهاد بالأموال والأنفس بكرمك وجودك يا كريم! يا جواد!

---

(١) صحيح البخاري: بَاب فَضْلِ مَنْ جَهَّزَ غَازِياً أَوْ خَلَفَهُ بِخَيْرٍ، (٢٦٣١).
(٢) أضواء البيان: ٨/ ٢٤٨.
(٣) أيسر التفاسير: ١٣٤.
(٤) الشيخ محمد حسن الددو الشنقيطي في لقاء مع الجزيرة في برنامج الشريعة والحياة، تاريخ الحلقة: ٢١/ ٤/ ٢٠٠٢م.
(٥) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين: ٢٥/ ٣١٢.
(٦) مسند أحمد: مسند أنس بن مالك: (١١٧٩٨).
(٧) الفتاوى الكبرى: ٥/ ٥٣٧.

لا خـوف مـن

الإلقـاء

دورات معتمـدة

كـن خطـيب زمـانك

بعـد اليـوم ...

الخطيب الصغير:
دورات إلقاء للأبناء:
آداب اجتماعية
+ علـوم رجال
+ لبس المشلح

- تـم تنفيـذ (٢٥٠) دورة.
- وتدريب ١٠٠٠٠ متدرب ومتدربة.
- وتقديم ٨ دورات دوليـة.
- وتقديم ٤٥ برنامجاً لكبار الشخصيات والشركات والجهات الحكومية.

تحت إشراف المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني ترخيص (٢١٤/٤٨٩٥)

دورة مهارات الإلقاء تحقق:

* كيفية إعداد الكلمات والمحاضرات المقنعة والمؤثرة.
* كسر حاجـز الهيبـة من التحـدث أمام الآخرين.
* التعـرف علـى أسـرار التـأثـير.
* تنمـية مهـارات الإصـغـاء.
* التعـامل مـع الأسئـلة المفـاجئـة .
* تهيئـة خريجـي الجامعـات للتطبيـق والتدريس.

قالوا عن الدورة

بدأت الدورة بترغيب الإلقاء وانهيتها بحب المنبر
.....أبو عالجين.....

دورة الالقاء أعادت لي الثقة بالنفس
.....أورة.....

الآن اصبحت أقول ماأريد وأحسن ما أقول
الاسم/ ..... المهنة/ .....

دورة الألقاء دعرة تعلمك الثقه بالنفس وتشيط الأصلف
.....

من إصداراتنا
ألبومات وسيديهات : فن الإلقاء

من إصداراتنا
كتاب لماذا نخشى الإلقاء

إصداراتنا متوفرة لدى مكتبات:
جـرير ـ العبيكـان

مركز الإلقاء

أول مركز متخصص في الإلقاء والمواجهة
مدربون سعوديون ـ خبـرة ١٢ سنـة
الريـاض هاتف : ٠١/٤٧٧٩٩٩٢
جوال: ٠٥٣٣٣٩٥٩٣٣/٠٥٠٤٢٥٤٧٩٤
www.alelqa.com

الفتوى وتغيير المجتمعات

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk

يراد بالفتوى الإخبار بالحكم الشرعي أو بيانه في الواقعة المرادة، والفتوى تقوم بمهمة تأسيس العقائد والمعارف، كما تقوم بمهمة تغييرها وتعديلها، ولها من التقدير والتبجيل عند مجموع الأمة المسلمة ما يعطيها المكانة العالية والقمّة السامقة التي لا يكاد يدانيها شيء في ذلك.

ومنصب الفتوى منصب عظيم لمن قام بحقه؛ إذ المفتي مخبر عن الله - تعالى - وعن رسوله ﷺ بما يحبه ويرضاه أو بما يكرهه ويبغضه، ومن كان متفقهاً في الدين فهو ممن أراد الله به خيراً؛ كما قال الرسول الأمين ﷺ: «من يُرِد الله به خيراً يفقّهه في الدين». كما أن المفتين الفقهاء هم سادة الأمة الذين يرجع الناس ويفزعون إليهم في الملمات؛ حتى أطلق عليهم بعض أهل العلم لقب «الموقعين عن رب العالمين».

من أجل ذلك اعتمدها (أي: الفتوى) الصلحاء وأهل الخير لتصحيح العقائد ومقاومة الانحراف السلوكي والفكري، واستعانوا بها في تحقيق مرادهم من أقصر طريق.

وفي الجانب المقابل اعتمدها أهل السلطان في تدعيم سلطانهم، ومن أجل ذلك قربوا إليهم مِن أهل العلم والفتوى مَن يرون تعلُّقه بالدنيا وأعطوهم من حطامها الفاني الذي مهما كثر فلن يدوم وأعطاهم أولئك في مقابل ذلك الفتاوى التي تؤيد مسالكهم ويتحصنون بها في مواجهة معارضيهم ومنتقديهم، كما اعتمدها أهل الأهواء في التلبيس على العامة لنشر بدعهم وضلالاتهم.

كما اعتمد عليها أعداء الأمة والملة لاختراق المجتمعات وتغيير القناعات وإفساد العقائد والتصورات والسلوكيات، وقد ساعدت التقنيات الحديثة والتطور الهائل في وسائل الاتصال في إحداث طفرة غير مسبوقة في هذا المجال؛ فما إن تصدر فتوى في جانب من المعمورة إلا ونجد صداها يتردد بين جنباتها الأخرى.

وفي ظل مجتمعات مسلمة تتقيد بالأحكام الشرعية وترى في ذلك حياتها وحيويتها، تكون الفتوى الشرعية من أكبر العوامل التي تسهم في تغيير المجتمعات ونقلها من طور إلى طور.

إنه عندما تكون الفتوى متقيدة ومنضبطة بالنصوص الشرعية والقواعد الفقهية والمنهج الصحيح في الفهم والاستنباط، يكون التغير منطقياً متفاعلاً مع الواقع ويتم ذلك في سلاسة من غير طفرات، لا يشعر الناس معه بقطيعة مع ما كان سائداً، بل يرونه متماشياً معه حتى وإن خالفه؛ لأن كليهما صادر عن المرجعية نفسها ومن خلال المنهج نفسه.

وعندما تكون الفتوى انتقائية هوجاء لا هدف لها سوى تغيير المفاهيم، أو التناغم مع مؤثرات دخيلة، وليست استجابة لواقع ببيان حكمه، يكون التغيير حاداً يشعر الناس معه بقطيعة فكرية ووجدانية مع ما كان سائداً، وربما يظهر بجانبه خطاب التبديع أو التفسيق لما كان سائداً، وربما التكفير (في الفتاوى الغالية)، وتكون الفتوى في هذه الحالة هي المنشئة للواقع؛ بحيث تقحمه في حياة الناس إقحاماً، ويكون من نتيجة ذلك تذبذب القناعات عند كثير من الناس ليس بالتشكك فقط في ما كان سائداً، بل ربما بالاقتناع بالجديد المغاير والدفاع عنه ومحاولة الاستدلال له بالعقل والنقل ودعوة الناس له، فينتج من ذلك فساد عريض في الحياة العلمية والعملية، ويكثر الحديث والجدل حول هذه المواضيع حتى يُصْرَف الناس عن الأمور الهامة التي تؤثر في دنياهم وأُخْرَاهم.

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، ومع ضغط المجتمع الغربي المباين للإسلام، وضعف كثير من الأنظمة في مواجهة الضغوط، انفلت زمام الثبات على المعلوم المستقر من مذاهب أهل العلم، واتسع الخرق على الراتق في الفتاوى المخالفة لما عليه جماهير المسلمين ولما استقر عليه العمل قروناً متطاولةً، وبدأت تظهر المقولات الفاسدة من غير أن تجد لها رادعاً قوياً يردعها، وكان الرد في كثير من أمره يحدث على استحياء، بل في غالب الأحيان نجد من يَقبَلُها ويروِّج لها - حتى ينجوَ هؤلاء من وصمة الإرهاب التي اتخذها الصليبيون سيفاً مصلتاً على رقاب المسلمين - من الذين قدَّمهم الإعلام وأبرزهم وأُسبغَت عليهم الألقاب والهالات حتى طغت صورهم وأسماؤهم. وفي الطرف المقابل أُهمِل كثير من الثقات من أهل العلم المشهود لهم على طول العالم الإسلامي وعرضه بالعلم والتقوى والإخلاص لدينهم والحرص على مجتمعهم، فلم يُرجَع إليهم ولم يُؤخذ بقولهم، بل غُيِّبَ دور بعضهم وتطاول كثير من الرويبضات على الرموز الشامخة منهم.

ففي الجانب السياسي - مثلاً - نجد كثيراً من المعاهدات المبرَمة بين بعض الدول الإسلامية وبين الدول الغربية لم يؤخذ رأي الفقهاء فيها ولم يشتركوا في صياغتها، بل لا يعلمون على وجه التفصيل ما اشتملت عليه من التزامات، ودورهم فيها لا يتجاوز إعلان شرعيتها بعد توقيعها ليس لموافقتها للأحكام الشرعية، وإنما تحسيناً للظن بمن وقَّعها، على الرغم مما قد يقع فيها من طوامَّ.

ودخل كثير ممن لا يُحْسِن الفهم والاستنباط في الفتوى، وظن أن وضعه الذي هو فيه يعطيه الحق في الإفتاء، فنجد كثيراً ممن يعملون في الإعلام (في الصحافة أو في الإذاعة المسموعة أو المرئية) من يدلي برأيه في المسائل الخطيرة التي لا يَحْسُن الكلام فيها إلا من الراسخين في العلم، بل نجد مِن (أهل الفن) مَن يتكلم في ذلك بما يبين صواب مسلكه مدعياً بعض الكلمات التي لا تُسمِن ولا تغني من جوع، كقولهم: (الإسلام لا يحارب الفن)، أو (الإسلام لا يقف في سبيل الإبداع)، أو (الإسلام يرفض التشدد والتنطع...) ويرتِّبون على ذلك حِلَّ أنواع الفنون المختلفة كالأغاني والموسيقى والتمثيل والرقص والرسم والنحت لذوات الأرواح بدعوى أن تحريم ذلك كان في أول الإسلام.

إن هناك ممن ينتسبون إلى العلم من يتعامل مع الفتوى الشرعية وكأنها من ممتلكاته الخاصة، التي يحق له أن يعطي منها ما شاء لمن يشاء، وكأنه ليس مقيداً بنصوص شرعية، أو محكوماً بقواعد أصولية في استنباط الأحكام الشرعية، إننا نجد هذا المسلك في كلِّ أو جُلِّ ما يتعلق بمعاملة الكفار

والمشـــركين، الذين جرى التعبير عنهم بلفظ «الآخر»، وما يتعلق بأهل الذمة (ساكني دار الإسلام من غير المسلمين) الذين جرى التعبير عنهم كذلك بلفظ آخر، هو: «الإخوة أو شركاء الوطن».

إن الأحكام الشرعية ليست من مُلْك أحد، ولا يحق لأي مســلم مهما كانت منزلته العلمية ولو كان شــيخ إسلام، أو وجاهته الدنيوية ولو كان أميراً أو رئيســاً أو ملكاً، أن يُدخل أي تعديلات على الأحكام الشــرعية، بل إن محاولة إدخال هذه التعديلات تقدح في دين من يحاولها؛ إذ عبودية المسلم لربه والإذعان لسلطانه، تقتضي قبول كل ما شرعه والتسليم له، وهو ما سجله ربنا – تبارك وتعالى – في قوله: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُــولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَــا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]، وقوله: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَــجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

ومنذ أن شــنت أمريكا وحلفاؤها الحرب على الإســلام تحت ذريعــة محاربة الإرهاب، لم تنقطــع الفتاوى المناقضة للدين تحت مســميات متعددة تُســتخدَم في غير مواضعها: كالتســامح، والوحدة الوطنية، وحقوق الإنسان... وغير ذلك من المســميات. والحقيقة أن وظيفة المفتي ومكانته ودوره كل ذلــك يقتضي منه التحــرز فيما يفتي بــه وأن لا يتابع هواه وألا يُســتدرَج من قِبَل بعض المغرضين أو يُســتغفَل من قِبَل بعض الساســة أو أصحاب الســلطان فيقع في الكذب على الله – تعالى – ورســوله ﷺ مسارعة في مرضاتهم وتحقيقاً للمكانة لديهم.

نماذج من الفتاوى التغييرية:

فوجئ المســلمون بالعديد من الفتــاوى التي لا فائدة من ورائها ســوى تغريب المجتمعات وإفســادها، وما هي إلا اســتجابة لضغوطات المؤسســات أو الهيئات أو التوجهات المناوئة للإسلام:

١ – صدمتنا الفتوى الموقَّع عليها من عدد ممن يُنظَر إليهم علــى أنهم من العلماء التي تقول: إنه يجوز للمســلم الأمريكي أو البريطانــي ونحوه العامل في جيش بــلاده أن يقاتل معهم إذا حدثت مواجهة عســكرية بين بلده وبين بلد إســلامي ولو أدى ذلك لقتل إخوانه من المســلمين؛ وذلك إثباتاً لولائه لبلده، فقدموا الولاء للوطن (ولو كان دار كفر) على الولاء لله ورسوله والمؤمنين.

٢ – وفوجئنــا بمن يفتي لدولة نصرانيــة عَلمانية بأنه يحق لها أن تسن قانوناً يمنع المسلمات من الالتزام بلباسهن الشــرعي، وأن على المسلمات الخضوع للقوانين التي تتدخل فــي حقوقهن الشــرعية بالمنع، وأن من لا يــروق لها ذلك فعليهــا أن تهاجر من بلدها الذي هو موطنها وموطن آبائها وأجدادها، وليس لها وطن غيره.

٣ – استقرت الفتوى عقوداً طويلة على أن فوائد البنوك ربــاً جليّ، وصدر بذلك فتاوى من عدد من المجامع الفقهية، حتــى ظهر من يتبجح ويقول بحل الفوائد وأنها ليســت من الربا ويقول عن البنوك الربوية: إنها أكثر التزاماً بالشرع من البنوك الإســلامية؛ مجرِّئاً بذلك المسلمين على أكل الحرام، ومثبتاً للبنوك الربويــة على نهجها الخاطئ ووأداً لأي بادرة لتوبة البنوك ورجوعها عن الربا.

٤ – وجدنا مــن يفتي بجواز أن تُرضِــع المرأة الموظفة زميلها في العمــل حتى يكون محرماً لهــا للنجاة من عوار مشــكلات الاختلاط، ولو طولب هذا المفتي أن يبين لنا قول شراح الحديث في شرح الحديث الذي يستدل به لكفَّه ذلك عن كثير من قوله في هذه المسألة.

٥ – ثم وجدنا من يقول بجواز فك السحر بالسحر.

٦ – ووجدنا بعد ذلك من يتطوع بالإفتاء بحِلِّ الاختلاط ويجهد نفســه في البحث والتنقيب عما يمكن أن يستدل به لرأيه حتى جاء من ذلك بما يعجب منه المرء غاية العجب.

٧ – ومنذ وقت قريب وجدنا من يقول بحِلِّ الأغاني حتى مــا كان منها مصحوباً بــالآلات، ويخطِّئ جمهور أهل العلم القائلين بعكس ذلك.

فهذه عيِّنة من الفتاوى التي لو عُمِلَ بها لجرفت المجتمع بعيــداً عن دائرة الســداد وأدخلته في دوائــر متعددة من الانحراف.

الفتاوى التغييرية تحتاج إلى علاج ناجع يكفُّ ضررها عن الملَّة والأمة، علاج تشارك فيه أكثر من جهة

وأصبح مجتمعاً تزيغ فيه العقائد؛ حيث الذهاب للسحرة والاستعانة بهم، مجتمعاً تضيع فيه معاني الولاء والبراء؛ حيث يُقدَّم الولاء للتراب على الولاء للعقيدة، ويُتعيَّش من المال الحرام؛ إذ يشيع التعامل بالربا، وتفسد الأخلاق؛ إذ يشيع الاختلاط، وتضيع معاني الرجولة؛ حيث الاستماع للأغاني المصحوبة بآلات الطرب، وغير ذلك مما يترتب على تلك الفتاوى؛ فلو تصورنا المجتمع وقد وصل إلى تلك الحالة جراء تلك الفتاوى لَبَعُدَ علينا تصور أن ذلك المجتمع ينتمي إلى المنظومة الإسلامية.

علاج ذلك:

إن الفتاوى التغييرية تحتاج إلى علاج ناجع يكفُّ ضررها عن الملَّة والأمة، علاج تشارك فيه أكثر من جهة:

١ - جهة المستفتين: وذلك بنشر الوعي بينهم فلا يستفتون إلا من يُوثَق في دينه وأمانته وعلمه، ولا يكتفون في ذلك بمجرد ظهوره في فضائية، أو بقدرته الوعظية؛ فالفتوى غير الوعظ وغير الترغيب والترهيب، والفتوى أمرها خطير ولو كانت في أمر يظن الناس أنه سهل، وقد كان يتهيب الإقدامَ عليها كثير من أهل العلم؛ فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «أدركت مائة وعشرين من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأَل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول»، فلا ينبغي للمستفتي أن يسأل إلا ثقةً، ولا يقبل منه قولاً إلا أن يبين له دليله إن كان يفهم الدليل، أو يبين له عمَّن أخذه من أهل العلم. وعلى المستفتي أن يعلم أن أغلب من يفتي مهما بلغ علمه فهو ليس مجتهداً مطلقاً وإنما هو تابع لمذهب من المذاهب المعروفة، ومن ثَمَّ فليس له إلا أن ينقل عن المذهب، ولو أن المستفتي طلب من المفتي أن ينقل له نص إمامه أو نص المذهب لامتنع المفتي عن كثير من الفتاوى التي يطلقها بغير زمام ولا خطام، قد يقول المفتي: ما قلته هو نص الحديث النبوي؛ ورغم إقرارنا أن الحديث الصحيح حجة بنفسه ولا يحتاج في ذلك أن يكون قال به قائل، لكننا قد لا نثق في تطبيق المفتي للحديث على الواقعة المعروضة؛ لذا نطلب منه أن يخبرنا مَن مِن أهل العلم قبله فهم من الحديث الفهم الذي يقول به؟

٢ - جهة المفتين: حيث يعلم المفتي الخطورة التي وضع نفسه فيها بارتقائه ذاك المرتقى الصعب، كما جاء في الحديث: «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار»[١] قال المناوي: «لأن

(١) سنن الدارمي.

استقرت الفتوى عقودا طويلة على أن فوائد البنوك ربا جلي وصدر بذلك فتاوى من عدد من المجامع الفقهية، حتى ظهر من يتبجح ويقول بحل الفوائد

المفتي مبيِّن عن الله حكمه؛ فإذا أفتى على جهل أو بغير ما علمه أو تهاون في تحريره أو استنباطه فقد تسبب في إدخال نفسه النار لجرأته على المجازفة في أحكام الجبار»[٢]، وقال الله - تعالى -: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]. قال الزمخشري: «كفى بهذه الآية زاجرة زجراً بليغاً عن التجوز فيما يُسأَل من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيها، وأن لا يقول أحد في شيء: جائز أو غير جائز. إلا بعد إتقان وإيقان، ومن لم يوقن فَلْيَتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله، تعالى». وقال ابن المنكدر: «المفتي يدخل بين الله وبين خلقه فَلْيَنظر كيف يفعل فعليه التوقف والتحرز لِعِظَم الخطر».

جهة الولاية: حيث إن ولاة أمر المسلمين مكلفون بالحفاظ على دين المسلمين كما هم مكلفون بالحفاظ على دنياهم؛ لذا فإن من واجب ولاة الأمر الحجر على المفتين الذين يفسدون بفتاواهم الدين، وذلك كالمفتين الذين يفتون بالأقوال الشاذة ويتتبعون زلات العلماء، أو الذين يعلِّمون الناس الحيل حتى يتفلتوا من الأحكام الشرعية، أو الذين يفتون وهم غير مؤهلين للفتيا، ورحم الله ربيعة شيخ مالك حينما قال: «لَبَعضُ من يفتي هنا أحق بالسجن من السراق»، ورحم الله الحنفية عندما أفتوا بالحَجْر على المفتي الماجن[٣]، وقالوا: هو أحق بالحجر من الذي يمارس الطب وليس بطبيب، فإذا كان من يتطبب وهو ليس بطبيب يفسد الأبدان، فإن من يفتي وهو ليس بمفتٍ حقيقة فإنه يفسد الأديان.

نسأل الله - تعالى - من فضله أن يحمي مجتمعاتنا من زلل الفتوى وخَطَلِها وأن يوفق أهل العلم لقول الحق والثبات عليه، وألا يضعفوا أمام الواقع فيكون دورهم البحث عن مخارج له لا قيادته وتغييره ليكون موافقاً لشرع الله، تعالى.

(٢) فيض القدير: ١/٢٠٦.

(٣) المفتي الماجن: من لديه الآلة الفقهية لكن تنقصه الأمانة العلمية، فيفتي الناس بما يحبون ويدلهم على الحيل.

هل كُتبَت «الأناجيل» باليونانية؟

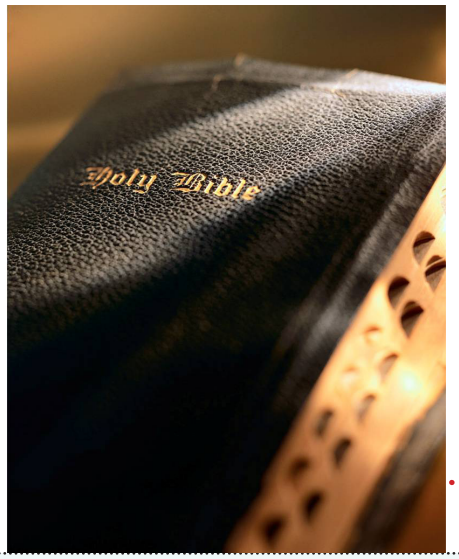

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

ترددتُ كثيراً في الكتابة حول هذا الموضوع لما يستدعيه من تفصيل قد ينوء بغير المهتمين به. لكنني لمَّا رأيت كثيراً من الدعاة إلى الإسلام في أوساط أهل الكتاب قد توهم صواب ما يزعمه علماء النصارى الغربيون من أن عيسى – عليه السلام – كان يتحدث اليونانية مع حواريه وأن كُتَّاب أسفار العهد الجديد كتبوها باليونانية شرعت في الأمر ليعلم المهتم بهذا الشأن أن كل المخطوطات اليونانية للعهد الجديد – وهي التي يحتج بها النصارى لإثبات أن الله قد حفظ كتابهم – ما هي إلا ترجمات هزيلة لأصل ساميٍّ أقل هزالاً وهو نسخة الـ «بشيطا» أو البسيطة السُريانية.

تُعَدُّ السريانية لغة متطورة عن الآرامية التي كانت سائدة في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد وقد حلت محل اللغة الأكَّادية لتصبح اللغةَ الرسمية في المنطقة المسماة بالشرق الأوسط[1].

وقد اختلف العلماء في أيهما كانت اللغة الرسمية في زمن المسيح – عليه السلام –: (الآرامية – السريانية) أم اليونانية؟ فيرى جمهور علماء الغرب أن كلتا اللغتين كانت ذات حضور قوي إلا أن اليونانية كانت هي اللغة الرسمية. وهذا الرأي محاولة من قِبَل الكنيسة الرومية لاختطاف النصرانية وجعلها تراثاً غربياً لا يختلف عن تراث فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو. لكن الدلائل التاريخية تشير إلى خلاف هذا تماماً. فـ «جوزيفوس» اليهودي – على سبيل المثال – الذي كان ربيب البلاط الرومي في القرن الأول الميلادي يعترف بقوله: «وقد عانيت أيما معاناة لتحصيل علوم اليونان وفهم عناصر اللغة اليونانية، على الرغم من أني اعتدْتُ الحديث بلساننا نحن [العبرانية أو الآرامية] حتى إنني لا ألفظ اليونانية بدقة كافية»[2]. وهذا دليل على أن اليونانية لم تكن اللغة الرسمية لعِلْية القوم فضلاً عن العامة.

كما يذكر «جوزيفوس» في كتابه «الحروب اليهودية» أن الروم طلبوا منه أن يدعو اليهود «بلغتهم الخاصة بهم» إلى الاستسلام. ولو كانت اليونانية يومئذٍ لغة رسمية يتحدثها اليهود والنصارى لأمكن التفاهم معهم بها دون الحاجة إلى العبرية أو الآرامية.

وعليه فإن الراجح أن اللغة السائدة بين اليهود والنصارى يومئذٍ كانت الآرامية أو العبرية وأن أسفار العهد الجديد كُتبَت بلسان «ساميٍّ» ولم تكتب باليونانية كما يدَّعي نصارى الغرب؛ فهذا «يوسيبيوس القيصري» يخبرنا أن «متَّى» الذي يُنْسَب إليه أول أسفار العهد الجديد «كتب إنجيله بلغته المحلية»[3]. أما الأب «جيروم»

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(1) Encyclopedia Britannica, «Aramaic Language».

(2) Josephus, F. Antiquities 20:263-4. JOE Josephus Works - English Text. 1828 Whiston translation. (1999-2001 BibleWorks LLC), CD Version.

(3) Schaff, P. The Nicene and Post-Nicene Fathers Second Series Vol. I. (Oak Harbor: Logos Research Systems, 1997), p. 152.

فيصرح بذلك قائلاً: «[متَّى] كان عبرانياً فكتب بالعبرانية»[1].

وأما من بين العلماء المعاصرين فإننا نجد «توري» يصرح بأن «سفر الرؤيا [آخر أسفار العهد الجديد] كُتب بلغة سامية، وأن الترجمة اليونانية ... تُعَد نقلاً دقيقاً جداً للأصل»[2]. ويؤيده في ذلك «ر. ب. سكوت» بقوله: «سفر الرؤيا في مجمله ترجمة عن العبرانية أو الآرامية»[3].

إن الترجمة اليونانية للنص السامي – الذي هو عندي نسخة «البسيطة» السريانية – مليء بالأغلاط الناتجة أحياناً عن المحاكاة المفرِطة للتراكيب السامية للنص السرياني، وأحياناً أخرى عن عدم فهم المعنى أو التعابير والصور البلاغية.

وأورد هنا بعض الأدلة النصية من أسفار العهد الجديد تبيِّن ما أشرت إليه من أن النسخ اليونانية لا تعدو ترجمات باهتة للنص السرياني للعهد الجديد المعروف بالـ «بشيطا». ولكن قبل إيراد الأمثلة أبيِّن الشاهد منها مجملاً. فلو أن أحداً عثر على الترجمات الإنجليزية التالية لنص مَّا:

- I passed by Saturn
- I passed by a leg
- I passed by a man

لما تردد في الجزم بأنها كلها ترجمات للجملة العربية: «مررتُ برَجُل» غير منقوطة أو مشكولة: فالترجمة الأولى قرأته: «مررت بزُحل»، والثانية: «مررت برِجْل»، والثالثة هي التي أصابت كبد الحقيقة فترجمته كما ينبغي. مثل هذا هو سبب اختلاف النسخ اليونانية المترجمة عن الأصل السرياني.

ونقرأ في رسالة بطرس الأُولَى (٣: ١٣) وَفْقاً لبعض الترجمات: «ومن سيؤذيكم إن كنتم متحمسين للخير» وفي ترجمات أخرى «ومن سيؤذيكم إن كنتم مقلِّدين للخير». فالاختلاف في الترجمتين ليس ناتجاً عن اختلاف الأسلوب وتخيُّر المرادفات، بل مرَدُّه إلى اختلاف النسخ اليونانية أصلاً. فتلك التي اختارت «متحمسين» آثرت النسخ اليونانية التي تقول (zélotai)، وتلك التي ترجمتْها «مقلدين» تبعت في ذلك النسخ اليونانية التي تقول (mimétai). لكننا عندما نرجع إلى النسخة السريانية نجدها تستعمل الكلمة (ط – ن – ن – ا). ومن معاني هذه الكلمة – كما يؤكد «المعجم الآرامي الشامل» CAL – «متحمِّس» أو «مقلِّد». فدل على أن الاختلاف بين

النسخ اليونانية عائد إلى اختلاف فهم المترجمين اليونان للأصل السرياني.

وقد يكون اختلاف الترجمة اليونانية ناتجاً عن قراءة خاطئة للكلمة السريانية فيظن المترجم أنها شبيهتها. مثال ذلك قول بولس في رسالته إلى رومية (٥: ٧): «ولا يكاد يموت أحدٌ من أجل امرئ **بارٍّ**، وربما جرؤ أحد أن يموت من أجل امرئ صالح». وهو معنى هزيل كما ترى؛ فما معنى التضحية من أجل البارِّ دون الصالح؟

وعند العودة إلى الأصل السرياني نجد أن الكلمة التي تُرجمت «بارّ» هي (ر – ش – ي –ع – ا) بمعنى «طالح» أو «شرير». لكن الفرق في الخط السرياني السطرنجيلي بين صورة هذه الكلمة وصورة (ر – ش – ي – ن – ا) أي «بارٌّ» دقيق جداً. فكأنَّ الأمر التبس على المترجمين اليونان فظنوها (ر – ش – ي – ن – ا) للشبه الكبير بينهما، فتسبب ذلك في غرابة المعنى. فترجمة الفقرة وَفْقاً لنسخة البسيطة السريانية هي «ولا يكاد يموت أحد من أجل امرئ طالح، وربما جرؤ أحد أن يموت من أجل امرئ صالح» وهو معنى مقبولٌ وأكثر منطقية. ومثل هذه الاختلافات كثيرة جداً في النسخ اليونانية.

خلاصة القول: إن الأناجيل المحرفة التي يؤمن بها النصارى إنما كُتبت بالسريانية أصلاً ثم نقلت إلى اليونانية بصورة حرفية جداً تسببت في ركاكة النص اليوناني معنىً ومبنىً كما يقر بذلك المتخصصون في يونانية العهد الجديد.

أمَا وقد ثبت هذا فإن مخطوطات العهد الجديد التي يتباهى بها النصارى اليوم ليست سوى مجرد ترجمات وإن بلغت الآلاف، فلا يمكن إذن أن يُحتجَّ بها لإثبات أن أسفارهم محفوظة. كما أن النسخة السُّريانية «البسيطة» التي هي مصدر تلك النسَخ اليونانية لا تسلم من أغلاطٍ كبيرة؛ فأين مصادركم معشر النصارى؟

(1) Schaff, P. The Nicene and Post-Nicene Fathers Second Series Vol. III. p. 363.

(2) Torrey, C. C. Documents of the Primitive Church (New York: 1941), p. 160.

(3) Scott, R.B.Y. The Original Language of the Apocalypse (Toronto: 1928), p. 6.

وسائل التكنولوجيا الحديثة في خدمة الدعوة

عادل عبد الله هندي(*)

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على سيد الدعاة المخلصين العاملين، أسْلم الناس صدراً، وأزكاهم نفساً، وأحسنهم خُلُقاً، وبعد: فإن الدعوة إلى الله - تعالى - هي مهمة ورسالة أشرف الخلق (الأنبياء والمرسلين) - عليهم الصلاة والسلام - وهي سبب خيرية أمة الحبيب محمد ﷺ.

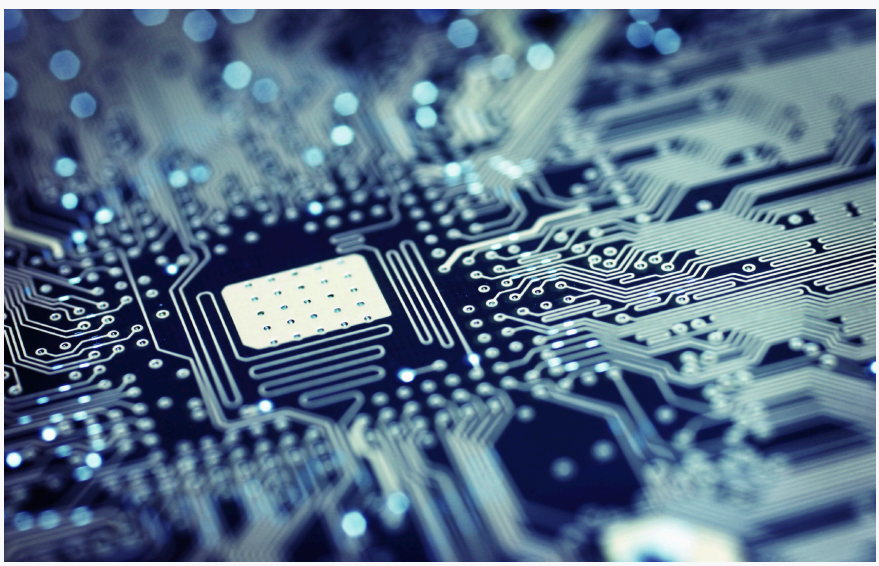

ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين كان يقول: «من سرَّه أن يكون من هذه الأمة فليؤدِّ شرط الله فيها. قالوا: وما شرط الله فيها يا أمير المؤمنين؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

إن الأمة - وحالها لا يخفى على عاقل أو مهتم بأمته - أحوج ما تكون إلى سلوك سبيل الإسلام في تطويع وسائل التكنولوجيا الحديثة لخدمة هذه الدعوة التي كانت سبب خيرية هذه الأمة الرائدة.

ثم إن عصرنا الحالي ظهرت فيه وسائل متعددة في التواصل والاتصال؛ فمنها: تطبيقات شبكة الإنترنت المختلفة، والموسوعات الإلكترونية المطبوعة على أقراص مدمجة «CD»، ومنها أيضاً الهاتف الجوال، وما يشمله عالم الكمبيوتر من (البالتوك، والبريد الإلكتروني، والمنتديات والشات، والجروبات... وغيرها كثير).

والداعي إلى الله لا ينبغي له بحال من الأحوال أن ينفصل عن هذا التقدم الحادث في وسائل الدعوة، فعليه أن يستفيد من هذه التقنيات الحديثة؛ لأن التقوقع داخل مسجد أو نادٍ أو مركز شباب فحسب دون الاستفادة من الوسائل الأخرى ينفق كثيراً من الوقت والجهد الذي يمكن توفيره، ومن هنا فقد جاءت هذه المقالة لتضع يد الدعاة على كيفية الاستفادة من هذه التقنيات الحديثة المتوفرة في خدمة دعوتهم وتحقيق أهداف رسالتهم و «الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ؛ فَحَيْثُ وَجَدَهَا

(*) عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

فَهُــوَ أَحَقُّ بِهَا» فالداعية مطالَــب أن يطوِّر ذاته وأن يطور من دعوته ووســائلها، ورحم الله الرافعي حــين ترجم لهذا المعنى بقوله: «إن لم تزد شيئاً على الدنيا: كنت أنت زائداً عليها».

وأهدافنا من إعداد هذه المقالة الدعوية ما يلي:

١ – وضع الخطوط العريضة في كيفية الاستفادة الواقعية منها.

٢ – تثقيف الصف المسلم بما يلزمه في عصر التكنولوجيا المتطورة.

٣ – إثبــات أن الديــن الإســلامي دين واقعــي متــميز متوازن.

٤ – شرح كيفية اســتخدام الإنترنت والموسوعات العلمية الإلكترونية اســتخداماً صحيحاً بعيــداً عن الانحراف؛ بحيث يسوق إلى الحق، ويدفع إلى التميز والفلاح.

وتنبع أهمية هذه الوسائل التكنولوجية الحديثة من الأسباب الآتية:

١ – اهتمام غير المسلمين بوسائل الاتصال الحديثة؛ لدفع الناس إلى تحقيق مكاســب مادية بحتة. بينما كان الأَوْلَى ببني الإسلام أن يأخذوا بهذه الوسائل الحديثة.

٢ – لأن الوســائل التكنولوجية اليوم تتميــز بانعدام المحدودية؛ فليــس لها حدود زمانية ولا مكانية ولا نوعية أو جنســية؛ ولذا فهي تتخطى كل الحواجز، أضف إلى ذلك ســهولة استخدامها وصيرورتها شيئاً عادياً، ليس من الصعب التواصل بها والتعامل معها.

٣ – لتوجُّه أنظار الناس جميعاً إلى هذه الوسائل واهتمامهم وتعلقهم بها.

٤ – اختــلاف أنواعها، وأشــكالها (فمنها الصوتي، ومنها الصوري، ومنهــا الفيديو، ومنها الرســائل...)، وهو ما يدعم أهميتها.

٥ – أنها تصل إلى الملايين في كافة أنحاء العالم، وهو ما يمكِّن الداعية من الوصول إلى الناس بسهولة وبدون تضييقات معيَّنة.

إن الداعية – على ضوء ما سبق – مطالَب بتطوير وسائله الدعوية حسب العصر بما يتناسب مع الشريعة الغراء، كما أنه من الضروري أن نوضح أنَّ الإسلام لم يحدد لنا خريطة طريق دعوية محددة نســير عليها لا يمكــن أن نتجاوزها وأن نبتكر فيها أو نجدد في رحابها، بل ترك لنا مســاحة كبيرة للابتكار ووضع لنا قاعدة ثابتة في السير على منهج الدين، بدون إفراط ولا تفريط. قال – تعالى –: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، والحكمة: هي وضع الشــيء المناسب في المكان والزمان والشخص المناسب.

ومن هنا فقد لزم لكل داعية أن يخرج من صومعته ومن تقوقعه حول الوسائل القديمة ذاتها، والناس ينتظرون الجديد الجذاب.

وســائل التكنولوجيا الحديثة يمكن استخدامها في الدعوة إلى الله، تعالى:

لقد تعددت الوسائل الدعوية، في العصر الحالي، فلم يعد المســجد فقط أو الشريط الإسلامي أو الكتاب والكتيبات هي الوســيلة الدعوية للدعاة إلى الله – مع عدم التقليل من شأن هذه الوسائل وأهميتها الدعوية – بل تطورت الوسائل وتعددت في زمن العالم المفتوح، والقرية الصغيرة.

والهدف هنا ليس حصراً لعدد من الوسائل الجديدة بقدر ما هو تنبيه إليها وإلى طريقة استخدامها دعوياً ليكون الداعية متواصلاً مع المجتمع الذي يعيش فيه.

أولاً: الفيــس بــوك «Facebook»: وهو موقع اجتماعي شــهير يدخل عليه حوالي ٢٥٠ مليون إنســان على مســتوى العالم، وهو ما يؤكد أهميته ورواجه الواقعي، ومن خلاله يمكن التواصل مع أي إنسان في أي مكان وزمان، ومن هنا فقد انتبه إليه دعاة كُثُر في زماننا، وتم عمل صفحات شخصية لهم عليه لمخاطبة جماهيرهم ونشــر الدين والدعوة داخل العالم العربي وخارجه، وبالنسبة لتطويعه دعوياً فإنه يمكن القيام بالآتي:

١ – عمل مجموعات «GROUPS» تدعو إلى الحث على الفضيلة ونشرها بين الناس.

٢ – مراسلة جميع أصحاب الصفحات الموجودة لديك بما تريد توصيله من قيم وأخلاق وغيرها من أعمال فاضلة.

٣ – التواصــل مــع غير المســلمين لدعوتهم إلــى الدين الإسلامي العظيم؛ وذلك بإتقان لغة المخاطب، وتوضيح صورة الإسلام الصحيحة التي شوهها الغرب عبر إعلامهم.

٤ – محاربة المجموعات التي تقوم بتشــويه صورة الإسلام والضغط علــى موقع الفيس بوك لإغلاقهــا، وهذا ما حدث بالفعل مراراً وتكراراً.

ثانياً: التويتر «TWITTER»: هو أحد المواقع التي تقدم خدمات مجانية للتواصل الاجتماعي والتدوين المصغر، ويسمح للمســتخدمين بإرســال أهم اللحظات في حياتهم في شــكل تدوينــات نصية لا تزيد عن ١٤٠ حرف إلى موقع تويتر؛ وذلك من خلال خدمة الرســائل النصية القصيرة، برامج التراســل الفوري، أو البريد الإلكتروني.

ثالثاً: يوتيوب نقــي (YOUTUPE): (موقــع فيديوهات) إســلامي محترم، يمد يومياً بكل جديــد. وهو موقع قام به بعض

الشـــباب الســـعوديين يقوم بعرض لقطات الفيديـــو الخالية من المحتـــوى المخالف لمبادئ الدين الإســـلامي، مـــن موقع «يوتيوب» الشـــهير، المختلط فيه الحابل بالنابل، www.naqatube.com وفي تصوري أنه أحد الوســـائل المهمة جداً لتوصيل الإســـلام إلى المســـلمين - خاصة - عبره من خلال المقاطع الإسلامية (المرئية، والصوتية).

رابعاً: الإيميـــلات (E:mails) ومجموعـــات البريد الإلكتروني (Hotmail - Yahoo - maktoob - Gmail) التـــي يمكن من خلالها:

١ - نشر فكرة إسلامية معينة، أو إرسال رسالة مؤثرة تصحح مفهوماً أو تدعو إلى خُلُقٍ فاضلٍ.

٢ - التذكـــرة بفضـــل المناســـبات الإســـلامية في وقتهـــا والدعـــوة إلى العمل الصالح فيهـــا: ومثال ذلك: دعوة من لديك على بريدك الخاص إلى صيـــام الإثنين والخميـــس، أو إلى صدقة جارية أو قراءة القرآن.

٣ - المشـــاركة في أعمال خير، أو أعمال اجتماعية تخدم المجتمعات الإســـلامية: من خلال التعاون الإيجابي على القيام بها ودعوة رجال الأعمال للمشاركة فيها.

٤ - يمكن مراســـلة شـــخصيات معروفة لمســـاعدتك في توصيـــل فكرة أو مفهوم تحب ترويجه، ولـــن تعدم فائدة منهم بإذن الله، تعالى.

٥ - وأحب أن أضيف هنا: أن للإيميلات ســـلبيات: كنشر صور ودعاية وإعلانـــات غير محترمة، وهو ما يحفزنا لتطويع هذه الوسيلة بصورة صحيحة.

خامســـاً: المـــواقـــع (بشكل مباشـــر sites): بشرط نشر عنـــوان الموقـــع والدعايـــة القـــوية له، وقـــد رأيـــت عـــدداً من مـــواقع المشـــايخ المعاصـــرين، وقـــد ازداد عدد الزائرين والمتابعـــين والمتصفحـــين لديهم، وهو ما يُظهِر لنـــا جلياً الأثر الفعـــال لوســـيلة الإنتـــرنت ومـــواقـــع الدعـــوة الجذابة على شبكة الإنترنت.

ســـادســـاً: المدونات (bloggers): التـــي يمكن من خلالها القيام بالآتي:

١ - توصيل رســـالة المدون إلى متصفحي مدونته وتوجيه أفكارهم نحو الصالح.

٢ - يمكـــن من خلالها نشـــر مواعظ ومقـــالات وأخبار وتحليلات.

٣ - مواكبة الأحداث الجارية ونشـــر فكرته وتعليقاته على الأحداث؛ وهو ما يجعلها أكثر فعالية وواقعية.

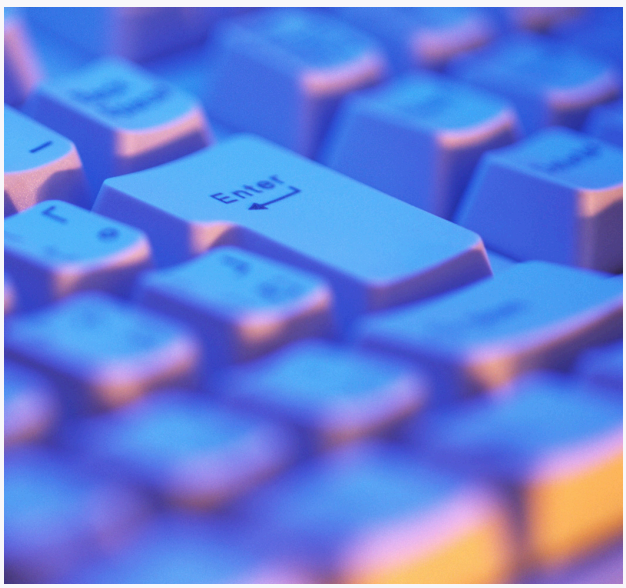

سابعاً: البرامج الخدمية (programes) (المـــؤذن، وتحديد القبلة، والإمساكية، والأذكار): التـــي يمكـــن من خلالها عمل الآتي:

١ - أســـلمة أجهـــزة الكمبيوتر الخاصة بالآخرين، وأسلمة صاحبها.

٢ - الدعوة إلى الحفاظ على الصـــلاة فـــي وقتها، والتذكير بمواقيتها لصاحب الكمبيوتر، وهـــو ما يجعله يقطع عملـــه لأداء الصلاة، كحملة (إلى صلاتي).

٣ - ترطيـــب اللســـان بذكـــر الله بين الحين والآخر. ويكفي أنه قد يصرف الإنســـان عن الدخول على مواقع غير محترمة بسبب ما يظهر أمامه من أذكار وأدعية كوسيلة ردع له.

ثامنـــاً: نظـــام التقنيات اللاســـلكية (الجـــوال mobile وتطبيقاته): ومـــن بين تطبيقاته غير برامـــج القرآن والأذكار والبرامج الإســـلامية، فإن هناك تقنيـــة البلوتوث والوايرلس، اللتين يمكن اســـتخدامهما في نقل المقاطـــع الصوتية والمرئية الدعوية للآخرين.

تاســـعاً: رســـائل SMS: وتحتاج إلى مؤسســـة إسلامية تتخصص في هذا المجال، وتخاطب كافة الشـــرائح بالرسائل التي تناســـبها (اجتماعياً وفكرياً وعليماً وطبياً ورياضياً) وغير ذلك؛ فمثلاً: «رسائـــل تذكـــرة بالصيـــام، ورسائـــل أخلاقية أو تربوية، ويمكن أن تكون هذه الرسائل عبر القنوات الفضائية أو البريد الإلكتروني أو الهاتف الجوال».

عاشراً: الكتب الإلكترونية (E:BOOKS): التي يستطيع من خلالها مرســـلُها ومســـتخدمها توصيل معلومات إسلامية

وتصحيح أفكار. ويمكن أيضاً مساعدة طلبة العلم الشرعي بهذه الكتب الإلكترونية.

الحادي عشر: الأقراص المدمجة (DVD) (C D): وهي وسيلة تكنولوجية يمكن جعلها وسيلة لنشر الصوتيات الإسلامية والفيديو، ويمكن بما يتناسب مع العصر الحالي نشر هذه الصوتيات على MP4، و MP3 التي كَثُر استخدامها لدى الشباب وسائقي السيارات، فبدلاً من أن يكون وسيلة لنشر أغنية داعرة، نُسمِعه صوتاً جميلاً لداعية أو للقرآن الكريم.

الثاني عشر: قناة فضائية إسلامية تخاطب - مثلاً - الشعب الصيني (الذي يقدَّر تعداده بنحو مليار ونصف مليار) ولنا أن نتخيل لو وظِّفت طاقة قناة فضائية إسلامية بهذه اللغة كم ستدر من فوائد دعوية على الإسلام والمسلمين.

الثالث عشر: محرك البحث «حلال»: وهو أول محرك بحث «إسلامي» يحمل اسم «ImHalal» وهو محرك يساعد الباحث على الدخول على ما يريد من المواقع الإسلامية، مع حذف كل ما يمس الشرف والعرض ويثير الشهوات والغرائز.

وحتى أؤكد لك أخي القارئ الكريم فوائد هذه الوسائل التكنولوجية، دعني أرصد لك أهم حملات الدعوة والتغيير عبر التكنولوجيا العصرية على سبيل الإجمال، ومنها:

١ - حملة كلمني فجراً (CALL ME DAWN): وهي حملة كبيرة لإيقاظ أكبر عدد من المسلمين لصلاة الفجر في جماعة.

٢ - حملة لا للتحرش (NO HARSSEMENT): وهي حملة أخلاقية متميزة.

٣ - حملة (هتقدر تغمض عنيك YOU CAN): وهي دعوة لغض البصر عن الحرام.

٤ - حملة نصرة غزة وفلسطين (HELP GAZA).

٥ - حملات نصرة الرسول، التي زادت من حب الرسول في القلوب.

٦ - حملات الحجاب.

٧ - حملة ضد البنطلون الساقط (فعل الشواذ في أوروبا).

٨ - حملات المقاومة الإلكترونية، ضد الأخلاق الفاسدة للإعلام.

٩ - حملات ضد التزوير والتعذيب (NO TOURMENT).

أهم النتائج والتوصيات:

١ - الداعية مطالَب بتطوير نفسه دائماً تكنولوجياً ليجيد توصيل رسالته إلى الآخرين؛ فلم يعد ينفع أن ينتظر الداعية في مسجده ليأتيه الناس فيبلغهم دعوة ربهم، بل صار من اللازم أن يتوجه هو إليهم بأي وسيلة يستطيعها وتتوفر لديه؛ إذ إننا أصبحنا في عالم السرعة.

٢ - وسائل دعوة الإسلام غير محدودة، بل تقبل التطوير والابتكار بما لا يتنافى مع الشريعة الغراء.

٣ - يجب تسخير وتطويع ما توفر من وسائل التكنولوجيا الحديثة في الدعوة إلى الله، تعالى. وتعد من الضروريات الدعوية اليوم.

٤ - يلزم الاهتمام بجيل الشباب في كل هذه الوسائل السابق ذكرها؛ ولا سيما أننا نرى أحوال شباب الأمة، وحالة التيه التي يعيشون فيها؛ فهم يحتاجون إلى من يأخذ بأيديهم ويدلهم على الطريق الصحيح، بدلاً من طريقهم الذي يتنكبون.

٥ - من المهم للغاية إذا أردنا تطويع كل الوسائل التكنولوجية في الدعوة، أن نوحد الجهود، وأن نقوم بعمل مؤسسي كهيئة عالمية تأخذ في حسبانها تأسيس جهد وعمل جماعي مؤسسي لتطويع هذه الوسائل والمتابعة مع المدعوين، ونضيف إلى ذلك أن يكون هناك دعم مادي كبير للقيام بكل هذه الخدمات الدعوية.

٦ - تأسيس معهد عالمي للدعاة (له فروع على مستوى العالم) يختص بتطوير أداء الداعية، وإكسابه المهارات اللازمة، وتدريبه على إتقان التعامل مع الوسائل التقنية المشار إليها سالفاً.

٧ - إنشاء مؤسسة ربحية تختص بإدارة الحملات الدعوية على مستوى الدول، كلٌّ حسب قضاياه من خلال رسائل الـ sms؛ بحيث نضمن استمرارية الحملة بشكل مؤسسي.

٨ - توفير دورات تدريبية للدعاة لتعليمهم لغات الشعوب الأخرى، وخاصة الإنجليزية؛ إذ يعاني كثير من الدعاة ممن يسافرون في بعثات إلى بلدان أوروبا وأمريكا من صعوبة التواصل مع أبناء هذه المجتمعات بسبب حاجز اللغة.

٩ - توصية للجهات المعنية والرسمية بتسهيل عمل الدعاة والاستفادة من التقنيات المتوافرة دون تضييق.

والله أسأل أن يستخدمنا في نصرة لدينه ودعوته، وأن يجعلنا سبباً في هداية الآخرين، وأن يحشرنا في زمرة سيد الدعاة العاملين، وإلى لقاء قادم مع طريق جديدة من طرق الدعوة إلى الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أئمة ومجددون

عبـد العزيز مصطفى الشـامي
omarez1973@hotmail.com

مما لا شك فيه أن الأمم والشعوب والحضارات إنما قامت واعتمدت – بعد توفيق الله تبارك وتعالى - على سواعد رجال مخلصين، فَقِهوا معنى الحياة، وعاشوا لأهداف عظيمة، واتخذوا من أعمارهم مطيَّة للإصلاح الشامل القائم على سـنن الشـرع المعظـم، فما ثَم إصلاح إلا من هذا الطريـق؛ فكان هؤلاء هم حائط الصـد الأول والأخير في حماية دين الأمة، والذبِّ عن كتاب الله وسُنة النبي ﷺ، فضلاً عن نشرهما وتعليمهما للناس.

فكانوا قادة في العلم والعمل، والتربية والتزكية، والبناء والعمران. حملوا مشـاعل الهداية، وصاروا منائر للرشاد، اقتدت بهم الأجيال، وتعلقت بهـم الآمـال، وانطلقوا بالأمة يقطعـون الفيافي والقفار، ويجففون منابع البـدع، ويقمعون البهتان، يحاولـون الوصول بالأمة إلى الطريـق القويم، الذي يضمن لسـالكه – بإذن ربه – سعادة في الدنيا، وسـكينة النفـس، ومحبة في قلوب الخلق، وهداية ورشاداً، وراحة يوم العرض، ولما لا؟ وقد قال الله الملك الجليل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَـرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِـنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

المجددون... مكانتهم وفضلهم:

اعتاد الناس أيّاً كانت اتجاهاتهـم ومذاهبهم وطرقهم أن يُثنوا على أولئك الذين ينجحون وينجـزون ويبدعـون، ولا يزال الناس يتحدثون كثيراً عن عوامل نجاح فلان، وعن سـر إبداع

فلان؛ فترى الأدبـــاء يعتنون كثيراً بالحديث عن ســـيرة فلان وفلان مـــن الأدباء الذين ماتوا وتحولوا إلـــى رفات، ويتحدث المؤرخون والساسة أيضاً عن أولئك الناجحين ويقرؤون سِيَرهم لينهلوا منها معالم يقتفونها، ويســـيرون فـــي إثرها، ولا يزال المصلحـــون والمجددون والدعاة يحظون بعناية أهل العلم، وأهل الفكر والتوجيه؛ دراسةً لأسباب النجاح، وتحليلاً لعوامل النبوغ والارتقاء، وهم يســـتحقون ذلك بلا شـــك؛ إذ إن قمة النجاح وغايـــة الإبداع هو ما حققه أنبياء الله، صلوات الله وســـلامه عليهـــم. والمجددون تَبَع لهم فـــي منهجهم ودعوتهم وحمل راية البلاغ والإصلاح من بعدهم.

إن السائرين إلى الله اليوم أحوج إلى دراسة سِيَر المجددين، وطريقة دعوتهم، وكيف حققوا مقاصدهم ونجحوا فيما يسعون إليه؟ إنهم أَوْلى بأن يُعتنى بسِـــيَرهم؛ لأنهم في قمة البشـــرية – بعد الأنبياء والرسل – من حيث النجاحُ والإبداعُ والإنجازُ.

أولاً: معنى التجديد لغةً:

التجديد في أصله اللُّغوي: مأخوذ من جدَّد الشيءَ، وتجدَّد الشيءُ، إذا صيَّره جديداً أو صار جديداً.

والتجديدُ فيه طلبٌ واســـتدعاءٌ؛ إذ التـــاء للطلب، فيكون تجديد الشيءِ يعني طلب جِدَّته بالسعي والتوسل إلى ما يجعله جديداً. والجديد نقيض الخَلَـــق والبِلى، وضد القديم بمعنييه (القـــديم زماناً، والقديم بقاءً، وهو التقـــادم)، فيُقال: بَلِي بيت فلان ثم أَجَدَّ بيتاً مِنْ شَـــعْر... ويُقال لليل والنهار: الجديدان؛ لأنهما لا يبليان أبداً[1].

ومن معاني التجديد في أصـــل اللُّغة: التعظيم والإجلال، ومنه قوله – تعالـــى –: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَـــا﴾ [الجن: ٣]؛ أي: عظمته وجلاله وغناه. ومن معانيه كذلك الوســـطية، ويقولون: جادَّة الطريق؛ أي: ســـواء الطريق ووسطه. ومن هنا ندرك أنَّ التجديـــد لا يعني بحال الإتيان بجديـــد منقطع عما كان عليه الأمر أولاً، ولكن يعني:

– أنَّ الشيء المجدَّد قد كان في أول الأمر موجوداً وقائماً، وللناس به عهدٌ.

– وأنَّ هذا الشـــيء أتت عليه الأيام، فأصابه البِلَى وصار قديماً خَلِقاً.

– وأنَّ ذلك الشيء قد أُعيد إلى مثل الحالة الأولى التي كان عليها قبل أنْ يبلى وَيَخْلَق[2].

فالتجديد إذاً لا يســـتلزم إقامة شـــيء جديد على أنقاض القديم، ولا يعني رفض القديم كله بحسبان نفوذ صلاحه، وأنه صار ســـلباً غير نافع يجب إلغاؤه والإتيان بجديد مغاير منقطع عنه أصلاً ووصفاً؛ فحقيقة التجديد: هي إعادة الأمر إلى ما كان عليـــه أولاً، وهو نوع من الإجلال لذلك الأمر والتعظيم له، على خلاف ما يعتقده كثير من سامعي هذا المصطلح ومُطْلِقيه.

ثانياً: معنى التجديد شرعاً، وممارسة العلماء للتجديد بمفهومه الشرعي:

اكتســـب التجديد شـــرعيته من وروده في الحديث النبوي الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَـــنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[3].

ولقد كانت ممارسة العلماء للتجديد عبر التاريخ على وَفْقِ هذا المفهوم، ولعلنا نستدعي هنا مقولة الإمام مالك: «لن يَصلُح آخـــر هذه الأمـــة إلا بما صلح بها أولها، وما لم يكن يومها ديناً لا يكون اليوم ديناً»[4]، وهذا هو المسار الصحيح لعملية التجديد والنهوض بالأمة عند أئمة السلف.

وإذا أردنا أن نســـتعرض أدوار المجددين في تاريخ الإسلام لطال بنا المقام، كدور التابعي الجليل الحسن البصري – رحمه اللـــه – في تجديد الشـــعور الديني لدى عامـــة الناس، ودور الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – في تجديد السياسية الشرعية في الإسلام، ودور الإمام الشافعي – رحمه الله – في تجديد المنهج العلمي في باب الاجتهاد والاســـتدلال، ودور الإمـــام ابن تيميـــة – رحمه الله – فـــي تجديد التصور السلفي الأصيل ونقد التصورات الفلسفية والكلامية المنحرفة، ودور الإمـــام محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – في تجديد حقيقة التوحيد ومحاربة الشـــرك الخرافة، وهكذا في سلسلة

إن السـائرين إلى الله اليـوم أحـوج إلى دراسـة سِيَر المجددين، وطريقة دعوتهـم، وكيف حققـوا مقاصدهم ونجحوا فيما يسعون إليه؟ إنهم أَوْلى بأن يُعتنى بسِيَرهم

(١) لسان العرب: ٣/١١١.

(٢) انظر: بسطامي محمد سعيد: مفهوم تجديد الدِّين، دار الدعوة، الكويت، ط/١، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م، ص ١٤ – ١٥.

(٣) أبو داود (٤٢٩٣)، وصححه الألباني.

(٤) الشفا للقاضي عياض: ٢/٩٨ – ٩٩.

من أهل العلم الذين مارسوا التجديد بمفهومه الشرعي، مع مراعاة كل واحدٍ منهم حاجة الزمان والمكان.

ولبيان المعنى الشرعي ينبغي علينا نعرض لبعض أقول العلماء عن التجديد والمجددين:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: «التجديد إنما يكون بعد الدروس؛ وذاك هو غربة الإسلام»[1].

وقال في موضع آخر: «... ويُحيَى فيه شعار المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين؛ حتى يكون شبيهاً بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار؛ فمن قام في هذا الوقت بذلك كان من التابعين لهم بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم»[2].

وعن المجددين يقول ابن القيم – رحمه الله – : «هم غرس الله الذين لا يزال يغرسهم في دينه، وهم الذين قال فيهم علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –: لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته»[3].

ويقول العلقمي – رحمه الله – في معنى التجديد: «معنى التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسُّنَّة، والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات». وقيل معناه: «تبيين السُّنَّة من البدعة، وإكثار العلم ونصرة أهله، وكسر أهل البدعة»[4].

قال الحاكم – رحمه الله – : «سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول غير مرة: سمعت شيخاً من أهل العلم يقول لأبي العباس بن سريج: أبشر أيها القاضي! فإنَّ الله مَنَّ على المسلمين بعمر بن عبد العزيز على رأس المائة، فأظهر كل سُنَّة وأمات كل بدعة»[5].

وقال أبو الأعلى المودودي – رحمه الله –: «المجدِّد: كل من أحيا معالم الدين بعد طموسها، وجدَّد حَبْلَه بعد انتقاضه... والتجديد في حقيقته: تنقية الإسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية، ثم العمل على إحيائه خالصاً محضاً على قَدْر الإمكان»[6].

وقال القرضاوي: «إن التجديد لشيء مَّا: هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر؛ بحيث يبدو مع قِدَمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وَهِيَ منه، وترميم ما بَلِي، ورَتْق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى... فالتجديد ليس معناه تغيير طبيعة القديم، أو الاستعاضة عنه بشيء آخر مستحدَث مبتكر، فهذا ليس من التجديد في شيء»[7].

فالتجديد إذاً: إحياء معالم الدِّين بعد طموسها، وتجديد حبله بعد انتقاضه. والطموس لم يكن للدِّين، وإنما كان لمعالمه، ولا يريد المودودي بالطموس انتهاءه بالكلية من قلوب الناس وحياتهم، ولكن أراد به عدم ظهوره في جوانبه كلها. كما أنه – رحمه الله – لم يُلصِقْ الانتقاض بالدين، بل ألصقه بحبل الدِّين، وحبل الدِّين وسيلة التمسك به، من شعائر، ومشاعر، ونُسُك، وارتباط الوجدان بالمشاهدة، والمراقبة، والصدق، والتوكل، واستمساك العروة الوثقى، توجُّهاً بالنفس، وتوجيهاً بالدعوة.

ثالثاً: التجديد... حقائق دامغة:

إن التجديد في مراد العلماء يصدق في أمور:

أولها: إحياء ما اندرس من العلم والعمل.

وثانيها: الأمر بمقتضى الكتاب والسُّنَّة عند غياب الأمر بهما، أو التساهل في الاستمساك بمقتضاهما.

وثالثها: تبيين السُّنَّة وتمييزها عن البدعة إذا اختلطتا وتمازجتا، فلو لم يقوَ الناس أو يقتدروا على التمييز بينهما لتمكَّن الجهل وتفشَّت الشُّبهة.

ورابعها: إماتة ما ظهر من البدع والمحدثات، بنشر العلم والدعوة به وإكثاره، ونصرة أهله، وكسر أهل البدع والمحدِثين.

وخامسها: إحياء معالم الدِّين بعد ما أصابها الطموس، بعوامل القسوة وطول الأمد، كما أصيب أهل الكتاب بهما، وقد أخبر الله عنهم في قوله – تبارك وتعالى –: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد: ١٦].

وسادسها: ربط حبل الدِّين وتوثيقه في وسائله ووسائطه التعبدية والخُلُقية والوجدانية، إذا أوشك أنْ يُنتقَض، استمساكاً بعروة الدِّين الوثقى، وحفاظاً على أسبابه المثلى، التزاماً وثباتاً.

وهذا كله هو ما فعله الذين أخبر عنهم النبي الكريم ﷺ في الخبر الصحيح؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أنه قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[8].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٢٩٦ – ٢٩٧.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٤٢٠.
(٣) إعلام الموقعين: ٤/ ٢١٢.
(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود: ١١/ ٣٩١.
(٥) توالي التأسيس لابن حجر، ص ٤٩.
(٦) أبو الأعلى المودودي، الموجز في تاريخ تجديد الدين، ص ١٣.
(٧) يوسف القرضاوي، من أجل صحوة راشدة، ص ٢٨.
(٨) أبو داود (٤٢٩٣)، وصححه الألباني.

وذلك كله هو مقصود المصطفى ﷺ حين ينبه على حرص النبوة على إصلاح الذات، وتنقية القلب، وتزكية النفس من رواسب طول الأمد، وتراخي الرباط الإيماني في قوله ﷺ: «جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ»[1].

والمراد من ذلك أن التجديد هو: جهود الطائفة القائمة على الحق للاستمساك بعروة الدِّين الوثقى، وإبقاء شعائره وشرائعه صافية نقية دون تغبُّر أو تغيُّر بجهود الطائفة الظاهرة بالحق على الحق كما في حديث ثَوْبَانَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[2].

والظاهر أن عدم تحديد المقصود بالرأس في قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»، قُصِد منه أن المجدِّد يظهر كلما دعت الحاجة إليه لبُعد الناس عن عهد النبوة، أو لبُعدهم عن عصر المجدد السابق، وهذا ينسجم مع الأحداث التاريخية كلها ومع حكمة هذه الشريعة التي تأتي وَفْقَ ما تقضية الأسباب غير مقيدة بفترات معيَّنة، كما أن الأحداث النازلة بالمسلمين في دينهم ودنياهم - وهي التي يفتقرون خلالها إلى ذلك المجدد - غير متوقفة على زمن محدد، ثم إن هذا المجدد قد لا تظهر آثاره التجديدية في حياته بل تظهر في الأجيال التالية. كل هذا يجعل التحديد الذي في الحديث مرناً إلى حد بعيد.

واختلف العلماء هل من شرط المجدد أن يكون فرداً، أم يطلَق على الفرد والجماعة، واختار السيوطي أن المقصود به فرد، ونسب هذا الرأي للجمهور، فقال:

فكونه فرداً هو المشهورُ
قد نطق الحديث والجمهورُ

واختار آخرون العموم، منهم الحافظ بن حجر وابن الأثير والذهبي والمناوي وغيرهم، واستدلوا بالحديث المشهور «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[3]. قال البخاري: وهم أهل العلم. وقال ابن المديني هم أهل الحديث. وقال الإمام النووي: «يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدِّثون، ومنهم زهَّاد... ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض»[4].

(١) أحمد (٨٦٩٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٨٧): رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد ثقات، وضعفه الألباني.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) شرح النووي على مسلم، كتاب الإمارة: (١٣/٦٦).

والذي لا شك فيه ولا ارتياب أنه يستحيل أن يكون المجدد من غير أهل السُّنة من علمائها، ومن أهل الفضل والتقوى فيهم، وقد يكون لهذه الطائفة رؤوس يمتازون بالعلم الواسع، والعمل النافع، في بلد أو بلدان، فرداً أو أفراداً؛ فهؤلاء لهم من التجديد أوفر نصيب.

والراجح أن لا ينحصر التجديد في شخص واحد؛ وذلك للأسباب التالية:

١ - اتساع مجالات الانحراف، وتعدد طرقه وأسبابه: وهو ما يقصر عنه جهد فرد واحد من الناس.

٢ - اتساع رقعة الأمة وانتشارها: وهو ما يتعذر أن يغطيه فرد واحد من الناس.

٣ - أن المولى - عز وجل - لم يجعل قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتفقه في الدين منوطاً بالأفراد، بل بالجماعات، فقال - عز من قائل -: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقال - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

٤ - أن الصفات المحتاج إليها في التجديد لا تنحصر في نوع من أنواع الخير، ويتعذر اجتماعها كلها في شخص واحد، بل الأقرب تفرُّقها في عدد من علماء الأمة وفضلائها. قال ابن الأثير ما ملخصه: لا يلزم أن يكون الرسول ﷺ أراد بالمبعوث الفقهاء خاصة فإن انتفاع الأمة بالفقهاء، وإن كان نفعاً عامّاً في أمور الدنيا والدين، إلا أن انتفاعهم بغيرهم أيضاً كثير مثل أولي الأمر، وأصحاب الحديث، والقراء والوعاظ، والزهاد؛ فإن كل قوم ينفعون بفن لا ينفع به الآخر؛ إذ الأصل في حفظ الدين حفظ

> عن المجددين يقول ابن القيم - رحمه الله - : «هم غرس الله الذين لا يزال يغرسهم في دينه، وهم الذين قال فيهم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته.

قانون السياسة، وبث العدل والتناصف الذي به تحقن الدماء، ويتمكن من إقامة قوانين الشرع، وهذا من وظيفة أولي الأمر، وأصحاب الحديث ينفعون بضبط الأحاديث التي هي أدلة الشرع، والقراء ينفعون بحفظ القراءات وضبط الروايات، والزهاد ينفعون بالمواعظ والحثِّ على لزوم التقوى؛ فالأحسن والأجدر أن يُفهَم الحديث على أنه إشارة إلى بعث جماعة من الأكابر المشهورين على رأس كل مائة سنة يجددون للناس دينهم[1].

العلماء قادة المجددين:

وإن العلماء هم قادة الأمم، ينيرون البصائر، ويفتحون المغلَق من العقول والفهوم، ويرشدون الضال، ويعلِّمون الجاهل؛ فهم على الحقيقة الهداة إلى الله وشرعه، المفسرون لسُنة نبيه ﷺ، والعاملون على نفع الخلق ونصيحتهم وإرشادهم في الدنيا والآخرة، من أجل ذلك كانت لهم المكانة العليَّة والمنزلة الرفيعة.

قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال - جل وعلا -: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وعن مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ - رضي الله عنهما - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللَّهُ»[2].

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ - رضي الله عنهما - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ؛ حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِماً اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً؛ فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[3].

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْعَذَرِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ»[4].

والمجددون أَوْلى الناس بهذه النعوت العذبة، وإذا لم تكن هذه هي أوصاف المجددين في الأمة فلمن تكون؟

فترة الجمود ودور المجددين:

لقد شهدت الفترة من منتصف القرن السابع عشر الميلادي وحتى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين نبوغ أئمة علم وفضل، أحيا الله بهم الأمة بعد رقاد طويل، ونشر الله بهم الخير، وانتشرت - بفضل الله - على أيديهم دعوة التوحيد والسُّنة، وكان من هؤلاء: فضيلة الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة المباركة للعودة للتوحيد الصافي، والدعوة لترك الشرك والأوثان والقبور، وهدم البدع المحدثة، وإماتة الخرافات والضلالات.

ثم جاء مِنْ بعده الأمير الصنعاني العالم المُبرِّز في علوم المعقول والمنقول، لا سيما علوم الحديث التي انتهت إليه رئاستها، فصار إمام المجتهدين في اليمن في زمانه بلا منازع. ولقد تميزت شخصية الصنعاني بمجموعة من المعالم، من أهمها: دعوته إلى الاعتقاد الصحيح وتطهيره مما شابَهُ من شركيات كالتوسل بالموتى، وكذا تمسكه بالدليل، وتخليه عن التقليد، وإنكاره التعصب والجمود، وتوضيح زيف ما لا دليل عليه من الآراء الفقهية. ولقد ترك الإمام الصنعاني وراءه ثروة علمية، تدل على سَعَة باعه، وغزارة علمه، وأنه كما قال الشوكاني: «وبالجملة فهو من الأئمة المجددين لمعالم الدين».

ثم نبغ من بَعْدُ العالم الرباني المجدد محمد بن علي الشوكاني الذي كان مبرِّزاً في علوم كثيرة، لا سيما علوم السُّنة والتفسير والفقه وأصوله. وكان جريئاً في قول الحق، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم. دعا إلى العقيدة السلفية، وتطهير العقيدة وتنقيتها من مظاهر الشرك، كما دعا إلى الاجتهاد ونبذ التقليد والتعصب والجمود وغيرها، رحمه الله رحمة واسعة.

ومن هؤلاء الأفاضل فضيلة العلاَّمة محمد رشيد رضا الذي كان له فضل كبير في نشر عقيدة التوحيد الصحيح والدعوة السلفية على مدى أكثر من ٣٠ عاماً عبر مجلة المنار، تلك المجلة التي كانت منارة تجوب العالم الإسلامي من الصين وجاوة والهند شرقاً حتى أمريكا الجنوبية والبرازيل غرباً، ومن الشمال إلى أقصى الجنوب.

وأخيراً: فإنّ مصطلح (التجديد) من المصطلحات التي تعرَّضت إلى كثير من الخلط والعبث الفكري، من قِبَل المنهزمين أمام الحضارة الغربية، ففرغوا التجديد من مضمونه الشرعي، وجعلوه غطاءً على (تحريف الدين) و (إبطال الشريعة)، حتى أصبح مصطلح (التجديد) يثير الريبة والتوجس والقلق بين عامة المسلمين.

---

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول: ١١/ ٣٢٠ - ٣٢٤.
(٢) متفق عليه.
(٣) مسلم: (٦٩٧١).
(٤) البيهقي في السنن الكبرى: (١٠/ ٢٠٩)، وقال الألباني في تخريج مشكاة المصابيح ص ٢٣٩: مرسل، لكن روي موصولاً من طريق جماعة من الصحابة، وصحَّح بعض طرقه الحافظ العلائي.

الآن

الآن

فعل اشتراكك في جوال

البيان

ضمن شبكة zain

أرسل رسالة فارغة إلى ٧٠٤٠٤٧

للاشتراك أرسل رسالة فارغة إلى

STC الاتصالات السعودية ٨٨٠٠٤

موبايلي mobily ٦٣٦٣٩٣

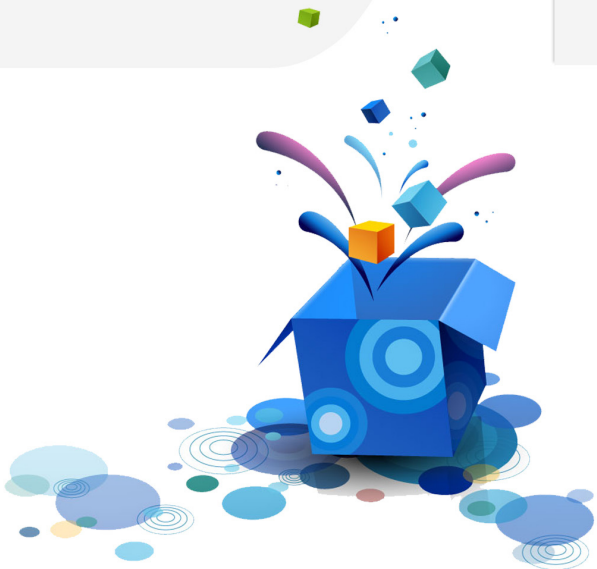

رسائلنا تحكي أهدافنا

DESIGN: 0551795955

موافقةُ قولِ الخطيبِ عَمَلَه

إبراهيم بن محمد الحقيل

حين يقف خطيب الجمعة أمام الناس متحدثاً؛ فهو يذكرهم ويعظهم، ويدلهم على ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ويحذرهم مما يضرهم فيهما، والأصل أنه لا يبتغي من وراء ذلك جزاءً دنيوياً، ولا شكوراً من الناس، إنْ هو إلا مصلح يترسم خطى المرسلين – عليهم السلام – في دعواتهم، ويتأسى بالنبي ﷺ في دعوته، ويقتبس هدي الصالحين من هذه الأمة سلفها وخلفها في أقوالهم وأفعالهم وسمتهم.

ولما كانت الحكمة من مشروعية الخطبة نفع الناس بها كان الأولى أن ينتفع الخطيب بما ألقاه على الناس قبل أن يلقيه؛ لعلمه به وقناعته بمضمونه؛ فإنه ما نصح به الناس إلا وفيه خير لهم، وهو أَوْلَى بهذا الخير من غيره.

ولكن النفس البشرية مطبوعة على الظلم والجهل إلا أن يتعاهدها صاحبها بالإيمان والتقوى والتوبة والاستغفار. ودليل ذلك كثرة ما يقع ممن يتصدرون للكلام في شؤون الناس الدينية والدنيوية من مخالفة أفعالهم أقوالَهم، وليس ذلك حكراً على الخطباء والدعاة والعلماء فحسب، بل حتى أهل السياسة والاقتصاد والطب والفكر والإعلام وغيرهم يكثر فيهم مخالفة أقوالِهم أفعالَهم؛ فيوصون الناس بأشياء لا يفعلونها هم، ويحذرونهم من أشياء يقعون هم فيها، ولكن هؤلاء لا يؤاخذهم الناس كما يؤاخذون أهل العلم والدعوة والخطابة، ولا يثرِّبون عليهم مثلهم؛ لأن الناس وضعوا أهل العلم والدعوة والخطابة قدوة لهم – وهذا حق وشرف ومسؤولية – فكانت مخالفة العالم أو الداعية أو الخطيب أقواله أفعاله أشد على الناس من مخالفة غيرهم؛ ولهذا فإنه يجب على العالم والداعية والخطيب أن يراعوا هذه الخصوصية لهم، ويحافظوا على هذه المنزلة التي بوأهم الله – تعالى – إياها، ويحفظوا مكانتهم في قلوب الناس بإتباع العلم العملَ، وعدم مخالفة القول الفعلَ؛ ليصدر الناس عنهم، ويقبلَ الناس منهم، ويكون لخطابهم وَقْعٌ في القلوب، وتأثير في النفوس.

ذم مخالفة القول الفعلَ:

تظاهرت نصوص الكتاب والسُّنة على ذم مخالفة قول الإنسان عملَه؛ لأن ذلك نوع من الكذب، ويدل على ضعف الإيمان، وهو طريق إلى النفاق. نعوذ بالله - تعالى - من ذلك، والنصوص الواردة في ذلك على أنواع:

النوع الأول: نصوص تثبت أن الأنبياء، عليهم السلام - وهم رؤوس المصلحين وأئمة الدعاة والخطباء - توافق أقولُهم أفعالهم؛ حتى إن المكذبين بهم من أقوامهم لم يرموهم بمخالفة أفعالهم أقوالَهم مع حاجتهم لمثل هذه التهمة في صرف الناس عن الدعوة، لكنهم لم يفعلوا ذلك؛ لعلمهم أن الناس لا يصدقونهم؛ لأنه من الكذب الظاهر.

ومن الأنبياء من صرح بذلك كما فعل شعيب - عليه السلام - حين وعظ قومه، فبين لهم أنه أول من يمتثل ما يدعوهم إليه حين حكى الله - تعالى - عنه قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

النوع الثاني: نصوص تفيد أن الله - تعالى - قد ذم بني إسرائيل على عدم إتّباع العلم العمل، فقال - سبحانه -: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. فإنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وهم يعصونه، فعيَّرهم الله، تعالى[١].

النوع الثالث: نصوص تثبت الوعيد الشديد المتنوع في مخالفة الإنسان قولَه فعلَه:

١ - فصاحبه متوعَّد بمقت الله - تعالى - كما في قوله - سبحانه -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣].

٢ - ومتوعد بالعذاب في النار كما في قول الله - تعالى -: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

قال الشنقيطي - رحمه الله تعالى -: «فيجب على المذكِر (بالكسر) والمذكَر (بالفتح) أن يعملا بمقتضى التذكرة وأن يتحفظا عن عدم المبالاة بها؛ لئلا يكونا حمارين من حُمُر جهنم»[٢].

٣ - وعذابه في النار يكون بطريقة بشعة منفِّرة جاء تصويرها في حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ! مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»[٣].

النوع الرابع: أن الخطباء جاء فيهم وعيد خاص إذا خالفت خطبهم أفعالَهم كما في حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالاً تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا يَعْقِلُونَ»[٤].

وقد تمسَّك بهذه النصوص من يرى أن من كان مقارفاً للمعصية فلا يأمر ولا ينهى، وهاهنا ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: اشتراط أن يكون الخطيب أو الداعية خالياً من المعاصي وإلا لا يعظ الناس ولا يخطب فيهم، ولم أقف على أحد يقول بهذا، ولازم القول به تعطيل الأمر والنهي الشرعيين؛ لاشتراط العصمة من الذنوب في صاحبه.

ولهذا يجوز أن ينصح المفضولُ الفاضلَ، وأن يعظ الطالبُ العالمَ؛ لأنه لا أحد من البشر فوق النصح والموعظة مهما كانت منزلته، ومهما علا كعبه في العلم والفضل.

المسألة الثانية: اشتراط موافقة قوله فعلَه فيما يخطب به، فلا يحل له الكلام إلا فيما وافق فيه قولُه فعلَه، وما خالف فيه قولُه فعلَه فلا يخطب به، وفي هذه المسألة قولان:

القول الأول: يشترط ذلك؛ لأن ظاهر النصوص السابقة تدل على تقبيح من خالف قولُه فعلَه؛ بمعنى أنه لا يأمر بما لا يفعل، ولا ينهى عما يفعل؛ لئلا يتناوله الوعيد الوارد في النصوص السابقة. قال أبو القاسم القشيري الصوفي: «فَشَرْطُ الأمرِ بالمعروف استعمالُ ما تأمر به والانتهاء عما تنهى عنه»[٥].

ويتأيد هذا القول بالآثار التالية:

---

(١) جاء ذلك عن السدي وقتادة - رحمهما الله تعالى - كما في تفسير الطبري: ١/٢٥٨.

(٢) أضواء البيان: ١/٤٦٣.

(٣) رواه البخاري: (٣٠٩٤)، ومسلم: (٢٩٨٩).

(٤) رواه ابن أبي شيبة: ٨/٤٤٦، وأحمد: ٣/١٢٠، وعبد بن حميد: (١٢٢٢) وحسنه البغوي في شرح السنة: (٤١٥٩) والألباني في صحيح الجامع: (١٢٩).

(٥) لطائف الإشارات: ٢/٥٥. وغالب الذين يتكلمون عن هذه المسألة ينسبون هذا القول للماوردي وأبي يعلى في الأحكام السلطانية لكل واحد منهما، وينسبونه لغيرهما ممن بحثوا أحكام الحسبة؛ لأنهم ذكروا في شروط المحتسب أن يكون عدلاً، وفي ظني أن هذه النسبة غير دقيقة؛ لأن الذين تناولوا الحسبة وشرطوا هذا الشرط أرادوا والي الحسبة الذي يعيَّن من قِبَل ولي الأمر، كما هو ظاهر كلام الماوردي، ص٢٧١، وهذا لا يفيد أنهم يرون أن من وقع في معصية فلا ينهى عنها، ولا أن من قصر في طاعة لا يأمر بها، وحكى هذا القول ابن كثير في تفسيره لكنه لم ينسبه لمعيَّن، فقال: وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف.ا هـ: ١/٨٦.

١ – عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه جاءه رجل فقال: «يا ابن عباس، إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. قال: أَوَبلغت؟ قال: أرجو. قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله – عز وجل – فافعل. قال: وما هن؟ قال: قوله – عز وجل –: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثاني؟ قال: قوله – عز وجل –: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ – ٣] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث؟ قال: قول العبد الصالح شعيب – عليه السلام –: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدأ بنفسك»[١].

٢ – وقال النخعي – رحمه الله تعالى –: «ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢][٢].

٣– وعن بعض السلف أنه قيل له: «حدثنا. فسكت ثم قيل له: حدثنا. فقال: أترونني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله، تعالى»[٣].

القول الثاني: لا يُشترَط في المتصدي للخطابة أن لا يعظ الناس إلا بما وافق فيه قولُه فعله، بل يعظهم بما يحتاجون ولو كان مخالفاً فيه، وهو قول عامة العلماء، ويُستدل له بما يلي:

١ – عموم أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، تعالى؛ إذ ليس في شيء منها منع من فرَّط في طاعة من الدعوة إليها، ولا منع من وقع في معصية من النهي عنها.

٢ – قول الله – تعالى –: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] فذمهم الله – تعالى – لأن بعضهم لم ينهَ بعضاً عما قارفوا من المنكرات.

٣ – أن حكم الله – تعالى – في عباده كتابةُ حسناتهم وسيئاتهم، ومحاسبتهم على أعمالهم، وليس من لازم اكتساب السيئة بطلان الحسنة إلا ما كان محبطاً للعمل وهو الشرك.

ودعوة الناس للخير وتحذيرهم من الشر حسنة يثاب العبد عليها، ووقوعه في المنكر سيئة يحاسب بها، فالجهة منفكة بين ميادين اكتساب الحسنات، وميادين اجتراح السيئات.

وهذا القول هو الراجح، وأما الجواب عن النصوص المنفرة من مخالفة القول الفعل فإن الذم فيها على المعصية مع العلم بها، وليس على النهي عنها، وعلى هذا المعنى اجتمعت كلمة المحققين من العلماء:

قال الجصاص – رحمه الله تعالى –: «من لم يفعل سائر المعروف ولم ينته عن سائر المناكير فإن فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر غير ساقط عنه»[٤].

وقال القرطبي – رحمه الله تعالى –: «اعلم – وفقك الله تعالى – أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر»[٥].

وقال الشنقيطي – رحمه الله تعالى –: «فالحق أن الأمر بالمعروف غير ساقط عن صالح ولا طالح، والوعيد على المعصية لا على الأمر بالمعروف؛ لأنه في حد ذاته ليس فيه إلا الخير»[٦].

وأما الآثار الواردة عن ابن عباس والنخعي وغيرهما فهي غير ثابتة، فإن ثبت شيء منها أو ثبت مثلها عن بعض السلف فتُحمَل على التشديد في إتباع العلمِ العملَ، والترهيب من مخالفة القول للفعل.

وقد نُقل عن السلف ما يقابل الآثار السابقة، ومن ذلك:

١ – قول أبي الدرداء – رضي الله عنه –: «إني لآمركم بالأمر وما أفعله ولكني أرجو فيه الأجر»[٧].

ويُحمَل قوله – رضي الله تعالى – عنه على بعض المندوبات؛ لأن الإنسان مهما بلغ فلا يستطيع أن يأتي بالسنن كلها لا يفوته منها شيء، فكان يأمر بأنواع من المندوبات لا يتمكن من فعلها.

٢ – قول عمر بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى –: «لو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يحكم نفسه ويكمل في الذي خُلِقَ له لعبادة ربه إذاً تواكل الناس بالخير، وإذاً يرفع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واستُحلَّت المحارم وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة في الأرض»[٨].

٣ – قول سعيد بن جبير – رحمه الله تعالى –: «لو كان

(١) رواه البيهقي في الشعب: (٧٥٦٩) والشجري في الأمالي: ٢/ ٣٢٠، وابن عساكر في تاريخه: ٢٣/ ٧٣، وهو أثر لا يصح، في سنده بشر بن الحسين الأصبهاني الهلالي يرويه عن الزبير بن عدي. قال أبو حاتم: يكذب على الزبير، وقال البخاري: فيه نظر، وقال الدارقطني: متروك. انظر: المغني في الضعفاء: ١/ ١٠٥، رقم (٨٩٨) ولسان الميزان: ٢/ ٢١.

(٢) تفسير القرطبي: ١٨/ ٨٠، ولم أقف عليه مسنداً.

(٣) تفسير القرطبي: ١٨/ ٨٠، ولم أقف عليه مسنداً أو منسوباً لمعين.

(٤) أحكام القرآن للجصاص: ٢/ ٣٢٠.

(٥) تفسير القرطبي: ١/ ٣٦٦.

(٦) أضواء البيان: ١/ ٤٦٣.

(٧) رواه ابن أبي شيبة: ٧/ ١١١.

(٨) رواه أبو نعيم: ٥/ ٢٧٦ – ٢٧٧.

المـــرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شـــيء ما أمر أحدٌ بمعروف ولا نهـــى عن منكر. قال مالك: وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء؟»[1].

المســـألة الثالثة: قد يتلبس الخطيب بمعصية مثل: ترك واجـــب كصلة الرحم، أو فعل محـــرَّم كقطيعتها؛ فهل له أن يؤجل الـــكلام عنها حتى يتوب من معصيته؛ لأنه متلبس بها أم يبادر إلى إنكارها ولو لم يتب منها؟

إن الـــذي يظهر - والله تعالى أعلـــم - أن ذلك منوط بحاجة الناس، فإذا احتاجوا إلى العلم بها والتنبيه عليها فلا يؤخَّر الحديث عنها إلى أن يتوب؛ لما يلي:

١ - عمـــوم نصوص الأمر بالمعـــروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، تعالى؛ فليس في شـــيء منها تأجيل الأمر والنهي الشرعيين لمخالفة الآمر والناهي ما يقول، وإنما فيها ذم من فعل ذلك كما مضى، وذمه لعدم انتفاعه بالخير الذي يدعو إليه لا لدعوته.

٢ - قول النبي ﷺ تعليقاً على الذي قتل نفسه في غزوة خيبر: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّـــةَ إلا مُؤْمِنٌ وَإِنَّ الله لَيُؤَيِّدُ هذا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ»[2].

٣ - أن الخطبـــة شـــرعت لمعالجة ما يحتـــاج الناس من موضوعات، فلا يعدل الخطيب عن حكمة ذلك لعلة فيه هو.

٤ - أن دعوتـــه إلى طاعة قصَّر هـــو فيها، أو نهيه عن معصية وقع هو فيها، طاعة وقربة تقرِّب إلى الله، تعالى؛ فلا يؤخر الطاعة؛ للأمر بالاســـتباق إلى الخيرات، ولعلها تكون كفـــارة لذنبه؛ فقد قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الْحَسَـــنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـــيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤] وفي الحديث: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[3] أو لعله يُرزَق بســـببها التوبة من ذنبه؛ لما يقوم في قلبـــه من الخجل والحياء من اللـــه - تعالى - أو لتأثره بما ألقـــى على الناس من موعظـــة، أو لتأثره بتأثير خطبته في الناس فيرى فضل الله - تعالى - عليه بانقياد الناس له في هذا الأمر، فتدعوه نفسه لأن يكون أول الممتثلين.

على الخطيب أن يجاهد نفسه على ما يلي:

١ - خشـــية الله - تعالى - بالغيب؛ فإن الخطيب مذكِّر بكلام الله - تعالى - وكلام رســـوله ﷺ، فأولَى به أن يكون أوَّل متعظ به، وقـــد خاطب الله - تعالى - نبيه محمداً ﷺ فقال - ســـبحانه -: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَـــنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِـــيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

٢ - الحذر من معاصي الســـر، والإصرار عليها، فإنها سلَّم يهبط بالعبد إلى درك النفاق المظلم، وهي سبب لذهاب الحسنات؛ كما في حديث ثَوْبَانَ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أَنَّهُ قـــال: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً من أُمَّتِـــي يَأْتُونَ يوم الْقِيَامَةِ بِحَسَـــنَاتٍ أَمْثَـــالِ جِبَالِ تِهَـــامَـــةَ بِيضـــاً فَيَجْعَلُهَـــا الله - عز وجل - هَبَاءً مَنْثُوراً. قال ثَوْبَانُ يا رَسُـــولَ اللَّهِ! صِفْهُمْ لنـــا، جَلِّهِمْ لنا أَنْ لَا نَكُـــونَ منهم وَنَحْنُ لَا نَعْلَـــمُ. قال: أَمَا إِنَّهُـــمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ من اللَّيْلِ كما تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إذا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»[4].

٣ - اللجـــوء إلى اللـــه - تعالى - بالدعـــاء والإخبات والاســـتغفار، وسؤاله الثبات على الدين، مع الخوف الشديد من عاقبة ذنبه.

٤ - الإكثـــار من الأعمال الصالحة المكفرة. قال الله - تعالى -: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَـــنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

٥ - وعلـــى الخطيب أن يحذر من كثـــرة مخالفة فعله لقوله، وتعدد ذنوبه، وإصراره عليها، واستهانته بها؛ لئلا يقع في النفاق، أو يرديه الشيطان إلى الانتكاس.

تظاهـــرت نصـــوص الكتاب والسُّنة على ذم مخالفة قول الإنسان عملَـــه؛ لأن ذلـــك نوع من الكذب، ويدل على ضعـــف الإيمـــان، وهو طريق إلـــى النفـــاق. نعوذ بالله - تعالى - من ذلك.

(١) تفسير القرطبي: ١/٣٦٨، وتفسير ابن كثير: ١/٨٦، ولم أقف عليه مسنداً.
(٢) رواه البخاري: (٦٢٣٢)، ومسلم: (١١١).
(٣) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح: (١٩٨٧).
(٤) رواه ابن ماجه: (٤٢٤٥).

أثر القواعد في جمع الكلمة

نبيل عبد المجيد النشمي
Non1426@hotmail.com

خلَّف لنا السلف الصالح كنوزاً علمية عظيمة مثَّلتْ مَنهجاً راسخاً، ومن تلك الكنوز: القواعد والأصول العلمية والدعوية والاجتماعية... وغيرها، تلك التي اختصرت المراحل والسنين والجهود، بل المؤلَّفات.

فالذي يخوض في القواعد الفقهية - مثلاً - يشعر بالعبقرية والمَلَكة الذهنية التي وصل إليها الأوائل، ويعرف مدى الفهم الواسع والإدراك الثَّاقب لتفاصيل الشريعة، وكيف استطاعوا أن يختصروا مجلدات من الأحكام في عدة قواعد، والقاعدةَ في كلمات بعضها لا يتجاوز حجم أصغر جملة في اللغة العربية.

فتأمَّل إلى هذه القاعدة الكلية - مثلاً - التي هي من القواعد الفقهية الخمس الكبرى: (المَشَقَّةُ تَجْلِبُ التَّيسير). يقول عنها الفقهاء: (تَدور عليها جميع الأحكام الشَّرعية عند حصول المشقة الشديدة وقيام الضرورة المُلِحَّة)[1]. والقواعد بشكل عام لم تقتصر على أحكام الشعائر التعبدية، بل شملت مجملَ الأحكام الشرعية، وأغلبَ الحاجات الدنيوية؛ لذا نجد فيها قواعد دعوية أصولية، منهجية، تُنير الطريق أمام الدعاة وتُوضح كثيراً من الأمور في السير الصحيح، ومِن أشهر هذه القواعد التي تَمس العمل الدعوي مباشرة: قواعد الموازنات بين المصالح والمفاسد، مثل قاعدة: (درء المفاسد مُقدَّم على جَلْب المصالح)، وقاعدة: (إذا تعارضت مصلحتان تُقدَّم الأعلى، وإذا تعارضت مفسدتان تُرتكَب الأدنى).

وهذا الفقه (فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد) تزداد الحاجة إليه كلما زاد الغموض في معرفة العلاقة بين المصالح والمفاسد، أو بين المصالح وبعضها، وكذلك المفاسد وبعضها، (وتزداد الحاجة إليه أيضاً كلما ساءت الظروف والأحوال التي تَمُرُّ بها الأمة؛ حيث تكثر الخيارات الصعبة، وتضيق سبل الحلول المطروحة، وتصبح التضحية ببعض الخير، وارتكاب بعض الشر أمراً لا مَفَرَّ منهُ)[2].

ولذلك تُعتَبَر قواعد المصالح والمفاسد من أروع إبداعات علماء المسلمين؛ إذ إن (المصالح المحضة قليلة، والمفاسد المحضة قليلة، والأكثر منها اشتمل على المصالح والمفاسد ويدل عليه قوله ﷺ: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفَّت النار بالشهوات»)[3]؛ لذلك (إذا اجتمعت مصالح ومفاسد فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك امتثالاً لأمر الله - تعالى - فيهما لقوله - سبحانه وتعالى -: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، وإن تعذَّر الدرء والتحصيل؛ فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة

(١) القواعد الفقهية بين الأصالة والتوجيه، أ.د.محمد بكر إسماعيل، دار المنان.

(٢) فصول في التفكير الموضوعي، د. عبد الكريم بكار،(١٦٨).

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، (١/ ١٤).

درأنا المفسدة، ولا نبالي بفوات المصلحة؛ فإنَّ الله - تعالى - قال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩]. حرَّمهما لأنَّ مفسدتهما أكبر من نفعهما، وإن كانت المصلحة أعظم من المفسدة حصَّلنا المصلحة مع التزام المفسدة)[1].

وشباب الصحوة والعاملون عموماً في الساحة الدعوية، بحاجة إلى فقه هذه القواعد في مثل هذه المرحلة الحَرِجة من عُمُرِ الأمة؛ فمَا أحوجنا إلى معرفة متى تُقدَّم مصلحة على أخرى، فتُترك مصلحة معتبَرة شرعاً بدون تحرُّج أو تأثُّم، وكذا معرفة متى تُرتكَب مفسدة أدنى بدون حرج أو تَخوُّف من إثم أو ذنب، ويَبدو أنَّ هذا الفقه لم يأخذ حقه لا تنظيراً ولا تطبيقاً في أبجديات الجماعات الإسلامية، ويدلُّك على ذلك الأثر الظاهر في التصرفات والمواقف الفردية والجماعية غير المبنيَّة على تأصيل وتقعيد عند تعارض المصالح والمفاسد، وهو ما نتج عنه تربيةٌ غير ناضجةٍ أثمرت نتائجَ غيرَ يانعة، مثل: السطحية، والعاطفة، وردِّ الفعل، والاندفاع، والتناقض أحياناً، والشطح، والغلو في بعض المواقف، والتساهل في بعضها الآخر، ولعل الجَمْهَرة والانشغال بكثرة الزحام فيما يبدو، شَغَلتْ المربين عن أن يُعطوا هذه القواعد حقها.

وعلاقة القواعد المذكورة بقضية جمْع الكلمة ومبدأ التعاون على البر والتقوى واضحة؛ حيث إن فقه تقديم مصلحة عامة على مصلحة خاصة، ومصلحة الأمة على مصلحة الجماعة، ودرء مفسدة تضر بالجماعة أَوْلَى من درء مفسدة تضر بالفرد، وارتكاب مفسدة التنازل للآخر - هذا إن كانت مفسدةً - أخفُّ من مفسدة الفُرقة والشقاق... وهكذا. فقواعد الموازنات لو أنها قواعد حية فاعلة أُشبِعتْ بها أفهام شباب الصحوة من قِبَل قادتها، لوجدت أن مجال التكامل والتعاون بين الجماعات هو المجال الفسيح لتطبيقها وإحيائها؛ فالجماعات الإسلامية - عموماً - تحتاج إلى مثل هذه القواعد في دعوتها وحركاتها نحو تغيير المجتمع؛ فجدير بها أن تُعطيها أهمية تليق بها ولا يُكتفَى بما يُقدَّم عنها - مع قِلَّته - في الأبحاث الجامعية والمقالات والمؤلَّفات، بل لا بد أن تكون منهجاً تربوياً يُنزَّل على الواقع، ويخفِّف الفوضى الفكرية التي تعمل على إشغال العقل المسلم بسطحيات وتوافهَ؛ حتى لا يتفرَّغ للنَّظر في عواقب الأمور ومآلات الأحداث.

إنني أتمنى أن أسمع يوماً عن مؤتمرٍ إسلامي فكري عالمي تتبناه جماعة أو مؤسسة؛ يَهْدف إلى تقعيد القواعد، وإبراز دورها وأهميتها، وتسهيل التعامل معها بتنزيلها على واقع اليوم، كما نزَّلها السابقون على واقعهم ووقائعهم.

ولعلَّ التمثيل باليسير من واقعنا يُؤكد شيئاً من أهمية ذلك؛ فمثلاً عندما يقف فصيل من فصائل الجماعات الإسلامية ضد فصيلٍ آخر يُمَارس العملية الانتخابية ويشارك فيها، أو يقف بعيداً عنه بلزوم الصمت في أقل الأحوال؛ لأنه يَنظر إلى مفاسدها، وهو الذي يُشارك في تنافسٍ عَلمانيٍّ وحربٍ شعواء ضد الإسلام والمسلمين، لا يستحي العَلمانيون فيها أن يتفوَّهُوا بأقبح كلام عن الإسلام والمسلمين، ويكفي أنهم يعلنون - حالاً أو مقالاً - أن خصمهم هو الإسلام أيّاً كان شكله أو لونه... ألا يَحتاج هذا الموقف من المعارِض أو المنعزل إلى تقعيدٍ وتأصيلٍ على ضوء تلك القواعد؟

وفي المقابل عندما يقلل جناح من أجنحة العمل الإسلامي، من أهمية العملية التربوية للأمة ونشر العلم الشرعي، ومن تأصيل المنهج العلمي وتنقيته مما تراكم عبر السنين؛ مما شَوَّهَ صورته، وهو يرى واقع الأمة ويشعر بما أصابها من أثر جَهلها بدِينها، وأثَر الانحرافات الفقهية والعقدية التي شوَّهت جمال الدين، وكيف أخَّرَت الأمة قُروناً (فكرياً وروحياً وسياسياً)، عندما يقف هذا الجناح هذا الموقف وهو يَعُدُّ هذا العمل ترفاً وتَضييعاً للوقت، وإهداراً للجهد، ألا يحتاج هذا إلى وقفة جادة لتصحيح هذا الموقف على ضوء القواعد النيِّرة المذكورة سلفاً؟

وبالجملة، فإنه عندما يُقلل طرفٌ من جُهد طرفٍ آخر ينبغي أن يُبنى هذا الموقف على أصول أصيلة وقواعد حَكِيمة، لا على المُنافسة والمُشَاحَّة.

وإن العمل الذي يقوم على قواعد وأصول شرعية يقرِّب وُجهات النَّظر ويقلل - ولا شك - الاختلاف، ويُقيم عملاً سليماً، أو قريباً من السلامة والكمال، وَلْنَقترب أكثر من الموضوعية، فنقول: المطلوب في هذا الأمر آليات تُساعد على فقه هذه القواعد وتفهيمها، بتدريسها ونشْرها وإشاعتها وتوضيحها وإبراز ما يُذكِّر بها؛ فيُوَجَّه الباحثون والمحققون والأصوليون إلى ذلك، وتُنشر الأبحاث، وتُقام الندوات واللقاءات، وتُدرَّس الموادُّ العلمية المؤلَّفة فيها... وهكذا.

ختاماً: ما هذه إلا إشارات للتذكير، وكلمات على الطريق؛ وإلا فالموضوع يحتاج إلى متخصصين. ويتوجب على أهل الحل والعقد في قيادات العمل الإسلامي ألَّا يَدَعوا باباً يجمع الكلمة ويقلل الافتراق إلا فتحوه وولجوه.

وفَّق ربنا المولى الجميع إلى خيري الدنيا والآخرة.

---

(١) المصدر السابق: (١/ ٦٨).

بين (مقاصد الشريعة) و (مقاصد النفوس)!

فهد بن صالح العجلان
fsalehajlan@hotmail.com

(نحن بحاجة إلى إعادة النظر في هذا الحكم حسب المقاصد الشرعية) و (لا بد من مراعاة المقاصد الشرعية عندما نتحدث عن هذه القضية).

وعبارات أخرى مختلفة، ستسمعها – ولا بد – عند أي رؤية منحرفة تتعامل مع النصوص والأحكام الشرعية؛ فعامة الانحراف المعاصر حين يتعامل مع النصوص والأحكام الشرعية الجزئية فإنه لا بد – في سياق تجاوزه لأي حكم وإنكاره له – أن يرفع لافتة (المقاصد الشرعية) كتصريح شرعي للممارسات غير الشرعية.

المقاصد الشرعية التي كتب فيها فقهاء الإسلام بدءاً من الجويني والغزالي والعز بن عبد السلام والقرافي وشيخ الإسلام ابن تيمية والشاطبي تختلف اختلافاً تاماً عن هذه المقاصد التي يُشيع كثير من الناس الحديث فيها؛ فالمقاصد عند فقهاء الإسلام قواعد كلية مستخرَجة من استقراء كلي لكافة النصوص والأحكام الجزئية، ولا يصح أن يُردَّ بها أيُّ حكم أو نص جزئي، بخلاف هذه المقاصد التي تترجم المقاصدَ التي تريدها (نفوسهم) وتميل إليها (اختياراتهم) ويسعون من خلالها لرد جملة من النصوص والأحكام غير المرغوب فيها.

من أهم قواعد المقاصد الشرعية أن لا يُردَّ بها أي حكم جزئي، فإذا ثبت نص شرعي أو حكم فقهي فلا يجوز أن يُنقَض ويُتجاوَز بدعوى أنه مخالف لقاعدة مقاصدية؛ فهذا باطل لا علاقة له بعلم المقاصد (فإن ما يخرم قاعدة شرعية أو حكماً شرعياً ليس بحق في نفسه)[1].

وإذا كانت المقاصد الشرعية تقوم على ضرورة اعتبار (الكليات) فإنها تقوم على اعتبار الجزئيات كذلك (كما أن من أخذ بالجزئي مُعرِضَاً عن كليِّه فهو مخطئ، كذلك من

(١) الموافقات للشاطبي: ٢/٥٥٦.

أخذ بالكلي مُعرِضَاً عن جزئيِّه)[1].

فالمقاصد الشرعية تعتمد على تفاصيل الأحكام الجزئية، تقوم عليها، ولا تتكرها، بل حتى ولو وُجِد تعارض بين قاعدة مقاصدية وحكم جزئي تفصيلي فإن المنهج الصحيح في ذلك ليس إنكار الجزئي بل (إذا ثبت بالاستقراء قاعدة كلية ثم أتى النص على جزئي يخالف القاعدة بوجه من وجوه المخالفة فلا بد من الجمع في النظر بينهما)[2].

فإذا وصل الأمر إلى حصول تعارض بين (الكليات) و (الفروع) فهذا يستدعي الجمع بينهما لأهمية كلٍّ من الكليات والفروع التفصيلية، وهو شيء لا يفهمه (مقاصديو النفوس)؛ حيث ينكرون النصوص والأحكام الشرعية ثم يبحثون بعد هذا عن الطريقة المقاصدية المناسبة لرفض مثل هذه الأحكام!

لقد كان الشاطبي مدركاً غاية الإدراك خطورة استعمال المقاصد من غير المؤهلين، ولأجله منعهم من موافقاته وجعلهم في حرج من قراءته أو الاستفادة منه: (لا يُسمَح للناظر في هذا الكتاب أن ينظر فيه نظرَ مفيدٍ أو مستفيدٍ حتى يكون ريَّان من علم الشريعة؛ أصولها وفروعها، معقولها ومنقولها)[3].

كما أطال الحديث عن ضرورة العناية بالجزئيات، وأن المقاصد لا تقوم إلا عليها، وهذا كله لإدراكه أن طبيعة المقاصد وما فيها من كليات عامة يستدعي دخولَ غير المؤهلين واستغلالَ بعض المنحرفين، وهو ما يؤدي إلى تعطيل الشريعة، وهذا ما دعا بعض المنحرفين الذين يفهمون حقيقة المقاصد الشرعية أن يسمي المقاصد بأنها (تبرير) للأحكام الشرعية ليس إلا، وقد صدق؛ فالمقاصد ليست إلا بحثاً عن (فلسفة) لقواعد وعلل للشريعة من خلال الأحكام والنصوص، فإذا وُجِد نص مخالف فإن المقاصد تعدَّل في (الفلسفة) حتى تدخل هذا الحكم لا أن تلغيه لمخالفته للمقاصد.

إن دعوتهم للأخذ بالمقاصد لإسقاط بعض الأحكام الشرعية يؤدي إلى نسف الشريعة بكاملها، وتعطيل كافة أحكامها، وإسقاط قطعياتها وضرورياتها، وليس عسيراً على أي أحد أن ينفي أي حكم شرعي ويربط ذلك بمقاصد عُليَا، وقد مارس المعاصرون في ذلك من ألوان العدوان على الأحكام الشرعية ما لا يحصيه إلا الله؛ فـ (الحدود الشرعية) منافية لمقصد الشريعة في الرحمة وإشاعة الأمن و (حد الردة) منافٍ لمقصد الشريعة في التسامح والحرية و (الحجاب) منافٍ لتكريم المرأة و (كل فتوى بتحريم أي حكم) تنافي مقصد الشريعة في التيسير ورفع الحرج و (الحكم بكفر من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ) يتعارض مع مقصد إرساله رحمة للعالمين و (حرمة الربا) أو (منع المحرمات) يؤدي إلى حصول حرج ومشقة تنافي مقصد الشريعة

ولأجل ذلك كان شيخ الإسلام ابن تيمية بصيراً بأمر عموميات المقاصد حين قال: (فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر)[4]. فهذه المقاصد الكلية تتسم بالعمومية المطلقة التي يشترك فيها عامة الناس، فاختصاص الشريعة إنما يكون بتفصيل هذه المقاصد وشرحها وتقييدها فإذا ألغى الإنسان الاعتبار بها لم يكن قد أخذ من الشريعة بشيء.

وهكذا تغيب أحكام الشريعة الجزئية، بسبب مخالفتها لمقاصد (النفوس) - كما يسميها بعض الفضلاء - فهي مقاصد لما تريده نفوسهم وأهواؤهم وما يتوافق مع شهواتهم جعلوها قواعد كلية تحاكَم إليها النصوص والأحكام الفقهية، وتلك (النفوس) تكاد تُحصَر مقاصدها في الجانب الدنيوي المحض، وهو ما يختلف تماماً عن المقاصد الشرعية المستفادة من نصوص الكتاب والسُّنة التي تدلك على أن (الشارع قد قصد بالتشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية)[5].

بل إن المصالح الدنيوية تابعة للمصالح الأخروية؛ فـ (المصالح المجتلَبة شرعاً والمفاسد المستدفَعة إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية أو درء مفاسدها العادية)[6].

وإذا كانت إشاعة علم المقاصد الشرعية ضروريةً في مرحلةٍ ما لشيوع التعصب والجهل والتضييق على الناس، فإن المبالغة في تقرير المقاصد الشرعية وإشاعتها وتعظيم قدرها وضرورتها عند عامة الناس - وقد اختلف الحال - سيكون على حساب تعظيم النص الشرعي والانقياد له، وسيكون سبباً لظهور مقاصد النفوس لتُشِيع عبثَها وانحرافَها بدعوى (مقاصد الشريعة).

(١) الموافقات: ٣/ ٨.
(٢) الموافقات: ٣/ ٩.
(٣) الموافقات: ١/ ٧٨.
(٤) منهاج السنة النبوية: ٥/ ١٣٠.
(٥) الموافقات: ٢/ ٣٥٠.
(٦) الموافقات: ٢/ ٣٥١.

السودان...

نداء اللحظات الأخيرة

إعداد: مجلة البيان

في يناير ٢٠٠٥م جرى توقيع اتفاقية نيفاشا التي كان أحد بنودها الاستفتاء الشعبي على مصير جنوب السودان عام ٢٠١١م.

خلال أكثر من خمسة أعوام منذ توقيع الاتفاقية وبينما العد التنازلي للانفصال قد بدأ، هل قامت الأطراف المعنية بالأزمة، أو التي يتهددها الخطر من تقسيم السودان ، بما يتوجب عليها أن تقوم به؟

إنها خمسة أعوام كان يمكن أن يحدث فيها الكثير؛ فقط لو توفرت الإرادة السياسية.

أما على المستوى الاقتصادي، فقد كان يمكن أن تُدعَم حكومة الخرطوم (عربياً) بكل ما يلزم لإنعاش الاقتصاد المحلي وإضعاف الحصار المفروض على السودان، وهو ما كان من شأنه أن يقوي أسهم النظام في مواجهة نزعة الانفصال.

وأما على المستوى السياسي، فلم تحظَ الخرطوم بأي دعم عربي لتخفيف الضغوط الغربية المؤيدة لتقسيم السودان، أو للتوسط بجدية لدى القوى المتمردة في الجنوب لإقناعهم (بكافة السبل الممكنة) بعدم جدوى الانفصال.

وأما على المستوى العسكري، فلم تتفاقم الأزمة من الأساس إلا بسبب الإحجام العربي عن تقديم دعم عسكري للنظام السوداني يمكنه من حسم المعارك مع التمرد الجنوبي، وهو ما كان سينهي الأزمة بصورة مختلفة تماماً.

ويتوجه اللوم أيضاً لبعض أطراف النظام السوداني الذي أخفق في احتواء الأزمة طيلة خمس سنوات كانت كافية لتجاوز المحذور لو أُحسن استغلالها.

الآن لا يوجد الكثير لفعله أو حتى لقوله، فقد وصلت كافة الجهود إلى طريق مسدود، وأوشكت الأطراف المتآمرة على قطف ثمار ما زرعوه بكد ودأب منذ سنوات طويلة لتفتيت العمق العربي في إفريقيا؛ فبعد أن ضاعت الصومال، ها هي السودان في الطريق، وبعدها سوف تتسع دائرة الخطر لتشمل دولاً أخرى كانت تَعُدُّ نفسها آمنة، وغاب عن حكامها أن الأحداث الحقيقية في دولة مستهدفة هي بمثابة «بروفة» لما سوف يحدث في الدولة التالية لها على القائمة.

ليس كل الخطر في انفصال الجنوب السوداني، بل فيما سيعقبه من تنامي نزعات الانفصال في شرق السودان وشماله وغربه، بل قد يؤدي إلى تنامي نزعات الإنفصال في دول عربية وإسلامية أخرى. وإذا كان مجرد توقيع اتفاق نيفاشا قد تسبب في تسخين مناطق التوتر في جهات السودان الثلاث (عدا الجنوب)؛ فماذا سيكون الحال عندما يتم الانفصال حقيقة لا كتابة؟

ليس بمستبعد أبداً أن ينقسم السودان إلى خمس دول مستقلة، ولن تكون كلها عربية الانتماء - على الأقل في الجنوب والغرب - وستزداد الدول العربية دولة أو اثنتين، وسيصبح نصاب الدول الفقيرة متزايداً، مع حكومات ضعيفة وأنظمة مهترئة لا تقوى على فعلٍ أو تأثيرٍ، بل ليس لها مقومات الدولة من الأساس اقتصادياً أو عسكرياً أو سياسياً، وتلك بيئة نموذجية لاختراقها من قِبَل أعداء الأمة المتربصين بها الدوائر.

على الرغم من ذلك لا يزال هناك بارقة أمل في أن تُبذل جهود عربية وسودانية لتدارك الموقف قبل أن يصل إلى نقطة تستحيل معها العودة. ورغبةً في تدعيم أي جهد مبذول في هذا السياق، فإن مجلة البيان خاطبت عدداً من علماء الأمة ورموزها كي يوجِّهوا نداءً أخيراً إلى من يهمه أمر السودان، أن يبادر بالعمل من أجل معالجة الأزمة.

إنه نداء اللحظات الأخيرة، يطلقه علماء الأمة ورموزها قبل أن تُقلِع طائرة الانفصال ميممة شطر المجهول.

وقد آثرنا أن نعرض مشاركة الرموز الفضلاء مرتبة على محاور موضوعية تُلخِّص أبعاد الأزمة ومكامن الحل. وقد شارك في هذا النداء كلٌّ من:

د. ناصر العمر: المشرف على موقع المسلم.

د. همام عبد الرحيم سعيد: المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن.

المهندس محمد الحمداوي: رئيس حركة التوحيد والإصلاح في المغرب.

د. حارث الضاري: رئيس هيئة علماء المسلمين في العراق.

الشيخ عبد المجيد الزنداني: رئيس جامعة الإيمان في صنعاء.

د. عبد الرحمن البر: عضو مكتب الإرشاد في جماعة الإخوان المسلمين في مصر.

د. عصام العريان: عضو مكتب الإرشاد في جماعة الإخوان المسلمين في مصر.

د. محمد العبدة: مفكر إسلامي من سوريا.

الشيخ محمد موسى العامري: من علماء اليمن ومدير المعهد العلمي في اليمن.

لماذا السودان؟

إنه سؤال يقربنا كثيراً من فهم القضية وصولاً إلى آفاق معالجتها، ويقدم ضيوف المجلة إجابات وافية عن هذا التساؤل، فيقول الشيخ عبد المجيد الزنداني: إن ثورة الإنقاذ التي قادتها الحركة الإسلامية السودانية كانت تستهدف فضح المؤامرة الاستعمارية على الأمة، قاصدة أن «تقيم كياناً إسلامياً نموذجياً يصلح أن يكون قدوةً لسائر الشعوب والجيوش الإسلامية فتكالب الغرب وكل القوى المعادية على هذا النموذج وسعوا لاغتياله في مهده وإجهاضه في دولته وحاكوا كل وسائل التآمر لإسقاطه وفجَّروا كلَّ بؤر الخلاف والتناقضات الطائفية والدينية والطبقية والعرقية لإفشال المشروع في السودان»، وعندما أظهر قادة الثورة صموداً وثباتاً عمد الغرب – وعلى رأسه الكنيسة وكل القوى المعادية – إلى تحريك الجنوب» الذي يشترط قادته المرتبطون بالقوى الاستعمارية تخلي أهل الشمال عن الشريعة إن أرادوا الوحدة، فوضعوا القائمين بثورة الإنقاذ بين خيارين:

١ – الإصرار على الالتزام بالحكم الإسلامي وبما أنزل الله وهو الذي سيواجَه بمؤامرة الانفصال.

٢ – أو الردة عن الدين وبقاء الوحدة».

ويضيف د. عبد الرحمن البر بُعداً جديداً لاستهداف السودان، وهو كونه «بوابة الإسلام والعروبة إلى إفريقيا، وأنَّه لو نفذ الإسلام إلى هناك فإنَّ ذلك سيؤدي لانتشاره في كامل القرن الإفريقي ومنابع النيل ومنطقة البحيرات، وهي مناطق إستراتيجية هامَّة، وخصوصاً أنه قد لوحظ أن الدين الإسلامي يلقى ترحيباً حاراً من أهالي تلك البلاد. وأدركت الجهات الاستعمارية أنَّ العرب والمسلمين متى ترسَّخ وجودهم هناك سيصبح لهم مركز في وسط القارة يستطيعون منه الوصول إلى كافة مناطق إفريقيا».

ويشير د. محمد العبدة إلى البُعد الاقتصادي للاهتمام الاستعماري بالسودان، وأنه قد «جاء اكتشاف النفط – وربما معادن أخرى – ليزيد من تدخل القوى الكبرى ويزيد من أطماعها»؛ فالسودان – كما يقول د. همام سعيد – هو: «سلة العالم الإسلامي في الغذاء، وخزان العالم الإسلامي في الماء».

المؤامرة ليست قاصرة على السودان:

من أهم بواعث الكسل والتقاعس عن «إنقاذ» السودان من التفكك والانقسام، هو حالة الاطمئنان التي تنتاب أغلب الأطراف المعنية على طريقة «ما يحدث لغيرنا لن يحدث لنا»، بسبب علاقات يحسبونها قوية أو تحالفات يظنونها شافية

من أهم بواعث الكسل والتقاعس عن «إنقاذ» السودان من التفكك والانقسام، هو حالة الاطمئنان التي تنتاب أغلب الأطراف المعنية على طريقة «ما يحدث لغيرنا لن يحدث لنا»

كافية، وهذا فهم خاطئ خطير في الوقت نفسه، وبحسب د. البر فإن «قضية جنوب السودان ليست مسألة حرب أهلية، ولكنها مؤامرة عالمية لإقصاء العروبة والإسلام، لا تغيب عنها الصهيونية والصليبية العالميتين، ولا تستهدف السودان وحده، وتغذيها جهات كثيرة إقليمية ودولية»، وينظر المهندس محمد الحمداوي إلى ما يحدث في جنوب السودان بوصفه «نسخة تتكرر في عدد من البلدان الإسلامية بهدف مزيد من تشتيتنا وتمزيقنا وإضعافنا من أجل استغلالنا».

ويذكِّرنا د. عصام العريان بالتاريخ لكي ندرك ما يُنتظَر في المستقبل؛ فقبل عقود لم يكن متوقعاً أن تنفصل السودان عن مصر، وقد ظل الترابط بينهما سياسياً واقتصادياً متواصلاً منذ عهد بعيد، «وكان رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس– رحمه الله – يقول: تُقطع يدي ولا أوقِّع على وثيقة انفصال السودان عن مصر. وها نحن أمام تمزُّق مملكة مصر والسودان إلى ٣ دول بسبب دسائس الاحتلال الإنجليزي والصديق الأمريكي»، ويواصل د. العريان تحذيره قائلاً: «إن خطة الاحتلال الأجنبي الذي جثم على صدور العرب والمسلمين نجحت (حتى الآن) في تمزيق الأمة الإسلامية الواحدة إلى أكثر من ٥٠ دولة ودويلة، وتمزيق الأمة العربية إلى أكثر من ٢٢ دولة ودويلة. والله – تعالى – يناديا: ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّـةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُـدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ويطالبنا ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]».

ويقول د. حارث الضاري داعياً إلى إزالة توهمات السكينة والاطمئنان: «يخطئ من يظن أن اقتطاعاً لجزء من أجزاء الوطن – أياً كان هذا الجزء – لن يؤثر على هذا الجزء نفسه أو غيره من الأجزاء الأخرى، ولن يُخلَّ بالوضع العام لهذا البلد أو ذاك من بلدان الأمة»، وكذلك يشير د. همام إلى المعنى نفسه مع تحديدٍ لأكثر الدول تعرضاً للخطر من انفصال جنوب السودان، فيقول: «ستكون هذه الدولة متحكمة في عموم أرض السودان ومياهه وشعبه، وسيكون هذا الانشقاق بداية انفراط عقد السودان كله، بل فيه خطر عظيم على مصر وشمال إفريقيا وعلى الأمة كلها».

أما الشيخ محمد موسى العامري فينبه الحكومة اليمنية إلى الاستفادة من الحالة السودانية داعياً إياها إلى أن «تبادر بإصلاح الأوضاع في جنوب اليمن وشماله وأن تسعى جاهدة

إلى نزع فتيل المؤامرة وأن تسترشد بآراء العلمـــاء والمصلحين الناصحين، وأن تقيم العدل والشـــريعة الإســـلامية، وتستبعد المفســـدين من دعاة التغريـــب والعَلمنة والفســـاد الذيـــن ســـيتحولون إلى أذرع لأعداء الإســـلام»، وينبه د. العامري إلى خطورة المؤمرات التي تحاك ضد اليمن في عدة مناطق؛ «ســـواء في جنـــوب اليـــمن أو في شـــماله من خـــلال فتنة الرافضـــة المتمثلة في الحركة الحوثية التي تســـعى بدورها إلى قيام كيان انفصالي آخر على النمط المذهبي الإيراني».

المتآمرون هم من رسخوا في الأذهان «حل الانفصال» كحل ناجع للمشكلات القائمة، على الرغم من أن القناعة التي كانت متوفرة لدى سكان الجنوب منذ القديم أن الانفصال أمر غير ممكن

ليس انفصالاً كغيره:

إن جـــنـــوب الســـودان – كمـــا يقول د. العريـــان –: «دولة لا تتمتع بأي منافذ بحرية، وتسودها النزاعات القبلية»، وبمعنى آخر هـــي دولة تفتقر إلى مقومات الدولة، وفي هذا الســـياق يقـــدم د. الضاري تحليلاً مهماً، فيقـــول: «أثبتت الأحداث أن هـــذه الاقتطاعات والانفصالات لا تشـــبه غيرها من الحالات الحادثة في البلاد الأخرى، التي ينكفئ فيها أهلها على أنفسهم ويعيـــدوا بناء ذواتهم ومن ثَمَّ يتعاملون مع غيرهم وَفْقَ أســـس التعامل الإنساني المتعارف عليها في عالم اليوم. وبغضِّ النظر عن حاجة من يقطن هذه الأجزاء لتحقيق هويته الثقافية: دينية كانـــت أو قومية أو إثنية – وهو أمر لا يختلف عليه اثنان – فإن هناك من يدعم هذه الخطط مدفوعاً بأهداف أخرى هي بعالم السياسة أليق وبغايات المصالح الدولية المشبوهة أوفق».

فالقضية إذن ليســـت نابعة من حاجة فعلية لدى ســـكان الجنوب إلى إنشـــاء دولة مســـتقلة لهم؛ فهم كانوا يعانون من مشـــكلات معيَّنة ترتبط بالحالة الاقتصادية في أغلبها، ولكنَّ المتآمرين هم من رسَّـــخوا في الأذهان «حـــل الانفصال» كحل ناجع للمشكلات القائمة، على الرغم من أن القناعة التي كانت متوفرة لدى ســـكان الجنوب منذ القديم أن الانفصال أمر غير ممكن من الناحية العملية؛ فهو إذن انفصال مبرمج يهدف إلى إنشاء دولة عرجاء سيكون لها دور خطير في المستقبل.

ماذا بعد الانفصال؟

إن أبـــرز تداعيـــات الانفصال هـــي في انتقـــال «عدوى الانفصـــال» إلى مناطق عربية أخرى، كمـــا يقول د. الضاري: «سيشـــجع هذا الأمـــر حـــركات انفصال هنا وهنـــاك لتطل برأسها وتتحين الفرصة المناسبة لنقض وحدة البلاد والذهاب بمقدراتها، وســـيكـــون ما سيحصل في الســـودان – لا قدر الله – سابقة خطيرة ربما تحـــذو حذوها حركات أخرى مريبة متخذة من هذا الانفصال مثالاً وذريعة»، والمعنى نفسه يؤيده د. العبدة الذي يقول: «إن انفصال الجنوب ربما يشجع أقاليم أخرى. ومن الواضح أن تفتيت المنطقة من الأهداف التي يســـعى إليها أعداء الإسلام»، ويقارن د. العامري بين الوضع في الســـودان ومثيله في اليمن مركِّزاً على خطورة اتباع أســـلوب «النَّفَس الطويل» في تحويل المطالبات الشـــاذة إلـــى مطالبات مشـــروعة ومقبولة. يقول: «إن نجـــاح دعاة الانفصال والتمرد في فصل جنوب الســـودان يعني نجاح دعاة الجاهليـــة وإحياء النعرات الطائفية والعرقية والمناطقية في أماكن مشـــابهة ومنها اليمن؛ فدعاة الانفصال اليمني ينفخون في بوق النعـــرات الجاهلية وإحياء العصبيات المناطقية ويراهنون على سياســـة النَّفَس الطويل وشرعنة هذا الانفصال وتطبيع العداء بين أبناء الشعب الواحد مستغلين في ذلك الأوضاع الاقتصادية المتردية».

ويشير الشيخ العامري إلى تداعيات محزنة للانفصال قد لا يتنبه لها كثيرون، فيقول: «إنه (أي الانفصال) ســـيكون كارثة على المســـلمين خصوصاً في منطقة القرن الإفريقي، وسيحول دون تمدد الإســـلام وانتشاره فيها، وسيعمل جاهداً على إقامة المشاريع التنصيرية في المنطقة، إضافة إلى الكارثة التي ستحل بمسلمي جنوب السودان الذين يبلغ عددهم قرابة ثلاثة ملايين، وهؤلاء لم يُحسَب لهم أي حساب في هذه المحنة بكل أسف».

إن مـــن أخطر التداعيات الإقليمية للانفصال تلك المتعلقة بنهـــر النيل وعلاقة الدولة الناشـــئة بالدولـــة القديمة والدور الصهوني فـــي التركيبة الجديدة للمنطقـــة، وفي هذا الصدد يقـــول د. العريـــان: «المخاطر التي تمثلها دولـــة انفصالية في جنوب السودان شديدة على كل الأصعدة:

- فهي تمثل خطراً على الموارد المائية والمشاريع القائمة على نهر النيل، مثل قناة «جونجلي».
- وتمثل خطراً على اســـتقرار الأوضاع في شمال السودان؛ لأنها ستكون محلاً للنزاعات القبلية وتوترات الحدود المستمرة.
- وتمثـــل خطراً بالوجود الأجنبـــي الدائم في صورة قوات دوليـــة لفض النزاعـــات بين القبائل، أو شـــركات أمن أجنبية لحماية الاستثمارات الأجنبية.

• وتمثل خطراً؛ لأنها ستكون حاجزاً طبيعياً بين الشمال العربي المسلم في مصر والسودان والقلب الإفريقي المسلم في دول حوض النيل التي حولتها البعثات التبشيرية من دول مسلمة إلى دول مختلطة الديانات والثقافات.

• وتمثل خطراً؛ لأن العدو الصهيوني يعمل جاهداً ليكون له موطئ قدم في تلك الدول من إريتريا إلى أوغندا إلى إثيوبيا، وها هو يستعد جاهداً لتكون له كلمة قوية في جنوب السودان التي - في الغالب - لن تنضم إلى الجامعة العربية.

قد يظن بعض الناس أن انفصال الجنوب خسارة للشمال وربح للجنوب، يرفض المهندس الحمداوي هذا المعنى ويؤكد على أن «الصراعات بين أبناء الوطن الواحد بهدف تمزيقه وتفريقه لن يكون لها من نتيجة سوى الخسارة للجميع والضرر على الجميع»؛ فمن إذن سيستفيد من الانفصال؟ يقول: «إن كان هناك من مستفيد أو رابح من فكرة الانفصال، فلن يكون سوى أولئك الذين يريدون لأمتنا وشعوبنا دوام التمزيق والإنهاك والضعف والتخلف».

وأما على المستوى الحكومي، فيُبرز الشيخ العامري أثراً هاماً متوقَّعاً نتيجة الانفصال؛ إذ يرى أن توقيع اتفاقية نيفاشا كان «ناتجاً عن ضغوط دولية وعقوبات اقتصادية وحصار ظالم بسبب الممانعة التي أبدتها الحكومة السودانية ورَفْعِها شعار تطبيق الشريعة الإسلامية، ومثل هذا الخضوع يمكن أن يدفع بكثير من صناع القرار في أي بلدٍ آخر إلى السير في الاتجاه ذاتها طمعاً في الوعود الغربية والمعونات الاقتصادية أو خوفاً من حجبها والمعاقبة بها، وحينئذٍ يتحقق المثل السائر: (أُكلتُ يوم أكل الثور الأبيض)، وتظل مسألة صراع الإرادات تتأرجح وتضعف لصالح أصحاب المشاريع الانفصالية».

ما يجب على الحكومة السودانية:

ينبغي على كل حكومة مسلمة تنتسب إلى الإسلام أن تقبل بحكم الشرع في كل شؤونها وفي كل ما يمس حقوق الأمة ومكتسباتها وثوابتها، وإن الموافقة على انفصال الجنوب السوداني بكل ما يمثله من خصائص جغرافية وأبعاد دينية وسياسية، أمر لا بد من الرجوع فيه إلى الشرع قبل إقراره والقبول به. يقول د. ناصر العمر مبيِّناً حكم الشرع في إقرار اتفاق للتنازل عن جزء من أرض الإسلام: «بلد الإسلام تسع المسلم والكافر. وعاش تحت ظل الدول الإسلامية أهل الأديان في مختلف العصور، ولم يكن من مسوغات انفصال جزء خضع لدولة الإسلام أبداً اختلافُ لونٍ أو عرقٍ أو دينِ أهل ذلك الإقليم، بل اتفق علماء الشريعة على أن بسط نفوذ دولة الإسلام واجب، بل حرموا على المسلم مهما بلغ إيمانه أن يشق عصا الطاعة ويفرق الجماعة، كما في صحيح مسلم من حديث عرفجة أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ستكون هنَّات وهنَّات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميعٌ، فاضربوه بالسيف كائناً من كان»، وبناءً على ذلك يقرر د. العمر بصورة حاسمة أن القبول «بانفصال جنوب السودان عن دولته لتقوم عليه دولة عَلمانية مستقلة، لا يجوز شرعاً، ولا عذر لمن أظهر إقراره بغير الإكراه؛ وذلك بصرف النظر عن أرض الشمال أو الجنوب، ما دام المُمضِي لذلك مسلماً، والله اعلم».

ويؤيد د. همام الحكم بعدم جواز التفريط في أرض الإسلام، ويوجِّه خطابه إلى المسؤولين في الحكومة السودانية قائلاً: (اعلموا أن وحدة السودان أرضاً وشعباً أمانةٌ في أعناقكم، ويحرم عليكم التفريط بشبر واحد من أرضه، ولا بحبة تراب من ترابه الطهور، وهذا الحكم الشرعي مقصد من مقاصد القرآن الكريم، وهو من أهم مقاصد الشريعة. يقول الإمام الجويني - رحمه الله -: «مقصود الإمامة القيام بالمهمات، والنهوض بحفظ الحوزة، وضم النشر، وحفظ البلاد الدانية والنائية بالعين الكالئة»[1]. ويقول: «ليس يخفى على ذوي البصائر والتحقيق أن القيام بالذب عن الإسلام وحفظ الحوزة مفروض، وذَوُو التمكُّن والاقتدار مخاطبون به، فإن استقل به كُفاةٌ سقط الفرض عن الباقين، وإن تقاعدوا وتواكلوا عمَّ كافة المقتدرين الحرجُ على تفاوت المناصب والدَّرجات»[2]).

ويستشهد د. همام بحادثة هامَّة في التاريخ الإسلامي، وهي ارتداد القبائل العربية بعد وفاة النبي ﷺ؛ فيقارن بين موقف أبي بكر - رضي الله عنه - والموقف المفترض اتخاذُه في أزمة جنوب السودان، فيقول: «قام أبو بكر بمقتضى أمانة الإمامة الكبرى وواجباتها، وبمقتضى حكم الله - تعالى - في وحدة الأمة وتوحيدها، يدعو الصحابة إلى قتال المرتدين، ورأى أن الواجب لا يسقط عن الأمة حتى ولو كان فيها رجل واحد كأبي بكر، رضي الله عنه».

بعد بيان الحكم الشرعي للتنازل عن جنوب السودان، يقدِّم بعض العلماء نصائح مهمة للحكومة السودانية؛ سواء في الفترة

(١) الغياثي: ص٩٦.
(٢) الغياثي: ص٣٥٨.

المتبقية أو في حال تحقق الانفصال، فيذكر د. العبدة أن «العدل هو الذي يقرِّب أهل الجنوب ويجعلهم يرون الوحدة خيراً لهم من الانفصال»، ويدعو أركان الحكومة إلى تقبُّل النصائح من المخلصين وعدم الإعراض عنها بدعوى أن «أهل مكة أدرى بشعابها، فإن البعيد يرى أحياناً ما لايراه القريب»، وفي الوقت نفسه يطالب د. العبدة بالاستماع إلى «انتقادات المعارضة، مهما تكن الدوافع؛ ونحن لا نطلب شيئاً مما لا يعرفه الحزب الحاكم، ولكننا نطلب وحدة تقطع الطريق على المستغلين أصحاب المصالح الخاصة ولو على حساب الوطن».

أما فيما بعد الانفصال، فإن الشيخ الزنداني يدعو الحكومة إلى اتباع نهج معتدل بأن يحرص «الشمال على القيام بواجبه المستمر نحو المواطنين في الجنوب حتى يأذن الله بمراجعة قد تحدث في أهل الجنوب تجعل مصلحتهم ونهضتهم وأمنهم وتقدُّمهم مرتبطة بإعادة وحدتهم مع الشمال».

موقف الدعاة وأهل العلم:

يتحمل العلماء وقادة الأمة الغيورون عبئاً عظيماً ومسؤولية كبرى في معالجة هذه الأزمة الخطيرة، والمقصود هنا علماء الداخل والخارج:

أما علماء الداخل في السودان، فيدعوهم د. العبدة إلى تخطي عقبات الحزبية والتخلص من كثرة الانقسامات والخلافات التي تؤدي بالجماهير إلى الضعف وقلة الاهتمام، فيقول: «ندعو هؤلاء الفضلاء للالتفاف حول قيادة علمية مقبولة من الجميع ويصدر عنها رأي يقبله الجميع، ولو أن هذا يتطلب بعض التنازلات، إلا أنه في سبيل المصلحة العامة، كما ندعو إلى التشاور والتنسيق بين الدعاة وأهل الرأي من الأكاديميين قبل أن يفوت الأوان»، كما يدعوهم إلى تقديم «الاقتراحات المناسبة ولو بصيغ تدريجية لإعادة اللحمة والتوحد».

وأما بالنسبة لعلماء المسلمين قاطبة، فيناشد د. العامري علماء الأمة أن «يقوموا بواجبهم في شرح حقيقة الأمر وتجليته للحكومة السودانية وغيرها؛ فجنوب السودان أرض إسلامية حكمها المسلمون وأدخلوا فيها الإسلام وضحُّوا من أجل ذلك بدمائهم وأموالهم؛ فهل يحق لهم أن يتخلوا عنها ويسلِّموها بما فيها من المسلمين والثروات إلى الصليبيين والوثنيين الحاقدين ليُقيمُوا عليها كياناً معادياً عنصرياً ضد العروبة والإسلام؟».

أين الدور العربي والمصري في معالجة الأزمة؟

لقد تساءل عدد من المشاركين في التحقيق عن الدور العربي عامة والدور المصري بصفة خاصة، فقال د. العريان في لهجة استنكارية: «أين المسلمون؟ وأين العرب؟ بل أين مصر نفسها من هذه التطورات؟ وقد أعلن وزير خارجية السودان نفسه أن اهتمام مصر بالسودان قد ضَعُف وفَتَر، وأن سياسة مصر الرسمية نحو السودان مرتبكة ومضطربة، وقد غاب المستثمرون المصريون والعرب عن السودان شماله وجنوبه، فلا نلومنَّ إلا أنفسنا».

أما د. العبدة فيؤكد على عمق الترابط المصري السوداني، فيقول: «لا ننسى هنا أيضاً أن نذكر أن عمق السودان ليس في

يتحمل العلماء وقادة الأمة الغيورون عبئاً عظيماً ومسؤولية كبرى في معالجة هذه الأزمة الخطيرة، والمقصود هنا علماء الداخل والخارج.

الجنوب أو الشرق والغرب فقط ولكن في الشمال، في مصر البلد القريب والشقيق عربياً وإسلامياً، فكما أن عمق مصر الإفريقي هو السودان، كذلك فإن عمق السودان العربي هو مصر».

ويوجه د. همام رسالة خاصة إلى شعب مصر، ثم إلى الشعوب العربية والإسلامية، منوِّهاً باقتراب مركز الخطر من مصر، فيقول: «اعلموا أن شأن السودان من صميم أمنكم ومستقبل أجيالكم؛ ففي انشقاق الجنوب عنه مقتل لمصر وشعبها، وفي هذا إضعاف للأمة وتدمير لحصن من أعظم حصونها، وأن فريضة الله على الجميع توجب القيام مع أهل السودان في وجه هذه المؤامرة وما ينقص على أهل السودان من الجهد والجهاد فهو فريضة الله عليكم حتى يستقر الأمر للسودان في وحدة أرضه وشعبه».

ومن المغرب العربي يناشد المهندس محمد الحمداوي جميع محبي السودان من داخله وخارجه ومن العرب والمسلمين إلى «المساهمة والانخراط في تعبئة شاملة لتعزيز الوحدة والاتحاد وتجاوز فكرة الانفصال والانشقاق؛ سواء على الصعيد الداخلي أو على الصعيد الخارجي، بما في ذلك محاورة المعارضين والمتشككين».

كانوا هنا...

كانوا هنا حيث كان الخِصْبُ والمطرُ ... ثم انثنَوا، وشذى الأشواقِ ينتشرُ
كانوا هنا نبضَ قلبٍ ضمَّ عاشقَهُ ... ثم انتحى يشرح النجوى ويختصرُ
كانوا إلى سدرةِ الجوزاء ألويةً ... يحدِّثُ الدهرَ عنها الشمسُ والقمرُ
وطوَّفوا في بلادِ الله قاطبةً ... (وألحفوا الأرض من أطرافِ ما ائتزروا)
وساوروا الليل في مسرى عزائمهم ... فأشرقوا والضحى يندى ويبتسمُ
خاضوا البحارَ بحاراً في تموُّجها ... وطاولوا قمماً ما نالها البشرُ
وقفوا على شاطئ (الأطلنط) في لَهَفٍ ... والموجُ يستشرفُ الآتي ويعتذرُ
(لو خلف هذا) ودوَّى الصوتُ منهمراً ... في ساحةِ المجدِ يستعلي ويزدهرُ
وأشرف الفجرُ من علياءِ غُرَّته: ... يا أُفْقُ ماذا هنا؟ يا نجمُ ما الخبرُ؟
هنا تماهوا كأزهارِ الربيعِ هُمُوا ... كالغيثِ يستنهض الغبرا ويعتصرُ
وجوهروا الرملَ أمجاداً وأزمنةً ... واستسهلوا الصعبَ حتى أورق الحجرُ
كانوا هنا وذوى صوتي وحاصرني ... في غصة البوح هذا الجرحُ والسهرُ
والقوم حولي خمولٌ لا حدودَ لهُ ... أغواهم اللهو والتسمين والخدرُ
نظرتُ حولي وقد خارت عزائمهم ... وزادني ما أعاني العجزُ والضجرُ
نظرتُ حولي وغاب الوعي منشطراً ... وليس فكرٌ ولا سمعٌ ولا بصرُ
لكنه القلبُ في الحالين يخبرني ... أن ليس في ساحتي (سعدٌ) ولا (عُمَرُ)
والبحرُ خلفي هديرٌ ليس يحجزُهُ ... إلا الرمالُ يُناغيها وينحسرُ
هتفتُ يا قومُ هُبُّوا دونما كَسَلٍ ... من يرهبِ الموتَ لا يُقضى له وَطَرُ
خوضوا المنايا كما قد خاضها نفرٌ ... لله ما جاهدوا، لله ما نذروا
صَبُّوا الدماءَ على أعدائهم حمماً ... وسَورةُ الموتِ تسترعي وتدخرُ
ويبذرون بقلبِ الأرضِ سنبلةً ... تباغت الفجرَ في ميعادها النُّذرُ

❊ ❊ ❊

هُبُّوا، وذابَ الهوى المبحوح في شفتي ... ووقدةُ الحزنِ في الأضلاعِ تستعرُ
إلى غدٍ، وهَمَى دمعي إلى أملٍ ... ورهبةُ الصمتِ في الأجواءِ تنفجرُ

محمد أحمد حسن فقيه
mafaqeeh@gmail.com

[المسلمون.. والعالم]

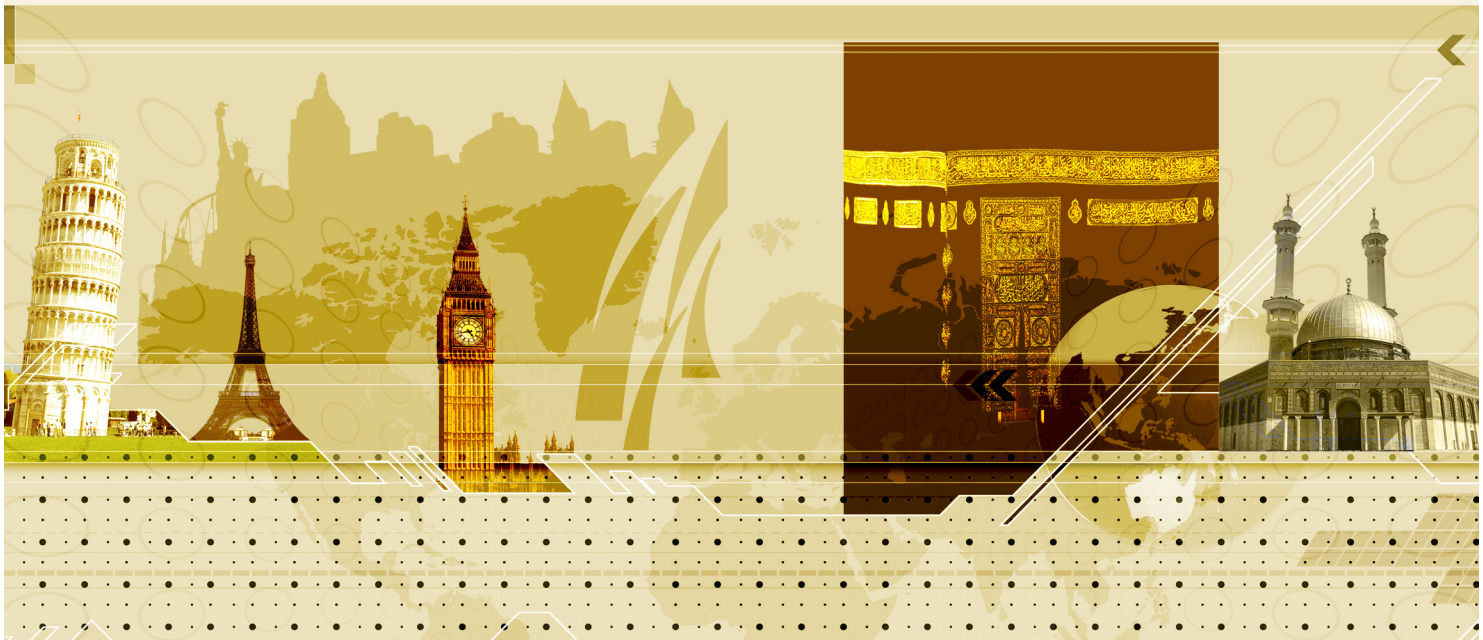

تقرير مصير السودان... لا مصير الجنوب

طلعـــت رميـــح

جريمة التدمير الشامل في العراق (حجم الكارثة البيئية لجريمة غزو العراق)

د. أكرم المشهداني

ثنائية التعليم في نيجيريا... اتجاهات وتطلعات

د. موسى عبد السلام أبيكن

مرصد الأحداث

جلال سعد الشايب

تقرير مصير السودان... لا مصير الجنوب

طلعـــــت رميـــــح

يُظهر تفحُّص العنوان الذي اختاره الساسة والإعلاميون لمتابعة تطورات وأحداث السودان، أن زاوية النظر في كل المتابعات قد تحددت سلفاً، وأن العنوان قد جرى تحديده بعناية لتعميق حالة الخداع لدى المتلقين وحرف الأنظار عن المخاطر التي تحيط بهذا البلد.

إن العنوان الذي جرى اختياره والإلحاح عليه في كل تصريحات الساسة والتغطيات الإعلامية هو (تقرير مصير الجنوب)، أو (أن الاستفتاء المزمع انعقاده في ٩ يناير ٢٠١١م، سيقرر مصير الجنوب بين الوحدة والانفصال)... إلخ، بينما الاستفتاء سيجري لتقرير مصير السودان كله بأيدي بعض المواطنين السودانيين في الجنوب، دون غيرهم من مواطني الجنوب ومن باقي مواطني السودان؛ إذ السودان سينقسم دولة وجغرافيا ومجتمعاً، ولأن هذا الفصل للجنوب سيكون بمثابة المفجر البادئ لحالة انفجار شاملة للمجتمع والدولة السودانية، وسيكون بداية لأعمال تفجير مشابهة في إفريقيا وفي الدول الإسلامية الأخرى.

إن العنوان الذي جرى اختياره للحدث وكافة مترتباته، هو: تقرير مصير الجنوب، وكأن الجنوب محتل ومستعمَر من بلد آخر، تنطبق عليه قواعد حق تقرير المصير التي استقرت خلال المرحلة التالية للحرب العالمية الثانية بشأن الدول المستعمَرة، بينما الجنوب ليس إلا جزءاً من «دولة» مرَّ على استقلالها موحَّدة ومنضوية تحت راية الأمم المتحدة ما يزيد على نصف قرن.

وهو عنوان يُظهر تقرير المصير هذا وكأنه يجري في فراغ، وليس فعلاً انفصالياً وتقسيماً لدولة ومجتمع متكامل، لن تتأثر جراءه أوضاع الجنوب فحَسب؛ بل ستتغير من خلاله أحوال السودان في الأعم الأغلب؛ ذلك أن انفصال الجنوب ليس فعلاً ينتج عنه تأسيس دولة جديدة، بل هو طلقة البداية، لإطلاق عملية تفكيك للسودان كله، وقد ظهرت أُولَى المؤشرات بالفعل من خلال المطالبة بجعله حقاً ينطبق على بقية أقاليم السودان؛ إذ أعلنت حركة العدل والمساواة الانفصالية في دارفور، عن

بدء سعيها لنيل حق تقرير المصير لكلٍّ من إقليمي (دارفور وكردفان)، وهو ما يعني نهاية السودان الحالي فعلياً.

وفي اتجاه آخر، لا تبدو كلمات الرئيس التشادي (إدريس دبي) بأن انفصال جنوب السودان سيكون بمثابة كارثة لكل إفريقيا، مجرد كلمات مجاملة للرافضين للانفصال، بل هي وصفٌ لمخاطر هذا التقسيم للسودان على قارة تعيش حالة واسعة من التفكك في مجتمعاتها وتعاني دولها من ضعف المشروعية وضعف القدرات على الحفاظ على تماسك المجتمعات واستقرارها.

وعلى الجانب العربي والإسلامي يبدو واضحاً أن فعل تقسيم السودان سيكون السابقة التي ينتظرها كثير من الانفصاليين في الدول العربية والإسلامية؛ إذ قطع مخطط تقسيم وتفكيك كثير من الدول والمجتمعات شوطاً كبيراً بالفعل.

وسؤال اللحظة الآن هو: هل الحكم والمجتمع السوداني، سيُقبِل على إتمام المخطط المرسوم للسودان بالتقسيم والتبدد (والحال نفسه بالنسبة للدول الإسلامية الأخرى)؟ أم أن اتضاح المخاطر على نحو لا يقبل الجدل، صار دافعاً للأخذ بخطط أخرى لمواجهة هذا الخطر؟ وكيف سيتحرك السودان في مواجهة تركيز الضغوط المكثفة عليه في الفترة الراهنة لإنجاز هدف تفتيته؟ وما هي الخيارات المتاحة للخروج من المأزق؟

أولاً: إن المرحلة التي يمر بها السودان مرحلة خيار مصيري. والخيار المصيري هو ذاك الوضع الذي تواجه فيه دولة أو مجتمع تحدياً أو تحديات يترتب على طريقة التعامل معها حدوث تغييرات في هوية المجتمع والدولة والحدود الجغرافية ومناطق السيادة الأساسية... إلخ. وفي مثل تلك الحال تتعلق النتائج بطبيعة الاستجابة لهذا التحدي؛ فهناك دول ومجتمعات قررت الرفض والمواجهة وانتصرت على التحدي، وهناك دول ومجتمعات أخرى قابلته بالضعف والتردد، فتحولت من حال موحدة إلى حالٍ أخرى.

فمثلاً لقد واجهت الولايات المتحدة تحدي انقسامها بين شمالٍ وجنوبٍ في بداية تشكُّلها، ونجحت عبر الحرب الأهلية في توحيد ولاياتها والقضاء على المحاولة الانفصالية. والشعب الفلسطيني كذلك واجه تحدي تغيير الهوية والاستيلاء على أرضه وطرد السكان واختار المقاومة، وهو لا يزال على مدار قرن من الزمان يرفض الاستسلام للتحدي المفروض عليه؛ وذلك على الرغم من نجاح القوى الغربية في إجلاء بعضٍ من السكان وتغيير هوية مساحة كبيرة من فلسطين وإعلان دولة الصهاينة. وهكذا الحال في أفغانستان والعراق؛ إذ يواصل الشعبان (الأفغاني والعراقي) تحديَ الاحتلال الذي فُرِض على بلديهما عبر الغزو الأمريكي المباشر.

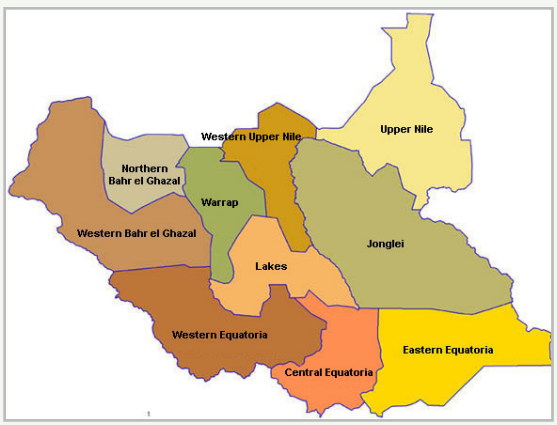

وفي مقابل ذلك فإن ثمة مجتمعات أخرى واجهت تحديات مشابهة بالاستكانة والخنوع وعدم مواجهة الخطر فانتهت وتغيرت أوضاعها، كما هو حال حضارة الهنود الحمر، وكذلك عملية تقسيم إندونيسيا بظهور دولة (تيمور الشرقية) النصرانية داخل جغرافيتها ومجتمعها، وإثيوبيا التي تحقَّق تقسيمُها بظهور دولة إريتريا... إلخ.

والآن يدخل السودان حالة من حالات الخيارات المصيرية؛ فإذا قَبِل التحدي المفروض عليه انتهى إلى وضع آخر، وإذا واجه التحدي يكون قد حسم خياره، وعاد إلى حالة المواجهة. ففي مواجهة التحدي المصيري يكون عامل الإرادة هو العامل المحدِّد لتطورات الأحداث؛ فماذا لو رفض السودان هذا التحدي؟

ثانياً: في الوضع الراهن يبدو المجتمع والدولة السودانية في وضع حرج؛ إذ يبدو أن السودان مقيَّد بضرورة إنفاذ اتفاق نيفاشا الذي تعهد نظام الحكم بمقتضاه بإعطاء الجنوبيين حق تقرير المصير، وهو يدرك أن عدم إنفاذ الاتفاق سيجلب

عليه ضغوطاً أشـــد مما يعانيه، وقـــد يصل الأمر حدّاً أكثر من اشتعال الحرب الأهلية؛ إذ ثمة سيناريوهات تتحدث عن احتمال إعلان الجنوب انفصالَه من طرف واحد بالاستفتاء أو غيره، وطَلَبِ دعم عسكري من عدة دول وهو ما قد ينجم عنه تعرُّض الســـودان إلى هجوم عسكري أمريكي بريطاني صهيوني، بشكل غير مباشر على رأي بعض المحللين ومباشر عند بعضهم الآخر.

وفي الجانب الآخر، فإن مخاطـــر انفصال الجنوب وإنفاذ الاتفاقية باتت تظهر على نحو مجسَّد، وهو ما ذهب بكل الحجج والمبـــررات التي جرى تداولها كثيراً خـــلال مرحلة إقرار اتفاق نيفاشا كأســـاس لقبول تقسيم الســـودان. وكان ثمة تصور أن توقيع الاتفاق ســـيوقف الضغوط الغربية على الســـودان، لكن مـــا حصل أنها تكثفت؛ إذ لم تكتفِ الولايات المتحدة باســـتمرار حصارها السياسي والاقتصادي للسودان، ولا باستمرار إدراجه على قائمة الدول الراعية للإرهاب، بل دفعت المحكمةَ الجنائية الدولية عبـــر مجلس الأمن الدولي، لتشـــويه ســـمعة الرئيس الســـوداني عمر البشـــير ومطاردته باتهامات الإبادة والتطهير العرقي. وكان متصوراً أنَّ توقيع هذا الاتفاق ســـيمنح السودان (مجتمعاً ودولة) مدة خمس ســـنوات من الهدوء والاســـتقرار، لكن تحركت الشـــياطين الأمريكية والصهيونية والغربية وحركة الجنوب الانفصالية لتفتح معركة في إقليم دارفور بهدف إنهاك المجتمع والدولة وإدارتهما بأزمة أشـــد خطراً حتى يأتي موعد انفصال الجنـــوب، فتكون في حالة من الضعف والاستســـلام. وكان متصوراً أن طمأنة الجنوبيين إلى مستقبلهم وإدماجهم في الحكم وإعطائهم نصيباً من الثروة النفطية أكبر من وزن الجنوب الســـكاني، قد يوقف دورهم التخريبي في الحياة السياســـية، فحدث العكـــس وصاروا ناصرين فـــي كل مواقفهم وتحركاتهم للغـــرب وضغوطه ومؤامراته على الســـودان من جهة، وداعمين لكل الحركات الانفصالية والتفتيتية في عموم الســـودان. وكان ثمة تقدير بأن مدة الســـنوات الخمـــس كافية لتغيير التوجهات الانفصالية بين النخب الجنوبية فظهر العكس؛ إذ صار الشـــغل الشـــاغل لتلك النخب هو تعميق حالة الانفصال على الصعيدين (الرســـمي والشعبي) وكســـب أنصار جدد لها في الإقليم وعلى الصعيـــد الدولـــي. وكان ثمـــة رؤية أن الأمـــور إذا وصلت حدَّ الاســـتفتاء والانفصال، فإن الشـــمال سيكســـب الراحه والبناء المستقر، في ما بقي من جغرافيةِ السودان ومجتمعِه، فتأكد الآن أن الانفصال ســـيأتي بدولة معادية على الحدود، تماثل الكيان الصهيوني في دوره وأهدافه؛ ســـواء في المذابح التي ســـتجري للمسلمين في الجنوب أو في الدور التفكيكي للسودان الباقي.

باختصـــار: لقد ظهر أن الانفصال ســـيكون كارثة، وأن الحرب التي توقفت لخمس سنوات في الجنوب اشتعلت في دارفور، وأن القادم المخطَّط له: أن تصبح دولة الجنوب نقطة انطلاق لإشعال الحرائق في كل أنحاء السودان.

ثالثاً: هل يجابه الســـودان هـــذا التحدي، ويقف الآن موقف الرافض والمقاوم؟ أم يستسلم لقَدَره فيتفكك انطلاقاً من الجنوب؟

في التقدير العام، يمكن القول بأن الرؤية العقلانية توجب الآن إعادة تقدير الموقف، والخروج سريعاً جداً من حالة التردد الراهنة. وفي ذلك يبدو الحساب والتقدير الإستراتيجي للبيئة الدولية والإقليمية والداخلية، قد تغير لمصلحة الســـودان الآن على خلاف الأوضاع التي أدت إلى توقيع الاتفاق.

ففـــي أثناء توقيع الاتفاق عـــام ٢٠٠٥م لم يكن العنصر الحاســـم في الضغط على الحكم في السودان للتوقيع على اتفـــاق جائر هو عامل القوة العســـكرية للمتمردين، بل على العكس من ذلك؛ إذ كان الجيش الســـوداني قد شارف على إنجـــاز مهمة تطهير أرض الجنوب من حالـــة التمرد. وكان

الضغط الدولي والإقليمي وحاجة الحكم للاستقرار والتنمية هي العوامل الحاسمة، حتى يمكننا القول بأن العنصر الإستراتيجي الحاسم لم يكن للتمرد نفسه وقوَّته دور فيه.

وكانت الولايات المتحدة في حالة الخيلاء بقوَّتها العسكرية، فغزت أفغانستان والعراق واحتلتهما، وصارت تهدد سوريا وليبيا والسودان بطبيعة الحال؛ حتى إن أطرافاً إقليمية نقلت للسودان وقائع محددة عن حشدٍ لقواتٍ على حدوده واستعدادها للعدوان عليه. وفي ذلك لم يكن الموقف الأوروبي ملحَقاً بالموقف الأمريكي فقط، بل أظهر استعداداً لفعل عدوان «منفرد» ضد السودان. وفي تلك المرحلة لم يكن للأطراف الدولية الأخرى عوامل قوة وتأثير في مواجهة القرارات الأمريكية.

وفي الوضع الإقليمي لم يكن التأثير الأمريكي قوياً فقط في ضغطه على قرارات دول الإقليم، بل كان الوضع الإقليمي نفسه في حالة تعبئة ضد الحكم في السودان؛ إذ كانت العلاقات السودانية مع مختلف الدول في وضع كان الأسوأ فعلياً.

أما الأوضاع الداخلية السودانية، فكانت في وضع الخطر، بسبب انتقالية الحكم في السودان بعد انشقاق الحركة الإسلامية الحاكمة وخروج الترابي من الحكم وتشكيله حزب المؤتمر الشعبي المعارض لحزب المؤتمر الوطني الذي مثَّل الحكم في الحركة السياسية. وكذا لأن أطراف المعادلة السياسية في مركز الحكم (أو الأحزاب الشمالية حسب وصف كثير من المحللين) كانت في بداية العودة لمباشرة حقوقها السياسية بعد مرحلة كانت قد تحالفت فيها مع حركة التمرد الانفصالية في الجنوب. وعلى الصعيد الاقتصادي والتنموي كان السودان في بداية الخروج من حالة الارتباك الاقتصادي التي كان يعيشها بفعل الحصار الدولي عليه، إلى حالة التنمية، استناداً إلى عائدات البترول.

في ظل تلك المعطيات، قَبِل الحكم في السودان التوقيع على اتفاقية نيفاشا، وَفْقَ آمالٍ تبددت جميعها بفعل استمرار الضغط الأمريكي والغربي، وعمق الفكرة الانفصالية داخل النخب الجنوبية، وحالة الاضطراب في داخل مركز الدولة.

رابعاً: مرت مرحلة إنفاذ اتفاقية نيفاشا بحالة صراع عميقة، كان الوصف الأدق لها: أن الغرب صار يصارع الحكم داخل السودان باستخدام الشريك الجنوبي في الحكم، مع تكثيف عوامل الضغط من الخارج. وتمثلت عوامل الضغط والإرباك من الخارج باستخدام وسائل القوة الناعمة من خلال الإبقاء على العقوبات وفتح ملف دارفور في مجلس الأمن الدولي وفتح معركة ضد الرئيس البشير، أو ضد موقع الرئاسة المهيمن في النظام السياسي السوداني؛ إذ الرئيس هو رئيس الحزب الحاكم ورئيس الوزراء والقائد الأعلى للقوات المسلحة، وهو رمز الوطن السوداني، فإذا جُرِّم أو أطيح به، تحققت خطوة في تفكيك هذا البلد.

وفي الضغط من الداخل جرى تعظيم قوة حركات التمرد في دارفور وتضخيمها، والتدخل في لعبة الأطراف الداخلية

لحشدها في مواجهة الحكم. وتحويل معركة المحكمة الجنائية الدولية إلى معركة داخلية في السودان. وكان الأمر الأشد

بروزاً هو التحول بالعلاقات السياسية مع السلطات الجنوبية إلى طابع العلاقات بين الدول، والتشديد على الاستعداد للاعتراف الدولي بدولة الجنوب فور انفصالها. وكان المشهد الختامي في تلك المرحلة من الصراع هو مشهد الانتخابات الرئاسية والبرلمانية؛ حيث مارست خلاله الولايات المتحدة والغرب أكثف الضغوط على الحكم في السودان، وإن كان الحرص بادياً على اتمام الانتخابات لأهداف عديدة أهمها: إنجاز الخطوة الأخيرة لما قبل استفتاء الانفصال، وتثبيت تمثيل الحركة الانفصالية لأبناء الجنوب.

خامساً: لقد تغير الوضع الآن لمصلحة السودان، إذا قارناه بما كان عليه وقت توقيع اتفاقية نيفاشا؛ فالولايات المتحدة والغرب لم تعد لهم درجة الهيمنة ذاتها على القرار الدولي – على الأقل – بسبب الأزمة المالية والاقتصادية التي ضربت الاقتصاد الغربي، كما أن الولايات المتحدة قد تعمقت حالة تدهورِ أوضاعها السياسية والعسكرية بسبب تورطها في حربَي أفغانستان والعراق، وفي عشرات الأزمات المتفاعلة في المنطقة والعالم، ومعظمها صراعات تهدد باندلاع حروب. كما أن دولاً أخرى ظهرت بتأثيرها على ساحة القرار الدولي، وهو ما يضعف القدرة الأمريكية والغربية والصهيونية عن حالة التصرف الانفرادي السابقة.

أما في الوضع الإقليمي، فقد تغيرت أوضاع الحكم في السودان ولم يعد على حالة الحصار السابقة؛ فإريتريا تغيرت مواقفها من السودان وانقلبت من عداءٍ للحكم في السودان إلى موقف الداعم، وإثيوبيا في حالة اشتباك في الصومال وفي الداخل ومع إريتريا، وكذا أوغندا باتت تشعر بتهديد بعد التفجيرات في داخلها، وتشاد صارت حليفاً للسودان بفعل تبادل طرد الحركات المتمردة من كِلا البلدين وكان كلاهما مصدر تعزيز لحركات التمرد ضد الآخر. والعلاقات المصرية مختلفة عن أوضاع ما بعد محاولة اغتيال الرئيس مبارك في العاصمة الإثيوبية (أديس أبابا).

وأما على الصعيد الداخلي في السودان فقد تغيرت الأوضاع الاقتصادية خلال السنوات الخمس وتحسنت أوضاع تسليح الجيش السوداني بعد دخول السودان مجال إنتاج الأسلحه. والأوضاع في دارفور تغيرت على الأرض فعلياً لمصلحة الحكم في السودان، بسبب قطع الدعم التشادي عن المتمردين وطردهم من الأراضي التشادية، ولإجراء انتخابات تشريعية عينت ممثلين لأهالي دارفور في مؤسسات الحكومة، وهو ما نزع الشرعية عن حركات التمرد، وبسبب توقيع بعض

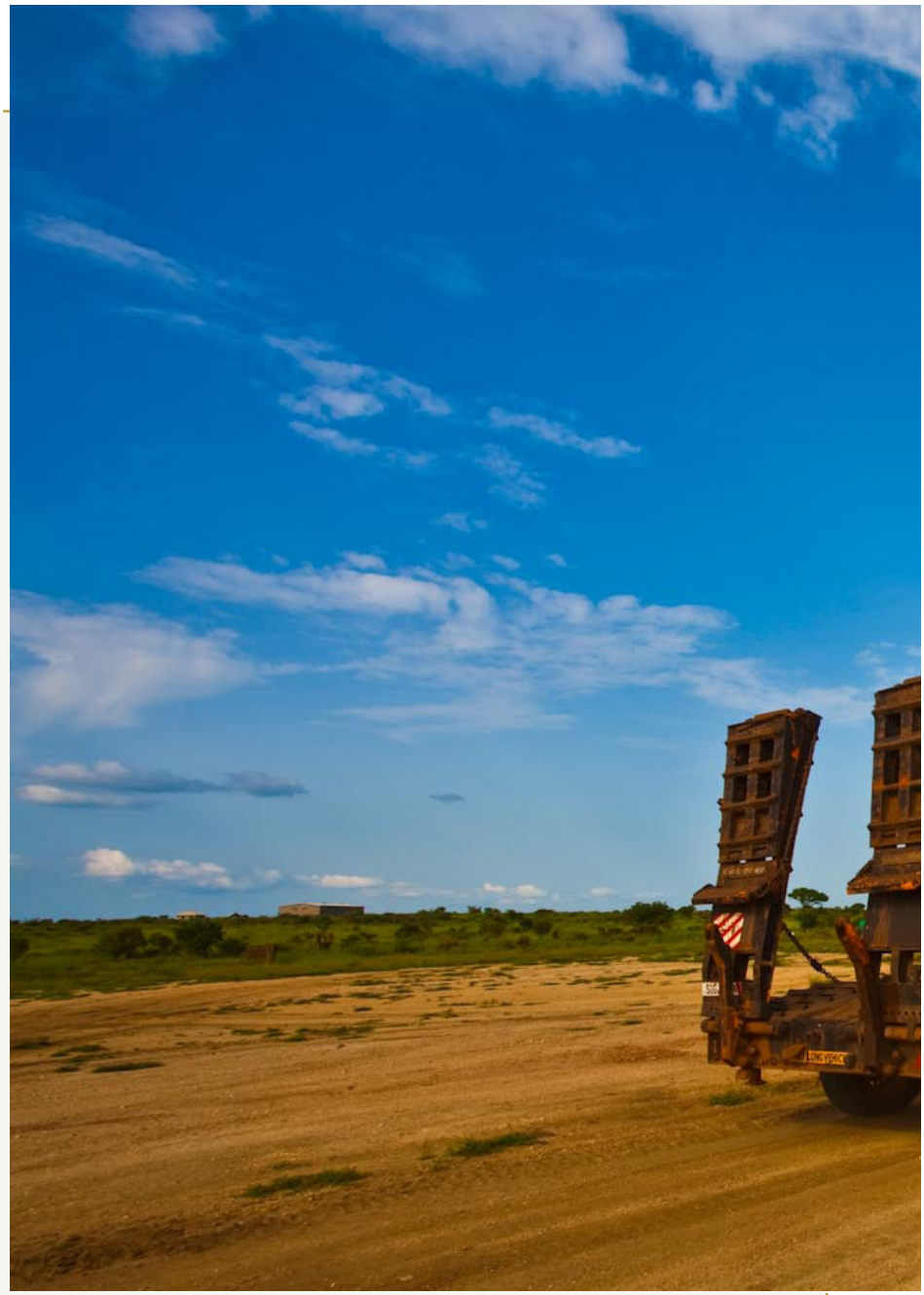

الاتفاقيـــات مع بعض الحركات أيضاً، وهـــو ما أدى إلى عزل الأخريات وأضعف نفوذها ودورها. والأهم من ذلك أن الوضع الشـــعبي صار رافضاً بشـــكل كبير لقضية التقسيم، وتفكيك السودان، ويشعر بالخطر الجدي على مستقبل السودان.

لقد تغير كثير من المعطيـــات التي فرضت التوقيع على اتفاقية نيفاشـــا، وإن كان طرف الحركة الشعبية الانفصالية قد حصل بالمقابل على دعم تسليحي بفعل موارد النفط، كما حققت الانتخابات لها شـــرعية في الحكم وتمثيلَ مواطني الجنـــوب، إلا أن الأوضـــاع في الجنوب شـــهدت تنامياً في حالات الصراع القبلي والسياسي ضد هذه الحركة، وصلت حدَّ الأعمال العسكرية على نحو مؤثر.

سادساً: إذا أقر الحكم والقوى الرئيسة التي تمثل عصب المجتمع وتشكِّل العقل الجمعي للقرار الإستراتيجي في مواجهة التحدي كما تشي بعض مؤشرات الحركة في الآونة الأخيرة، فإن الأمر يتطلب عملاً عاجلاً، لتحقيق أوسع حالة إجماع داخلي ممكنة ضد انفصال الجنوب، باعتباره خطراً داهماً على السودان كله، على أن يشمل التحرك قوى جنوبية وشمالية، تحت شعارات إنقاذ السودان ومنع الجنوب من الانزلاق إلى فتنة تدمِّره وترتكب فيها المذابح.

ولذلـــك يبدو أنه من المهـــم، أن يجري إطلاق حركات شـــعبية خـــارج الأطر التقليدية، تتحرك لبلورة مواقف شعبية واضحـــة رافضة للانفصـــال، مع بقاء الحكم (إعلامياً وسياســـياً) في موقع الضابـــط لإيقاع وحدة البـــلاد إعمالاً لمهامه الدســـتورية. كمـــا يتطلب الأمر تحركاً مكثفـــاً لتعبئة المواقف الإقليمية وحشـــدها ضد الحركـــة الانفصالية، وإخـــراج المواقف الرســـمية من حالة «الـــكلام المكتـــوم» إلى حالـــة الرفض السياسي والإعلامي المباشر. ولتحقيق حالة من توفير الجهـــد والقوة وتوجيه القدر الأعظم منها للضغط على الطرف الأخطر في المرحلة الحـالية، ينبغي حســـم معركة دارفور بأسـرع ما يمكن عبر صياغات تضع خطر انفصال الجنـــوب أولوية. وكذا ينبغي وضع خطة إعلاميـــة مكثفة، لإنهاء الفجـــوة المعرفية لدى الرأي العام العربي والإسلامي والدولي حول قضايا دارفور والجنـــوب، والتحول نحو هجوم إعلامـــي مضاد لتحركات الإعلام الغربي على الأقل في الساحة العربية.

والقصد أن ثمة ضرورة لخطة تحرُّك عاجلٍ، ينتقل بالسودان من الموقف الدفاعي الذي ساد لمرحلة طويلة مضت إلى الموقف الهجومي؛ فلم يعد هناك وقت.

جريمة التدمير الشامل في العراق

(حجم الكارثة البيئية لجريمة غزو العراق)

د. أكرم المشهداني

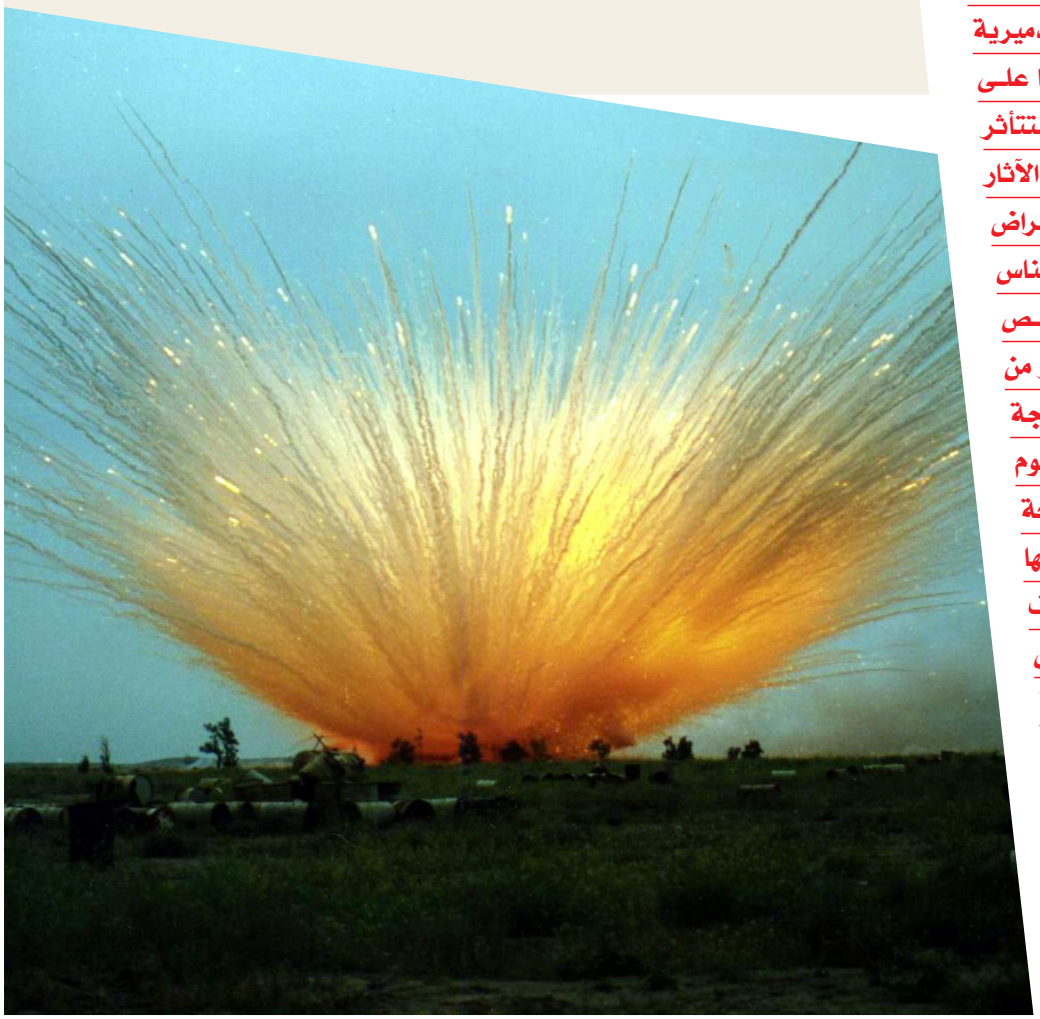

تتكشف يومياً أسرارٌ ومعلوماتٌ عن حجم الدمار والتخريب الذي لحق بيئة العراق، نتيجة جريمة الغزو الأمريكي له، وهذه الآثار التدميرية لن يقتصر مداها وضررها على البيئة العراقية فحسب، بل ستتأثر بيئة المنطقة عموماً بفعل الآثار الكارثية للجريمة؛ فالأمراض الفتاكة بدأت تنتشر بين الناس في المدن العراقية، وبالأخص المدن التي نالها قسط أكبر من أسلحة الفتك والدمار: كالفلوجة والقائم وسامراء والبصرة وعموم مدن العراق من جراء الأسلحة المُحرَّمة دولياً التي استخدمتها القوات الغازية، ورميها آلاف الأطنان من الفسفور الأبيض واليورانيوم المُنضَّب والأسلحة المشعة، وهذه الأسلحة الفتاكة بدأت آثارها تظهر على أجيال من الولادات المشوهة، وارتفاع نسبة الإصابة بمرض السرطان بين العراقيين وبخاصة الأطفال والنساء.

ومشكلة العراق اليوم في ظل الاحتلال والغزو، لا تتمثل فقط في الدمار والخراب وتدمير بنيته التحتية وتهجير الملايين من أفراده؛ بل إن المشكلة الأخطر تأتي من التلوث البيئي الشديد نتيجة استخدام الغزاة أسلحة محرمة دولياً، فضلاً عن تلويث البيئة بالنفايات الخطرة التي زادت نسبتها في العراق عن الحدود العالمية المسموح بها كثيراً وهو ما سيؤدي إلى آثار صحية سلبية خطيرة ستستمر على مدى مئات السنين القادمة على أجيال العراق.

وقد أصدرت المنظمة الدولية للبيئة جملة تقارير تشير الى أن المدن العراقية قد تحوَّلت إلى (مكبَّات) للنفايات الخطرة الناتجة عن الفعاليات الحربية لقوات الاحتلال، ونظراً للإهمال والظروف الحربية المسيطرة لا يمكن إزالة هذه النفايات وترحيلها وحتى لو تم ترحيلها فإن آثارها السلبية الخطيرة لا يمكن إزالتها وفي مقدمة هذه النفايات الخطرة الزئبق والرصاص والكادميون والزنك والنحاس وهي كلها معادن ذات تأثير سام على الأنسجة وتتسرب إلى مياه الأنهار فتلوثها وتُحدِث ضرراً كبيراً للكائنات الحية التي تعيش فيها.

وكانت صحيفة (التايمز) البريطانية نشرت تقريراً عن شركات خاصة مهمتها إعادة تدوير النفايات، تعمل داخل القواعد الأمريكية عمدت إلى خلطها بخردة العامة وتمريرها إلى التجار المحليين. وأفاد التقرير أن القوات ستخلِّف نحو ١٠ ملايين كيلو غراماً من النفايات الخطرة في العراق، كما تعمل حالياً للتخلص من ١٤.٥٠٠ طن من النفط والتربة الملوثة. وأشار التقرير إلى أن الجانب الأميركي يتخلص من المواد السامة التي يمتلكها من طريق طمرها في مواقع محلية بدلاً من إرسالها إلى الولايات المتحدة، وهو ما يشكل خرقاً واضحاً للقواعد التي أرستها وزارة الدفاع الأميركية.

وهكذا يبدو أن الجيش الأمريكي حينما سيغادر العراق، فإنه لن يخلِّف وراءه سبعة أعوام من الحرب فحسب، بكل كميات هائلة من النفايات السامة، هي مخلفات أكثر من ١٧٠ ألف جندي أمريكي في ٥٠٠ قاعدة عسكرية انتشرت بكافة أنحاء العراق إبان ذروة الحرب. ويبلغ عدد المخلفات السامة التي كشف عنها تحقيق أجرته صحيفة (التايمز) البريطانية، نحو ١١ مليون رطل، تسببت بتفشي أمراض وأضرار بيئية خطيرة.

وقد كشفت شبكة «سكاي نيوز» التلفزيونية البريطانية مؤخراً النقاب عن فضيحة جديدة تتعلق باستخدام القوات الأمريكية أسلحة محرَّمة دولية ضد المدنيين أثناء تنفيذها لعملية عسكرية ضخمة في مدينة الفلوجة عام ٢٠٠٤م، وأوضح التقرير أن تحقيقاً صحفياً أظهر تزايد عدد الأطفال الذين يولدون مشوهين، في إشارة إلى مدى تدهور الوضع الصحي الذي عاشته الفلوجة في أعقاب انتهاء العملية العسكرية الأمريكية. ونقلت عن جيف انجلهارت، وهو جندي في فرقة المشاة الأمريكية الأولى بالعراق قوله: (أعرف أن الفوسفور الأبيض قد استخدم بالفعل وأنا شاهدت جثثاً محترقة، وأطفالاً محترقين ونساء محترقات)، وأكد أن الفوسفور الأبيض يقتل بلا تمييز. ونقلت «سكاي نيوز» عن سكان الفلوجة رغبتهم فتح تحقيق مستقل حول الأضرار التي سببها استخدام الأسلحة

الكيميائية، ومن بينها الفوسفور الأبيض.

ويقوم الصليب الأحمر الدولي حالياً بإجراء تحقيق في تشوهات مواليد العراق إثر الإجراءات القضائية التي بدأتها عائلات عراقية ضد الوزارة بشأن دور الجيش البريطاني في الهجوم على الفلوجة واستخدامه أسلحة كيماوية تسببت في تشوهات المواليد؛ حيث تزايدت أعداد المواليد المشوهة على مدار سبع سنوات منذ غزو العراق إثر استخدام القوات البريطانية والأميركية أسلحة ممنوعة دولياً. ويتهم أهالي الأطفال الحكومة البريطانية بخرق القانون الدولي وارتكاب جرائمَ حرب وعدم التدخل لمنعها. وبعث المحامون الذين يتابعون قضايا العائلات العراقية، برسائل إلى وزارة الدفاع البريطانية يطالبون فيها بالكشف عن دور الجيش البريطاني في الهجوم، والكشف عن وجود أسلحة ممنوعة.

وكانت صحيفة (التايمز) البريطانية قد كشفت أن غازات الأعصاب هي السبب وراء ارتفاع نسبة الإصابات بمرض اللوكيميا (سرطان الدم) لدى الأطفال في العراق، وذكرت الصحيفة أن معدلات إصابة أطفال محافظة البصرة، ثاني أكبر مدينة عراقية والميناء الوحيد ومركز الثروة النفطية، تضاعفت ثلاث مرات خلال السنوات السبع الأخيرة حسب

تقديرات خبـــراء الصحة. وفي بحث متخصص نشـــر في مجلة الصحة العامة الأمريكية أشار إلى أن هناك ٦٩٨ حالة سرطان دم بين الأطفال تحت سن ١٥ عاماً حتى عام ٢٠٠٧م، وفي عام ٢٠٠٦م سُـــجِّل منها ٢١١ حالـــة كلها في البصرة بأقصى جنوب العراق. واستنتج البحث أن هناك زيادةً نسبتها ٨.٥ فـــي المئة فـــي الإصابات بين كل مئـــة ألف طفل خلال الفترة نفسها، وهي تزيد عن ضعف نسبة الإصابات بسرطان الدم فـــي الاتحاد الأوروبي. ووجـــد الباحثون أن ٦٩٨ حالة إصابـــة باللوكيميا موثقة في المحافظة من بين الأطفال تحت ســـن ١٥ خلال المدة بين عامي ٢٠٠٣م و ٢٠٠٧م. وقد سُجِّل أعلى عدد من الإصابـــات في عام ٢٠٠٦م؛ حيث بلغت ٢١١ إصابة. وتشـــير مصادر إلى أن ما اســـتعمل على العراق من قذائف وإطلاق اليورانيوم المنضب خلال ســـتة أسابيع قارب ٩٤٠.٠٠٠ إطلاقـــة عيار ٣٠ ملـــم و ١٤.٠٠٠ قذيفة مدفع ودبابة من مختلفة العيارات، وهو ما يقارب ٣٠٠ طن.

وكان تقريـــر بثته قناة CNN مؤخراً قـــد تناول تزايد الولادات المشوهة في العراق. ويقول بعض المسؤولين: إن آثار الغزو الذي قادته الولايات المتحدة عام ٢٠٠٣م – إلى جانب عدم وجود ضوابط حكومية كافية على الانبعاثات والمخلفات الصناعية – قـــد حولت جميعُها العراق إلى أحد أكثر بلدان العالم تلوثاً. وتحدث مسؤولون عن تلوث الماء والهواء والتربة الناجم عن مخلفات الحرب والقصـــف باليورانيوم المنضب بالإضافـــة إلى انبعاثات الســـيارات والمولـــدات الكهربائية في المناطق المزدحمة واســـتخدام الأســـمدة الكيميائية دون تخطيط. وكانت قوات التحالف التي تقودها الولايات المتحدة قد استخدمت اليورانيوم المنضب كمكون أساسي في قذائف الدبابات الخارقة للدروع في حربي ١٩٩١م و ٢٠٠٣م.

ومن المؤسف أن العراق اليوم يقف في مجال التلوث في المرتبة الأولى في العالم؟ بسبب المصائب والرزايا التي نالها العراق من الحروب فقد ضربت القوات الأمريكية الدبابات العراقية بالقذائف المحملة بـ (اليورانيوم المستنزف) لاختراق دروع الدبابـــات فلوث اليورانيوم المســـتنزف حقول البصرة خاصة مـــزارع التمور العراقية. كما تلوثت تربة وهواء ومياه منطقة الخليج بما فيها البصرة.

وكان التلـــوث الأكبـــر قد حصـــل بعد غزو العـــراق ٢٠٠٣م من خلال تلـــوث مناطق جنوب بغداد عندما ســـرق جناة أغبياء مقـــرَّ ومخازن منظمة الطاقـــة النووية العراقية فـــي الزعفرانية واستخدموا البراميل في حفظ المياه، وليس هناك من دراسة طبية في رصد ما حدث؛ إذ لم يبق في العراق مؤسسات علمية لاستقراء ما حل في العراق من تلوثات هائلة على مدى الســـنوات السابقة، ومن المؤسف أن حكومة المالكي لم تنتبه ولم تهتم بالأمر وكأن الأمر لا يعنيهـــا؛ لذلك لم نلمس أي تحرُّك من وزارة البيئة حتى صدور تقرير التايمز البريطانية الذي كشـــف الفضيحة، وكشف تقاعُس المســـؤولين العراقيين عن التدخل لحماية صحة المواطن العراقي وحماية البيئة العراقية. بل إن فضيحة تقرير (الغارديان) البريطانية يوم الخميس الماضي من أن أن شـــركة (أوكتيل) البريطانية قدمت رشاً لمســـؤولين عراقيين للاستمرار في شراء الوقود السام مقابل أن يتغاضوا عن تأثير ذلك على صحة الأطفال. وإن هناك توقعات بتسليم مدير الشركة البريطانية بول غينينس إلى الولايات المتحدة ليحاكَم بتهمة تقديم رشـــاً بملايين الدولارات لمســـؤولين عراقيين حتى يتغاضوا عن الآثـــار الخطيرة على صحة الأطفال العراقيين ويستمروا في شراء مواد سامة، تُستخدَم في إنتاج وقود السيارات. وأشـــارت الصحيفة إلى أن غينينس ومســـاعده دينس كيريسون صدَّرا أطناناً من الرصـــاص رباعي الإيتيل إلى العراق وهي مادة محظورة دولياً لكونها تصيب الأطفـــال بضرر في الدماغ. وكانت الشركة التي غيرت اسمها من (أوكتيل) إلى (إينوسبيك) قد أقرت مؤخراً بأن مسؤولين فيها قدموا رشاً بملايين الدولارات لمسؤولين في العراق في ســـبيل زيادة الأرباح للاستمرار في استخدام المادة المذكورة رغم عواقبها الصحية على الأطفال.

وتشـــير الدراسات إلى أن اســـتخدام الأسلحة المحرمة في العراق قد أثر في (أجنَّة النســـاء) الحوامل اللواتي استنشـــقن الغبار حتى لو كان هذا الاستنشـــاق من مســـافة عشرات الكيلو مترات من موقع الإطلاق. وأفـــاد أحدث تقرير طبي صادر عن وزارة الصحة بأن نحواً من ٦٤ ألف شـــخص أصيبوا بالسرطان خلال السنوات الخمس الماضية، وجاء في التقرير الذي أُعدَّ من قِبَل ســـتة من المتخصصين بأمراض السرطان أن (الإحصائيات المتوافرة في المحافظات العراقية، تؤكد إصابة ٦٣٩٢٣ شـــخصاً بالســـرطان خلال الســـنوات الخمس الماضية، منهم ٣٢٢٨١ من الذكور و ٣١٥٥٢ من الإناث، تعرَّض أغلبهم إلى الموت، ويشـــكل الأطفال والنساء النسبة الأكبر من المصابين.

تُرَى متى ســـيحاكَم المجرمون الحقيقيون المسؤولون عن هذه الكوارث البيئة في العراق؟

مجلة

البيان

www.albayan-magazine.com

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

bayan@albayan.co.uk

Badr: 0508948947

ثنائية التعليم في نيجيريا... اتجاهات وتطلعات

د. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن(*)

للغة العربية أهمية كبيرة في غرب إفريقيا، ولها تاريخ قديم في المنطقة(١)، وقد توسعت الثقافة العربية بعد أن أصبحت غانا، دولة إسلامية، وبعد سقوط غانا واختفائها، بدأت مملكة مالي، تلعب الأدوار التي كانت تلعبها مملكة غانا الإسلامية سابقاً. ولمدينة تمبكتو، ومسجد سنكوري، فضل عظيم في بث الثقافة العربية الإسلامية. وفي مسجد سنكوري تخرَّج عدد لا يستهان به من العلماء المحليين؛ لأنه بمثابة جامعة الأزهر بمصر(٢).

والحقيقة أن اللغة العربية انتشـــرت في غرب إفريقيا مع انتشار الإسلام فيها، وتأسست الممالك والدول التي اشترك فيها العرب والعجم في غانا، ومالي، وسنغى، وبرنو. واعتنى الملوك والأمراء بشأن التعليم، واستعانوا بالعلماء في فهم أمور الدين، وتطبيق الشريعة، فاضطر العلماء إلى التعمق في قواعد اللغة وآدابها، وفي أصول الشريعة وفروعها، فقصدوا بلاد العرب المجاورة لهم للاستفادة، واستقدموا إلى بلادهم العلماء العرب، لنشر العلوم بينهم، حتى نبغ الكثيرون، فألَّفوا الكتب، وقالو ا الأشعار في الأغراض التي تناسب بيئتهم(٣).

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ولاية كوغي، نيجيريا.

(١) عبد الرحيم عيسى الأولد الكشاف في الأدب العربي للمدارس الثانوية بغرب إفريقيا (لاغوس: مطبعة فاتا برم، ط١، ١٩٩٩م)، ص١٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٦.

(٣) آدم عبد الله الإلوري، لباب الأدب، قسم الشعر، (لاغوس: مطبعة الثقافة الإسلامية، أغيغي، ط٢، ١٩٨٠م)، ص٥٢.

المدارس العربية الحديثة:

المدارس العربية الحديثة عبارة عن الإصلاحات الجديدة التي ظهرت في أساليب التعليم العربي الإسلامي النيجيري، وقد عُرفَت المدارس العربية الحديثة في نيجيريا في أوائل القرن العشرين[١]، وأول مدرسة مبنية خاصة للتعليم العربي على النظام الحديث، هي مدرسة الشريعة الإسلامية التي تعاون أمراء شمال نيجيريا على تأسيسها، عام ١٩٣٤م، في مدينة كنو بقصد تخريج القضاة الشرعيين. وانتُدِب للتدريس فيها علماء من كلية غوردون بالخرطوم، وأنجبت المدرسة النواة الأولى للطبقة المثقفة بالثقافتين (العربية والإنجليزية) في شمال نيجيريا[٢].

فهذه المدارس جرى تأسيسها على أيدي أفراد وجماعات من المسلمين الغيورين على دينهم؛ لنشر التعليم العربي الإسلامي، وحماية الإسلام والذود عن مصالحه، ولتوعية أبناء المسلمين توعية ثقافية إسلامية تقيهم من آفة الشرك التي عمت البلاد، ومن فتنة الإلحاد[٣]. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المدارس، يجري تمويلها عن طريق جهود ذاتية، وتبرعات تُجمَع من الأفراد المحسنين، ومن الأثرياء الصالحين، ويقوم بالتدريس فيها المدرسون المحليون من خريجي هذه المدارس ذاتها، ومن حَمَلة الشهادات الجامعية من الأقطار العربية، والجامعات النيجيرية، ويشاركهم في التدريس، المبعوثون الأزهريون[٤].

ولهذه المدارس، فضل عظيم في تثقيف المسلمين، وفي إرشاد أبنائهم إلى سواء السبيل؛ فعن طريقها، ينجح بعض المتعلمين باجتياز جميع المراحل التعليمية، بل تمثل الأساس الصلب الذي يبني عليه خريجوها ما بقي لهم من حياتهم الدراسية والثقافية.

ولها الفضل في إنتاج الأئمة والقادة، والزعماء، والعلماء، والقضاة، والوزراء، والمحاضرين، وأساتذة الجامعات، والدعاة الكبار، ورجال السلك الدبلوماسي، وغيرهم من الأعلام، والفحول الراسخين في العلم. ومن مزاياها، أنها تغذي المعاهد العليا بالطلاب المتخصصين في اللغة العربية، والدراسات الإسلامية والشريعة؛ إذ إن أقسام اللغة العربية والإسلامية في جامعات نيجيريا تعتمد أساساً على خريجي هذه المدارس العربية الخاصة في تنفيذ برامجها الأكاديمية[٥].

ومن أشهر المدارس النظامية في نيجيريا، مركز التعليم العربي الإسلامي في لوكوجا (عاصمة ولاية كوغي)، لفضيلة الشيخ يوسف عبد الله اللكوجي، ومركز التعليم العربي الإسلامي بأغيغي، لاغوس، عاصمة نيجيريا القديمة، لفضيلة الشيخ آدم عبد الله الإلوري، والزمرة الأدبية الكمالية بمدينة إلورن، ولاية كوارا، لفضيلة الشيخ كمال الدين الأدبي وغيرها في أنحاء نيجيريا.

الاستعمار البريطاني وأثره في التعليم العربي:

بدأ الاستعمار البريطاني لجزء من أراضي نيجيريا سنة ١٨٦١م عندما احتل الإنجليز مدينة لاغوس، التي أصبحت فيما بعد عاصمة نيجيريا. وأرغموا ملكها على توقيع معاهدات بينه وبينهم، ثم أصبحوا يتغلغون في هذه البلاد إلى أن سيطروا عليها كلها. فتم الاستيلاء سنة ١٩٠٠م على المناطق الجنوبية التي سموها محمية نيجيريا الجنوبية، ثم تم لهم الاستيلاء في سنة ١٩٠٣م على المناطق الشمالية، وسموها محمية نيجيريا الشمالية[٦]. على أن التعليم التنصيري كان قد بدأ يتسرب إلى جنوب نيجيريا منذ وقت مبكر على أيدي المنصرين الأوروبيين. ولم يتغير الوضع بعد دخول المستعمرين؛ فقد تركوا شؤون التعليم بأيدي الإرساليات، والطوائف الدينية. واستمر الأمر كذلك نحو نصف قرن بعد الاحتلال، ولم تحرك الحكومة النيجيرية المستعمَرة ساكناً نحو التعليم، ولا أصدرت الحكومة البريطانية المستعمِرة بياناً عن خططها حول سياستها التعليمية في البلاد.

لقد كانت المدارس التنصيرية تنمو وتتسع في جنوب نيجيريا في تلك الحقبة في حين لم تكن في الشمال أية حركة تعليمية تنصيرية. وظل الأمر كذلك حتى بعد الاحتلال البريطاني، وظل المنصرون سنين يحاولون تنصير المسلمين ولكن بدون جدوى. وإن كانت البذور الأولى للتعليم الغربي تصطبغ بصبغة دينية بحتة في شمال نيجيريا بين المسلمين، ولكن المسلمين، تحاشوه في السنين الأولى بعد دخول المستعمرين. ولقد كانت الحركات التنصيرية ناجحة في الجنوب، ولم تكن كذلك في الشمال لأسباب، منها:

١ - كون الثقافة الغربية ثقافة نصرانية صرفة، فلذلك كرهها المسلمون، ولم يروا فيها إلا حيلة لتغيير دينهم وثقافتهم الإسلامية.

٢ - أن تلك الثقافة بأيدي المنصرين الذين كان غرضهُم الأساسي نشرَ الدين النصراني لا التعليم، ووقف التيار الإسلامي، ووضع العقبات والحواجز دون انتشاره وازدهاره.

٣ - أن المسلمين يعتزون بثقافتهم التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم، ولم يروا مبرراً لتركها والأخذ بثقافة أجنبية كان يحملها المستعمرون ومساعدوهم.

---

(١) آدم عبد الله الإلوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني، (ط٣، ١٩٧٨م)، ص١٥٢.

(٢) الإلوري، ص١٥٢.

(٣) عبد الغني عبد السلام أولادشو
An unfamiliar guest in a familiar honshold. Lagos
(مطابع ديبو، العدد الأول، ٢٠٠٣م) ص١٨٠

(٤) أولادشو، ص١٨١.

(٥) أولادشو، ص ١٩١ - ١٨٢.

(٦) شيخو أحمد غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا (الرياض: شركة العبيكان للطبع والنشر، ط٢، ١٩٩٣م)، ص٧٥.

٤ – أن المسلمين – بطبيعة الحال – لا يريدون إرسال أطفالهم إلى مدرسة داخلية بعيدة عنهم وتحت رعاية قوم لا يثقون بهم.

٥ – أن المستعمرين أنفسهم لا يشجعون المنصرين على الدخول في أراضي المسلمين؛ لأنهم كانوا يخافون من إثارة مشاعر المسلمين، ولم تكن لديهم آنذاك ذاك إمكانيات كافية لقمع أية ثورة أهلية لو انضم الأهالي كلهم ضدهم[١].

٦ – أن الشعب النيجيري في الأقاليم الشمالية، شعب مسلم يعتز بإسلامه وباللغة العربية؛ لأنها لغة الدين، ومن ثَمَّ كان لا بد للمهتمين بالدين من معرفة اللغة العربية لكي يفهموا بها أمور دينهم، فحافظوا على معاهدهم الخاصة عبر القرون[٢].

٧ – أن السلف من هذه الأمة كانوا على درجة عظيمة من معرفة اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وكانت تحدوهم إلى تعلُّمها الرغبة الصادقة في أن تظل هذه اللغة قوية معروفة في هذه البلاد (نيجيريا)، ومن هنا اهتموا بإرسال أبنائهم إلى جامعات مصر والمغرب وتونس والمدينة المنورة وجامعات أخرى في الغرب، فعادوا يحملون هذه الأمانة بجد وإخلاص، لنشر اللغة العربية في أوساط الناس[٣].

٨ – إدراك الحكومات الحديثة (فيدرالية، وولائية، ومحلية) في الولايات الشمالية ما للغة العربية من أهمية باعتبارها لغة الدين، فأدخلوها في مناهج التعليم الحديث، واعتبروها أساسية لا مفر منها.

لقد فشلت المحاولة الأولى لنشر التعليم الغربي في الشمال، لهذه الأسباب ولغيرها. وأما في الجنوب، فلم تكن هناك أية مقاومة ضد التعليم الغربي لعدم وجود ثقافة إسلامية راقية آنذاك؛ لذلك كثرت المدارس التنصيرية والكنائس، وفُتِحَت المعاهد اللاهوتية لتدريب رجال الدين النصارى من المواطنين الذين قاموا بدورهم ينشرون الدين النصراني والتعليم الغربي لأبناء وطنهم.

ثنائية التعليم في نيجيريا:

لا شك، أن حالة مسلمي غرب إفريقيا تقتضي تقسيم التعليم لهم إلى نوعين اثنين، هما: التعليم المدني، والتعليم الإسلامي. وإن كان العرب لا يحبذون هذه الثنائية بالنسبة لهم، إلا أنها فيما يتعلق بغرب إفريقيا ضرورية حتمية[٤].

أما التعليم المدني: فينبع من المدارس الإنكليزية التي تثقف المواطنين، وتؤهلهم للوظائف الرسمية، والمناصب المدنية، وهو بمنزلة الفرض العيني على كل مسلم كإنسان مواطن، وإلى جانب ذلك، يتعلم مبادىء دينه الضرورية، فيكتفي بها في خاصة نفسه.

أما التعليم الديني فيؤخذ من المدارس العربية، والمعاهد الإسلامية التي تخرِّج المتخصصين، وتؤهلهم للمناصب الدينية، وهو بمنزلة الفرض الكفائي، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وعلى من قام به أن يتعلم مبادىء علوم دنياه الضرورية، فيكتفي بها.

يجب تقسيم التعليم إلى النوعين المذكورين في نيجيريا، مراعاة لمقتضى الحال ثم الاهتمام بالتعليم الإسلامي حتى لا يطغى عليه التعليم الغربي، وإلا، فلن يمضي قرن واحد من الزمان حتى ينقرض في نيجيريا من يحمل المسؤولية الإسلامية عن بصيرة وجدارة، فيخلو الجو للذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، فتكون الطامة الكبرى.

واجب المسلمين في تعليم الدين الإسلامي:

إن مما يدعو إلى الدهشة والاستغراب أن يعتمد المسلمون في بعض البلاد على الحكومة غير الدينية أو الحكومة النصرانية في نشر الثقافة العربية، وتعليم القرآن، وإصلاح مناهج الكتاتيب، والحكومة هي التي أودت بها[٥] ولله در القائل:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بيَ
والذي أصابني من طبيبيَ؟

فمن واجب الجمعيات الخيرية، والمنظمات الإسلامية، في كل بلد أن يقوموا بإنشاء مدارس خاصة لتعليم أبنائهم القرآن، والدين الإسلامي، واللغة العربية على نمط الكتاتيب القديمة بأسلوب يتفق مع روح العصر الحاضر، وهو حق يملكه كل مسلم في كل وطن إسلامي وغير إسلامي.

فإن التعليم الغربي يطغى كل يوم على التعليم الإسلامي، ويحصره في أضيق الدوائر وقد غزت المدارس الحكومية الحديثة على المدارس الإسلامية العربية حتى كادت تقضي عليها قضاءً مبرماً. وقديماً قيل في المثل العربي: «ماحك جلدَك مثلُ ظفرك، فتولَّ جميع أمرك».

(١) غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها، ص٧٨.
(٢) إبراهيم صالح موسى، المرشد في التاريخ الإسلامي، (كنو: مطابع شركة الحكمة للطباعة والنشر والإعلانات العربية): ٤/ ١٢٥.
(٣) موسى، المرشد، ص١٢٥ – ١٢٦.
(٤) الإلوري، الإسلام في نيجيريا، ص١٥٣.
(٥) آدم عبد الله الإلوري، نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي، (بيروت: دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٨١م)، ص٣٨.

الآن..

" من لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أُغلق عليه باب التدبر "

بدر
٠٥٠٨٩٤٨٩٤٧

الرياض ـ هاتف ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس ٤٥٣٢١٢١

المشاريع ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ـ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ الجنوبية ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

الشرقية ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ القصيم ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مرصد الأخبار

اتفاق صوفي أمريكي

أبرم عبد الهادي القصبي، شيخ مشايخ الطرق الصوفية اتفاقاً مع الحكومة (ممثلة بمؤسسة «الأهرام») لمواجهة المد السلفي والفكر الإخواني، في حين عقد سكرتير السفارة الأمريكية بالقاهرة ممثلاً عن الإدارة الأمريكية اجتماعاً مع مجموعة من مشايخ الصوفية، في لقاء استمر لمدة ساعتين، تناول بشكل خاص نشر الصوفية بين المسلمين بالولايات المتحدة.

واتفق ١٦ من مشايخ الطرق الصوفية، على رأسهم الشيخ علاء أبو العزائم، خلال الاجتماع الذي عُقِد بمقر الطريقة العزمية بمنطقة السيدة زينب بحضور ممثلٍ لجهاز مباحث أمن الدولة مع ممثل السفارة الأمريكية على أن تستضيف الإدارة الأمريكية مشايخ الصوفية على نفقتها الخاصة، لتنظيم العديد من الفعاليات والأنشطة، والقيام بزيارات إلى الولايات المتحدة لنشر الصوفية بين المسلمين الأمريكيين.

وتم الاتفاق على اختيار (أبو العزائم) كمنسق بين مشايخ الصوفية في مصر والإدارة الأمريكية، وطلب ممثل الإدارة الأمريكية استمرار اللقاءات والتنسيق بين الجانبين، معتبراً أن نموذج الإسلام الصوفي يمثل الإسلام المقبول والمرحَّب به في الولايات المتحدة لكونه إسلاماً وسطياً معتدلاً.

وأكد أبو العزائم على متانة العلاقة بين مشايخ الصوفية والأمريكيين، ورد ممثل السفارة الأمريكية بالتأكيد على أن الإدارة الأمريكية بدأت بالفعل في تنفيذ ما جاء في خطاب أوباما الذي استهدف فتح صفحة جديدة من العلاقات بين واشنطن والعالم الإسلامي، ووعد مشايخ الصوفية بأن يرسل لهم بياناً بما قامت به إدارة الرئيس أوباما من خطوات تجاه المسلمين.

[المصريون: ٣/٨/٢٠١٠م]

جلال سعد الشايب
galal_elshayp@hotmail.com

السياسية الأمريكية - الشيعية (السرية) في العراق!

كشفت مجلة فورين بوليسي أن الرئيس الأمريكي أوباما أرسل رسالة سرية إلى المرجع الشيعي الأعلى في العراق (علي السيستاني) يدعوه فيها إلى ممارسة ضغوط على القادة السياسيين العراقيين من أجل تشكيل حكومة جديدة.

ونقلت المجلة الأميركية عن مصدر مقرب من السيستاني أنه حصل على هذه المعلومة من عدد من أفراد عائلة السيستاني في مدينة قم الإيرانية، مشيراً إلى أن الرسالة سلَّمها أحد الأعضاء الشيعة في البرلمان العراقي.

وأوضح المصدر «أن الرسالة تطلب تدخُّلَ السيستاني في العملية السياسية واستخدامَ نفوذه لدى الجماعات الشيعية من أجل التوصل إلى تسوية».

ومن الجدير بالذكر أن الرسالة أرسلت بعد فترة قصيرة من انتهاء زيارة جو بايدن «نائب الرئيس الأميركي» إلى بغداد في ٤ يوليو الماضي؛ حيث فشل بايدن في حل المشكلة السياسية العراقية.

وكان المرجع الشيعي الأعلى في العراق قد رفض مراراً مقابلة أي مسؤول أميركي منذ سقوط بغداد في مارس ٢٠٠٣م، لكنه استقبل رسائل من مسؤولين أميركيين وغربيين عموماً بشأن العراق.

[عن مجلة فورين بوليسي - الجزيرة: ٦/٨/٢٠١٠م]

المأزق الروسي مع العقوبات ضد إيران

صرح إيغور كوروتشينكو (رئيس المركز القومي لتحليل التجارة الدولية بالسلاح) بأن خسائر روسيا بسبب التخلي عن التعاون مع إيران، قد تبلغ ما يتراوح بين ١١ و ١٣ مليار دولار، مشيراً إلى أن هذا المبلغ «يشمل الإمدادات بموجب العقود الموقعة بالفعل، والأرباح التي لن يتم تحقيقها بسبب إلغاء برامج المشروعات المستقبلية».

وتشير البيانات الصادرة عن المركز الروسي، إلى أن طهران بدأت في عام ٢٠٠١م تحقيق برنامج «إعادة تسليح قواتها المسلحة» الذي يستغرق ٢٥ عاماً، وينص بشكل أساسي على «شراء أسلحة وتقنيات عسكرية روسية الصنع»، ويقدر إجمالي حجم تمويل المشروع بمبلغ قدره ٢٥ مليار دولار.

وأضاف المسؤول الروسي أن أنظمة الدفاع المضاد للصواريخ، تُعَد من المجالات الواعدة للتعاون العسكري التقني بين روسيا وإيران؛ حيث جرى في نهاية عام ٢٠٠٧م، إبرام عقد توريد مجموعة من منظومات صواريخ «إس - ٣٠٠»، بقيمة ٨٠٠ مليون دولار تقريباً إلى طهران. وفي حالة فسخ هذا العقد، تلتزم موسكو بدفع غرامة مالية لطهران، عن إخلالها بالتزاماتها، بواقع ١٠ ٪ من قيمة العقد، وَفْقَ ما ذكرت وكالة «نوفوستي» الروسية للأنباء.

[شبكة سي إن إن الإخبارية: ٢٠١٠/٨/٤م]

القتل بالقانون

دافع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو عن قرار استخدام القوة ضد السفينة التركية؛ وذلك أمام لجنة التحقيق الخاصة بالهجوم الإسرائيلي على أسطول الحرية، قائلاً: إن الجنود الإسرائيليين استخدموا القوة للدفاع عن النفس، كما أنه أكد على أن الهجوم على الأسطول جاء «وَفْقاً للقانون».

وقال نتنياهو: «إنني مقتنع بأنه في نهاية تحقيقكم سيتضح أن دولة إسرائيل والجيش الإسرائيلي عملوا بموجب القانون الدولي، وأن مقاتلي الجيش الإسرائيلي على سطح سفينة مرمرة أظهروا شجاعةً غير معتادة في أداء مهمتهم والدفاع عن النفس أمام خطرٍ داهم على حياتهم». وأضاف: «إنني أعتمد على مقاتلي الجيش الإسرائيلي، ودولة إسرائيل كلها فخورة بهم».

وذكر نتنياهو أن السفينة «مرمرة» لم تكن «سفينة الحب» وأن نشطاء «منظمة الإغاثة الإنسانية» التركية لم يكونوا نشطاء سلام.

[شبكة بي بي سي الإخبارية: ٢٠١٠/٨/٩م]

إسلام ملك قرية أدوو النيجيرية

اعتبرت جماعة «تعاون المسلمين» في نيجيريا؛ إسلام الملك إلياس (ملك قرية أدوو النيجيرية) انتصاراً كبيراً لجهودها الدعوية، ومحاولاتها لحماية المدن الإسلامية من المؤامرات التنصيرية والانفصالية هناك.

وجاء قرار الملك بإشهار إسلامه بعد لقاءٍ دام ثلاث ساعات متواصلة مع الشيخ داوود عمران ملاسا رئيس جماعة تعاون المسلمين، وذلك يوم الرابع من شهر رمضان المعظم.

وبحسب المكتب الإعلامي للجماعة فإن والد الملك إلياس كان مسلماً غير أنه ترك الإسلام؛ إذ إنه لا يمكن لأحد أن يكون ملكاً على القرية إلا بعد أن يتحول عن الإسلام وأن يكون عضواً في الجمعية الماسونية النيجيرية.

ومن الجدير بالذكر أنَّ الملك إلياس كان عسكرياً متقاعداً معروفاً لدى جميع رؤساء نيجيريا العسكريين السابقين، ويُعَد من أبرز قادة أَوَّل انقلاب عسكري في نيجيريا عام ١٩٦٦م ، وتدرب في المدرسة العسكرية الدولية في الهند، وعمل في الجيش النيجيري أكثر من عشرين سنة.

وكذلك تُعد قرية إدوو من أهم القرى الجنوبية وهي غنية بأراضٍ واسعة صالحة للزراعة بالإضافة إلى وجود معادن كشفتها حكومة ولاية أوشن قبل سنوات.

[موقع رسالة أون لاين: ٢٠١٠/٨/١٦م]

رصدت مديرية الأوقاف في مدينة الخليل (جنوب الضفة الغربية) منع قوات الاحتلال الصهيوني رفع الأذان في المسجد الإبراهيمي ٥٤ مرة، خلال شهر تموز (يوليو) المنصرم.

وقالت: إن سلطات الاحتلال منعت كافة أشكال الترميم في المسجد الإبراهيمي منذ قرار الضم للتراث اليهودي الذي أصدرته حكومة الاحتلال.

[المركز الفلسطيني للإعلام: ٢٠١٠/٨/١م]

أظهر روبرت فيسك (المتخصص في شؤون الشرق الأوسط) بعضاً من مبيعات الأسلحة البريطانية لإسرائيل التي تحتل الضفة الغربية وغزة وتبني المستوطنات غير الشرعية لليهود على الأراضي العربية.

ففي عام ١٩٩٩م بلغت المبيعات ١١,٥ مليار جنيه إسترليني (أي: نحو ١٨ مليار دولار)، وتضاعف الرقم خلال عامين ليبلغ ٢٢,٥ مليار جنيه إسترليني (أي: نحو ٣٨ مليار دولار).

وفي الأشهر الثلاثة الأولى من عام ٢٠٠٨م (أي: أثناء الحرب على غزة) أعطت بريطانيا رخصاً لتقديم أسلحة لإسرائيل بقيمة ٢٠ مليون جنيه إسترليني (أي: نحو ٣١ مليون دولار)؛ حيث استخدمت تلك الأسلحة ضد الفلسطينيين. [عن إندبندنت - الجزيرة: ٢٠١٠/٧/٣١م]

تشير التقديرات إلى أنه في مصر الآن ٥٧ مدرسة أجنبية منها ٣٢ مدرسة أمريكية و١١ مدرسة إنجليزية و ٩ مدارس فرنسية و٣ مدارس كندية ومدرستان ألمانيتان. هذه المدارس تمتاز عن جميع المدارس المصرية الخاصة والحكومية بأنها تقدِّم قائمة بأكثر من ٥٠ جامعة عالمية يمكن أن يلتحق بها الطالب بجانب الجامعة الأمريكية في مصر. وفي المقابل لا توجد جامعة مصرية واحدة في قائمة جامعات هذه السلسلة الأجنبية من الجامعات التي تفتح أبوابها لخريجي المدارس الأجنبية.

وأما نصيب الطالب المصري من الإنفاق التعليمي فإنه لا يتناسب مع ما يحدث في الدول العربية والأجنبية. فنصيبه من ميزانية التعليم ١٣٠ دولار؛ بينما يبلغ في تونس ٢٩٠ دولار، وفي السعودية ١٣٠٠ دولار، وفي أمريكا ٤٧٠٠ دولار، وأخيراً في اليابان ٧٠٠٠ دولار.

[فاروق جويدة - جريدة الشروق المصرية: ٢٠١٠/٨/٨م]

قدَّر خبراء في مجال القرصنة البحرية (وتحديداً تلك التي تجري في خليج عدن) أن تكلفة الهجمات التي تستهدف السفن التجارية التي تشكل الوسيلة الأساسية لتبادل البضائع في العالم، تتجاوز ١٦ مليار دولار سنوياً، مشيرين إلى أن قراصنة الصومال تمكنوا خلال عام ٢٠٠٩م من جَمْع ١٠٠ مليون دولار على شكل فِدَىً. وهناك ٢٥ سفينة حربية تعمل لمكافحة القرصنة قبالة الصومال، وبسبب اعتماد التجارة الدولية على البحار فإن مياه خليج عدن تعتبر ممراً دولياً حيوياً. وقد أدى ذلك إلى تزايد نشاطات القرصنة التي شهدت عام ٢٠٠٩م قفزات بمعدل ٧٠ ٪ طمعاً بالعائدات الضخمة التي تُدفَع فداء للإفراج عن المخطوفين وحمولة سفنهم. وقد ارتفعت القيمة المتوسطة للفدية إلى ما بين ٣,٥ و ٤ ملايين دولار، وهو ما يظهر الطمع المتزايد للقراصنة وتحول نشاطاتهم إلى تجارة رابحة.

يشار إلى أنه من المتوقع أن يحقق القراصنة خلال عام ٢٠١٠م مكاسب تعادل ١٢٠ مليون دولار؛ وذلك بسبب ارتفاع قيمة الفداء التي يطلبونها.

[جريدة القبس الكويتية: ٢٠١٠/٨/١٤م]

قدَّر مكتب الأمم المتحدة المعنيُّ بالمخدرات والجريمة في مقرِّه فيينا، كمية الهيروين الذي رُوِّج في الأسواق العالمية في عام ٢٠٠٩م بحوالي ٤٣٠ طناً، في تراجع يعود سببه إلى تقلص النشاط في كلٍّ من أفغانستان وبورما.

وعلى الصعيد العالمي تراجعت زراعة الخشخاش بنسبة ٢٣ ٪ خلال السنتين الماضيتين. لكن الكميات المخزَّنة في أفغانستان تبلغ ١٢ ألف طن بحسب مكتب الأمم المتحدة، وهو ما يعتبر مخزوناً كبيراً. وعلى الرغم من تراجع إنتاج الكوكايين بنسبة تتراوح بين ١٢ ٪ و ١٨ ٪ خلال الفترة الممتدة ما بين عامي ٢٠٠٧م و ٢٠٠٩م، إلا أن مكتب الأمم المتحدة يلفت الانتباه إلى أن عدد مستهلكي الكوكايين في أوروبا ارتفع من مليونين إلى ٤١ مليون شخص في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٩٨م و ٢٠٠٨م.

وتبقى الماريجوانا المخدر الأكثر رواجاً؛ فخلال عام ٢٠٠٩م دخَّن ما بين ١٣٠ و١٩٠ مليون شخص في العالم سيجارة واحدة منها على الأقل لكل واحد منهم.

[موقع أخبار: ٢٠١٠/٦/٢٤م]

علامة تعجب

«تعهد العطاء»... يا ليتها كانت إسلامية!

يستمر مسلسل التبرعات الخيرية من أغنى أغنياء العالم؛ إلا أن هذه المرة تعد سابقة من نوعها؛ إذ كان التبرع قبل ذلك يتسم بالفردية أما اليوم فلقد تعهد ٤٠ رجلاً من ملياردييري الولايات المتحدة وعائلاتهم منح أكثر من نصف ثرواتهم لمنظمات خيرية. وذلك في مبادرة اتخذها الملياردير بيل غيتس الشهير، ووارن بفيت وهو من كبار المستثمرين في مجال الإعلانات.

وأُعلن عن هذه المبادرة منذ ستة أسابيع فقط (من تاريخ صدور هذا الخبر)، وأطلق عليها اسم «تعهد العطاء» وهدفها إقناع أكبر عدد ممكن من كبار الأثرياء بإعطاء أكثر من نصف ثرواتهم لجمعيات خيرية، وأكد بفيت وغيتس في بيان مشترك لهما أن «التعهد هو بمثابة التزام أخلاقي ولا تنطبق عليه مواصفات القضائية للعقود».

إننا لنأمل أن نرى مثل هذه التعهدات والمبادرات في بلادنا الإسلامية من أثرياء مسلمين موحدين لله؛ فهم (الأحق بإطلاقها).

[جريدة الشرق الأوسط: ٢٠١٠/٨/٥م]

لأجل عيون القمة العربية!!

قال وزير الخارجية العراقي هوشيار زيباري: إن حكومته ستنفق ٣٠٠ مليون دولار لإعادة تأهيل أكبر ستة فنادق في بغداد استعداداً للقمة العربية المقرر عقدها في أواخر مارس ٢٠١١م في العاصمة العراقية.

وصرح زيباري قائلاً: «سنستثمر حوالي ٣٠٠ مليون دولار لتحويل ستة فنادق كبيرة إلى المعيار الدولي من أجل القمة العربية المزمع عقدها في أواخر مارس المقبل».

والفنادق المعنية هي الرشيد الواقع داخل المنطقة الخضراء (التي تضم مباني الحكومة ومقرَّي سفارتي الولايات المتحدة وبريطانيا) والمنصور وفلسطين والشيراتون وفندق بغداد، وقد تعرضت جميع هذه الفنادق لهجمات بسيارات مفخخة أو بصواريخ منذ عام ٢٠٠٣م، وجميعها تابعة للقطاع المختلط العام والخاص باستثناء فندق الرشيد التابع للدولة.

[وكالة الأنباء الفرنسية: ٢٠١٠/٨/١٠م]

الموسوعة السياسية

مؤتمرات القمة العربية

تُعقد اجتماعات سياسية على مستوى ملوك ورؤساء الدول العربية لمعالجة مسائل ذات أهمية وطبيعة مشتركة في إطار الجامعة العربية وتحت إشرافها التنظيمي، وكانت قمة أنشاص بمصر في ٢٩ من مايو ١٩٤٦م أول هذه الاجتماعات؛ بدعوةٍ من الملك فاروق لوقف الهجرة اليهودية، وتحقيق استقلال فلسطين وتشكيل حكومة تضمن حقوق جميع سكانها الشرعيين بدون تفريق بين عنصر ومذهب.

أما المؤتمرات الأخرى فهي إما محددة، أو على مستوى رؤساء الوزارات، ولكن التعبير السائد هو إطلاق تعبير مؤتمرات القمة على الاجتماعات التي جرت في إطار الجامعة العربية التي بدأت في الستينيات.

وعقد القادة العرب منذ تأسيس الجامعة العربية وحتى الآن ٣٢ اجتماع قمة، من بينها ٢٠ قمة عادية، و ١١ قمة غير عادية، وقمة واحدة اقتصادية وهي القمة العربية الاقتصادية والتنموية والاجتماعية المنعقدة (١٩ - ٢٠ يناير ٢٠٠٩م).

[مواقع مختلفة]

المسلمون في غانا

أحمد محمود السيد
mr.ah54@hotmail.com

يقدر عدد السكان في غانا حسب تقديرات ٢٠٠٧م بـ ٢٣ مليون نسمة.

والجماعات الإثنية هي: الآكان ٤٤ ٪، والموشي ١٦ ٪، والآيوي ١٣ ٪، والألجا ٨ ٪.

أما الأديان: فالمسيحيون ٦٣ ٪، وأصحاب المعتقدات التقليدية ٢١ ٪، والمسلمون ١٦ ٪. وتعترض المؤسسات الإسلامية على هذه النسبة وتؤكد أنها تتجاوز ٣٥ ٪ من عدد السكان أي حوالي ٧ مليون مسلم أو يزيد.

وآخر الإحصائيات لعام ٢٠٠٨م، حسب تصريح الناطق باسم تحالف المؤسسات الإسلامية في غانا الشيخ سيبويه زكريا تقول: إن نسبة المسلمين وصلت إلى ٥٥ ٪ من عدد السكان الذي زاد عن ٢٣ مليون نسمة.

المؤسسات الإسلامية العاملة في غانا:

توجد في غانا بعض المؤسسات الإسلامية وهي على قسمين: مؤسسات إسلامية محلية، ومؤسسات إسلامية من خارج الدولة.

المؤسسات الإسلامية المحلية، ومن أبرزها:

١ – المجلس الإسلامي للتنمية والخدمات الإنسانية: ويعمل في مجالات: بناء المساجد، وحفر الآبار، وبناء العيادات الطبية، وبناء المدارس.

٢ – المجلس الأعلى للدعوة والبحوث الإسلامية: ويعمل في مجال الدعوة والتعليم.

٣ – مكتب أهل السُّنة والجماعة: ويعمل في مجال الدعوة.

المؤسسات الإسلامية الخارجية، وهي:

١ – المنتدى الإسلامي: سُجِّل المنتدى الإسلامي رسميّاً في غانا في السادس والعشرين من شهر مايو عام ١٩٩٣م وعندها بدأ ممارسة أنشطته الدعوية والتعليمية والإنشائية، ومن هذه الأنشطة: بناء المساجد وتشييد المجمعات التعليمية، وحفر الآبار، وكفالة الدعاة الذين يعملون أئمة وخطباء ودعاة متنقلين.

٢ – جمعية العون المباشر: وتعمل في مجالات: بناء المساجد، وحفر الآبار، وكفالة الأيتام، وكفالة الدعاة، والخدمات الاجتماعية الموسمية كإفطار الصائم والأضاحي ومخيمات طبية مجانية.

٣ – جمعية إحياء التراث الإسلامي: وتعمل في مثل مجالات العون المباشر.

أحوال المسلمين في غانا:

للأسف الشديد فإن المجتمعات الإسلامية في إفريقيا تعاني من عدة أمور لم يسلم منها مسلمو غانا، ومن ذلك:

الجهل والفقر: وهما من أخطر مداخل المنصرين لتحويل المسلمين عن دينهم، كما تبين في أنشطة المؤسسات المعادية للإسلام.

والمقصود بالجهل نسبيّاً هنا الجهل بتعاليم الإسلام؛ إذ إن الوعي بتعاليم الإسلام لدى كثير من المسلمين يعتبر ضعيفاً جدّاً؛ بل السواد الأعظم منهم – لا سيما الأرياف – يجهلون ضروريات الدين، وهو ما أدى إلى تمكُّن أصحاب المذاهب الهدامة من تغيير اعتقاد كثير من المسلمين وانتشار البدع والخرافات في أوساط المسلمين.

الشيعة:

بدأ دخول الشيعة إلى غانا في نهاية عام ١٩٨١م إثر الانقلاب الثوري الحاصل في تلك السنة؛ إذ لجأ قائد تلك الثورة ورئيس البلاد إلى إيران لمساعدته في تثبيت قدمه في سدة الحكم ومن هنا بدأت إيران استغلال تلك الفرصة لنشر مذهبها من خلال:

– تكوين علاقات حسنة: مع أصحاب النفوذ في الأوساط الإسلامية وكفالتهم في الحج وزيارة مدينة قم الإيرانية.

– تقديم خدمات طبية بثمن رمزي: حيث قامت بفتح مستوصف بمعدات حديثة في العاصمة أكرا ويقدم المستوصف علاجاً شبه مجاني.

– التعليم والبعثات التعليمية: افتتحت كلية إسلامية في العاصمة أكرا في عام ٢٠٠٠م، تُدرَّس فيها العلوم الإسلامية (من منظور شيعي) والعلوم الإدارية وسميت بالكلية الإسلامية الجامعية والتحق بها عدد كبير من أبناء المسلمين.

وعن انتشار الإسلام في غانا يُعرب «إيمانويل ميريكو» مدير إذاعة (صوت الشهداء المسيحيين) عن حقيقة الأمر هناك قائلاً: «غانا كانت توصف في الماضي بأنها بلاد مسيحية، أما الآن فالأمر لم يعد كذلك، إن مجرد القول بأن غانا بلاد مسيحية قول لا نصيب له من الصحة، بل إنني أجزم بأن المنطقة المركزية التي كانت مهداً للمسيحية في غانا ابتلعها الإسلام وأن العاصمة أكرا – أكبر مدن البلاد – يوجد في كل ضاحية بها مسجد».

ويضيف: «هذه المساجد تبنى من قِبَل الكويتيين والإيرانيين وبلدان إسلامية أخرى. إن انتشار الإسلام هو شيء خطير جداً».

ويستطرد إيمانويل مشيراً إلى أن ثمة جامعة إسلامية دينية قائمة الآن في العاصمة (أكرا)، وهو الشيء الذي لم يكن يُسمَع عنه قبل سنوات قليلة، على حد تعبيره.

المصادر والمراجع:

– د. محمد عاشور مهدي، دليل الدول الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٧ م.

– موقع إسلام ويب.

– موقع إسلام أون لاين.

– موقع اقرأ للتعليم والتنمية.

– موقع رسالة الإسلام.

– موقع تحالف المؤسسات الإسلامية في غانا.

جديد

مجلة البيان

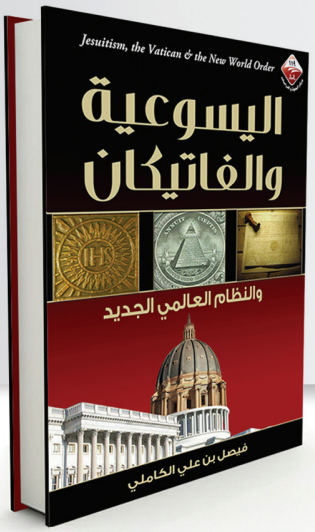

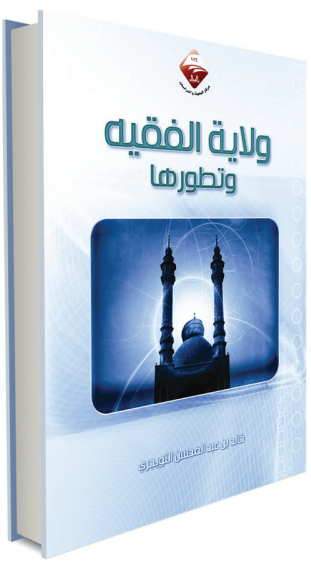

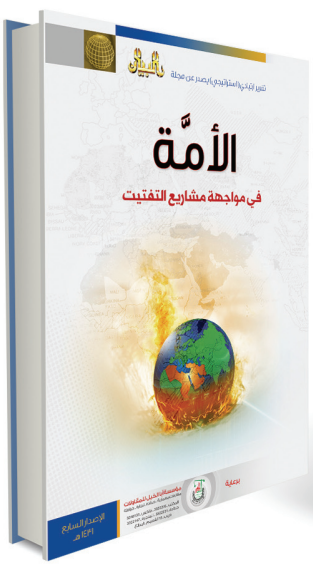

تحت إشراف / د. محمد بن عبد الله الدويش

قدرة الردع الصهيونية آخذة بالتراجع مقابل قوى المقاومة

د. عدنان أبو عامر(*)

في حادثتين منفصلتين منفردتين محلِّيتين، خُرق في الوقت نفسه الهدوء الذي ساد في الأشهر الأخيرة على طول حدود فلسطين المحتلة، من الجنوب ومن الشمال.

في الجنوب أُطلِقَت مجموعة صواريخ من أرض مصرية باتجاه إيلات، وبأعجوبة أخطأت هدفها، وعدة صواريخ منها ابتعدت حتى مدينة العقبة في الأردن، وهناك جرحت وقتلت عدداً من المدنيين الأردنيين.

وعلى الحدود الشمالية قُتل ضابط صهيوني بنيران جندي لبناني أطلق النار باتجاه دورية للجيش الإسرائيلي كانت تعمل بنشاط روتيني، ولأول وهلة كان الأمر يتعلق بحادثتين منفصلتين، لا علاقة بينهما.

للردع حدود:

صحيفة «هآرتس» علقت على الحادثين بالقول: «في الجنوب - على ما يبدو - أرادت حماس أن تنتقم من إسرائيل لمقتل أحد عناصرها في هجوم على قطاع غزة قبل أيام من ذلك، كما أرادت أن تدخل عصاً في دواليب المسعى الأميركي للتقدم في محادثات مباشرة بين إسرائيل والفلسطينيين».

وأفادت مصادر إسرائيلية أن نيران الصواريخ باتجاه إيلات لم تكن بموافقة أو مصادقة قيادة حماس في قطاع غزة، وكانت نوعاً من عمل خاطف بمستوى صغير في التنظيم قرَّر أخذ زمام الأمور بيديه.

أما في الشمال، فكان الأمر - كما أشارت صحيفة معاريف - يتعلق مرة ثانية - وَفْق مصادر رسمية - بحادثة مرتبطة بخطأ في التقدير، أو بحماسة زائدة من قِبَل ضابط لبناني قرَّر (من تلقاء نفسه، ومن دون موافقة مستويات مسؤولة)، فتح النار على جنود الجيش الإسرائيلي؛ لأنه اعتقد أنهم خرقوا الأرض اللبنانية، وعلى الأقل الأرض التي هي موضع خلاف بينهما.

لكن يبدو أن وراء هاتين الحادثتين يختبئ شيء مَّا أعمق، وأن أكثر من خط واحد يربط بينهما، وَفْقاً لما ذكرته صحيفة «يديعوت أحرونوت»، على النحو التالي:

أولاً: في الحادثتين يوجد نوع من إشارة تحذير، وتشير إلى أن قدرة الردع الإسرائيلية التي أُحرزَت خلال حرب لبنان الثانية ٢٠٠٦م، وفي أعقاب عملية الرصاص المسكوب ٢٠٠٨م آخذة بالتراجع.

إن حقيقة: أن أصابع جنود لبنانيين كانت خفيفة على الزناد، وتجرؤوا على فتح النيران ضد دورية إسرائيلية على خط الحدود، وأن عناصر من حماس أطلقوا مجموعة صواريخ باتجاه إيلات؛ حيث يمكن هناك أن تتسبب بأضرار جسيمة.

(*) كاتب فلسطيني.

هاتان الحقيقتان تشيران إلى أنه في الجانب الآخر، هناك من هو مستعد ليتحمَّل مجازفة ومخاطر متزايدة، مهما كان الوضع حتى لو لم يكن يرغب به فقط؛ لأنه مستعد وغير مرتدع عن القيام بأعمال يمكن أن تؤدي إليه.

ثانياً: الهدوء على طول الحدود اللبنانية، وحتى الهدوء السائد النسبي في قطاع غزة، وعلى طول الحدود مع مصر، هو هدوء قابل للانفجار.

بتعبير آخر: إن الأمر يتعلق بسحر فارغ من التهدئة المختبئة وراء واقع إشكالي، قد ينفجر أمامنا في وقت أبكر مما نريد أن نعتقد.

الرد القاصر:

القناة الثانية في التلفزيون الصهيوني أشارت إلى أن ما يثير الاهتمام فيما يخص لبنان وغزة، هو الرد القاصر لإسرائيل، على النحو التالي:

١ - فيما يتعلق بلبنان، كان يدور الحديث عن تحرش لبناني واضح كلَّف حياةَ ضابط من الجانب الإسرائيلي، وردُّ الجيش الإسرائيلي كان محدوداً وموضعياً، ومع ردٍّ كهذا فإنه من غير المفاجئ أن يتوصل أحدهم في لبنان في المستقبل إلى استنتاج أنه بالإمكان استئناف العمليات على طول الحدود ضد إسرائيل.

وصحيح أنه ليس فقط إسرائيل تردع لبنان وحزبَ الله، بل يجب الاعتراف - كما قال المحلل العسكري للقناة - بأن لبنان أيضاً يردعنا، ويَحُدُّ جداً من قدرة عمل الجيش الإسرائيلي.

كذلك فيما يتعلق بحماس في غزة. ومن الجدير ذكره أنه لم يأتِ أيُّ رد إسرائيلي على إطلاق النار اتجاه إيلات، من هنا فإن إسرائيل أشارت إلى أن لديها قيوداً وحدوداً تمنعها من الرد على تحرش حماس ضدها.

وحذر «إيال زيسر» رئيس مركز موشيه دايان للدراسات، من أن كل تلعثم إسرائيلي، أو تردُّد في الرد لن يساعد في الحفاظ على الهدوء، بل على العكس من ذلك.

علاوة على ذلك، فإن التهدئة على الحدود كانت من نواح عديدة مظهراً كاذباً بفضله أخذت حماس بالتعاظم بشكل لا مثيل له.

إن الهدوء والتهدئة اللذين سادا حتى الفترة الأخيرة على طول الحدود اللبنانية ومع قطاع غزة إنما أُحرزا بشق الأنفس، وبأثمان باهظة دفعتها إسرائيل من أجلهما.

وربما تتمثل المشقات في غزة في دفع مزيد من الأشخاص - لا سيما الشبان منهم - نحو زيادة عدد المجندين المحتمَلين في حماس، وهو التأثير العكسي لما أرادت إسرائيل تحقيقه من الحصار في غزة، فقد أمَّلت في أن يعتبر الناس أن حماساً هي سبب معاناتهم وينقلبوا عليها.

لقد أوردت القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي في تقرير لها من قطاع غزة، أن عناصر حماس يصرون على أن الحركة تريد فلسطين كلها «تحت راية الله»؛ وذلك بالرغم من أنه منذ عملية الرصاص المصبوب، فإن حماس خفضت سقف خطابها، وممارساتها الميدانية حيال إسرائيل.

وعلى الرغم من أن المسؤولين الإسرائيليين يعتبرون أن عملية الرصاص المصبوب كانت لوقف الهجمات الصاروخية على جنوب إسرائيل، فإنها لن تتردَّد في دخول غزة من جديد، إذا شعرت أن ذلك ضروري لأهداف دفاعية، ويمكن أن تحدَّد هذه الأهداف بطرق عدَّة.

حماس... المشكلة الإستراتيجية:

يقر الإسرائيليون بأن حركة حماس تنظيمٌ مسلح تسليحاً جيداً، وأنها حركة راسخة ذات سلطة سياسية وحضور عالمي، وربما تبدو أكثر راديكالية، والأكثر من ذلك أنه جرى انتخابها ممثِّلة عن الشعب الفلسطيني، وباتت تتمتَّع بالمصداقية في الشارع، وتلتزم بأيديولوجية مستندة إلى الدين، وإلى جانب ذلك كله، فإن حماس تقف في الجهة المتلقِّية للقوَّة العسكرية الإسرائيلية، وهو ما يُكسبها مصداقية واحتراماً وقوة في المنطقة.

إن حرارة الصيف ستصيب - بالطبع - التوتر الذي ساد، وبعد كل ما حصل، فإنه ليس لدى أي شخص رغبة بفتح حرب في ذروة الحر، لقد برز هذا الأمر أيضاً في ظل مساعي الأطراف لاحتواء هذه الحوادث ومنع التصعيد.

لكن كما في تموز ٢٠٠٦م كذلك اليوم أيضاً، بعد أربع سنوات على الحرب، كل حادثة - ولو كانت صغيرة جداً - قد تؤدي إلى اشتعال كبير، وليس لدى إسرائيل كثير من الشركاء في بيروت يساعدونها في الحفاظ على التهدئة، ومع حماس، تلقائياً لا يوجد أبداً تحاور أو منظومة اتفاقيات سارية.

بناءً على ذلك، ينبغي الأخذ بالحسبان أن حوادث الأسابيع الفائتة ليست الأخيرة، وأن مشكلة إسرائيل أمام لبنان وحماس

عقيدة القتال والعلو الكبير

أمين الدميري

سُنة الاستئصال (وهي الانتقام الإلهي العام) كانت هي السُنة العاملة في الأقوام السابقين على نزول التوراة على موسى - عليه السلام - فقد أغرق الله - تعالى - المكذبين من قوم نوح - عليه السلام - بالماء المنهمر من السماء والعيون المتفجرة من الأرض وأنجى المؤمنين في الفُلك؛ كما أرسل على قوم عاد الريح العاتية التي سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، وأخذ قوم ثمود بالصيحة وقوم شعيب بعذاب يوم الظلة، وقوم لوط بالخسف والحجارة المسوَّمة. يقول - تعالى -:

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٠].

وبحسب هذه السُّنة الإلهية فإن الله - تعالى - قد تولى بنفسه الانتقام من المكذبين الظالمين؛ وذلك بتسليط الظواهر الكونية: كالمطر المهلك أو الريح العقيم أو غير ذلك، عليهم، ولم يأمر الرسل وأتباعهم بمواجهة المكذبين المعاندين أو بمدافعتهم، إلى أن أرسل نبيَّه موسى - عليه السلام - وأنزل عليه التوراة بعد هلاك فرعون وجنوده، وأمر فيها بمجاهدة الظالمين ومدافعة المفسدين. قال - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٣]. يقول ابن كثير (يخبر - تعالى - عمَّا أنعم به على عبده ورسوله موسى - عليه السلام - من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه). وقوله - تعالى -: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى ﴾ يعني: أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة (أي: بعقوبة استئصالية)؛ بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، وعن أبي سعيد - رضي الله عنه - مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «ما أهلك الله قوماً بعذاب

من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى، عليه السلام»؛ فبعد هلاك فرعون وجنوده في البحر انتهى العمل بسُنة الاستئصال العامة واستبدلت بسُنة المدافعة ومقاتلة أهل العناد والباطل لردعهم وردهم عن عدوانهم وظلمهم. وأمر موسى - عليه السلام - قومَه بدخول الأرض المقدسة؛ وهي التي كان يسكنها ويسيطر عليها الجبارون. قال - تعالى -: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢١ - ٢٢]. والأرض المقدسة هي فلسطين وقيل: أريحا. وفي قوله - تعالى -: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ إشارة إلى أن الله - تعالى - قد كتب لهم التمكين فيها وليوقنوا بالنصر على عدوهم، وحذرهم موسى - عليه السلام - من تولية الأدبار فتكون الخسارة ولا تكون لهم دولة ولا تمكين إلا أنهم جبنوا وامتنعوا عن ملاقاة الجبارين، لكن من هم الجبارون؟ ولماذا أمر موسى قومه بقتالهم؟

الجبارون: هم الكنعانيون، وهم قبائل عربية نزحت من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام وأسسوا فيها ممالك صغيرة في مدن مستقلة أشهرها بيسان وأريحا والقدس، وجاء في روح المعاني للآلوسي (إن بني إسرائيل لما فرغوا من أمر فرعون أمرهم الله - تعالى - بالمسير إلى أريحاء أرض الشام وكان يسكنها الجبارون الكنعانيون)، ويرى ثقات المؤرخين أن أهل فلسطين هم من أنسال الكنعانيين الذين هاجروا من جزيرة العرب إلى فلسطين (٢٥٠٠ قبل الميلاد) وقيل قبل ذلك، وسُمُّوا بالجبارين؛ لأنهم كانوا أقوياء الأبدان طوال الأجسام، غير أنهم كانوا يعبدون آلهة وثنية من دون الله - عز وجل - وكان دينهم يتسم بالقسوة في طقوسه ويهتم بالعناصر الجنسية؛ فالإله «بعل» عندهم هو العنصر المذكر والإلهة «عنت»، والإلهة «عشتاروت» هما العنصر الأنثوي وتجتمع فيهما البَكارة والأمومة؛ على الرغم من تعارض هاتين الصفتين. وحسب ما جاء في موسوعة اليهود واليهودية (الباب الخامس) فإن الإله «بعل» يتزوج الإلهة «عشتاروت» فينتج عن هذا التزاوج الخضرة التي تكسو الأرض في الربيع، ولعل هذا الشرك والإفك المبين والعقيدة الفاسدة هو السبب والمبرر الذي من أجله أمر موسى - عليه السلام - قومه بدخول الأرض المقدسة التي قد عم فيها الشر وساد فيها الشرك بالله - عز وجل - كي يُعبَد الله وحده ولا تُعبَد تلك الآلهة التي كان الجبارون يتقربون إليها ويعظمونها؛ وهو من باب مدافعة أهل الفساد والشرك والتكبر في الأرض بغير الحق.

وجدير بالذكر أن بعض الجماعات اليهودية يدَّعون أن العبرانيين ليسوا إلا كنعانيين وأن الإسرائيليين المحدثين هم الكنعانيون الجدد. وظهرت (في أربعينيات القرن الماضي) حركة تسمى حركة الكنعانيين؛ وهي حركة سياسية ثقافية ذات نظرة خاصة للتاريخ اليهودي، وينطلق دعاتها من أسطورة مفادها أن اليهود لما عادوا من مصر إلى أرض كنعان لم يجدوا قبائل معادية لهم أو مختلفة عنهم، بل وجدوا شعباً يتكلم العبرية ويشبههم في الملامح والخصائص البدنية؛ وبهذا تكون للأمة الإسرائيلية الجديدة - بزعمهم - جذور راسخة في الأرض الفلسطينية، وهي جذور تمتد إلى العبرانيين القدامى قبل أن تنتشر بينهم اليهودية؛ فالكنعانية فكرة إحياء جديد للقومية الإسرائيلية. وفي مقابل فكرة القومية الإسرائيلية ظهرت فكرة الوطنية الإسرائيلية في الخريطة السياسية والاجتماعية والثقافية في إسرائيل، ولا شك أن الوطنية الإسرائيلية في فكرتها وقوَّتها أخطر من القومية الإسرائيلية؛ ذلك أن دعاة الوطنية الإسرائيلية يؤمنون بأنه لا وطن لهم إلا في إسرائيل، فهم يدافعون عنها بقوة وبسالة، والمسألة بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت (نكون أو لا نكون)؛ فهم لا يشعرون إطلاقاً بأي إحساس بالذنب إزاء ما وقع وما يقع بالفلسطينيين من اغتصاب أرضهم وتكسير عظامهم وقتل أطفالهم ونسائهم حتى لو كان الحرق وإذابة أجسامهم بالفوسفور الأبيض واليورانيوم.

ولقد تأكد ذلك في حربهم الأخيرة ودفاعهم عن ممارساتهم العدوانية الشرسة ضد أهل غزة.

إن اليهود - خصوصاً في التاريخ الحديث الذي تخلف فيه المسلمون - يعرفون كيف يصلون إلى أهدافهم، وكأنهم يلعبون في الميدان وحدهم، وهم يحاولون - كذباً وتلفيقاً - أن يفرضوا واقعاً مزيفاً بتزوير التاريخ وطمس الحقائق وهم - لا شك - واهمون؛ لأن غفلة المسلمين لن تستمر طويلاً؛ فقد أيقظتهم الأحداث الأخيرة.

إن الجبارين الذين خافهم وهابهم بنو إسرائيل هم العرب الكنعانيون، وهم ساكنو فلسطين قبل أن تدخلها الأجيال التالية

للجيل الناكث عن الجهاد الذي قال لموسى – عليه السلام –: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ومعلوم أن هذا الجيل الذي جبن وتخلَّف عن الجهاد وآثر وَهْم السلامة أو السلام عوقب بالتيه في الأرض أربعين سنة، واستُبدل هذا الجيل بأجيال أخرى ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ومرت عليهم قرون عملت فيهم سُنة: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، وقد حكى القرآن الكريم قصة جيل تعرَّض للقهر والظلم والإخراج من الديار على يد الجبارين الكنعانيين أيضاً بزعامة ملك يسمى جالوت (أو جليات كما يسمونه)، وكانوا قد سرقوا التوراة واضطهدوا بني إسرائيل كما كانوا قد عبدوا الأصنام، فأحس اليهود بالظلم والقهر فقرروا قتال هؤلاء العماليق أو الجبارين الكنعانيين الفلسطينيين. قال – تعالى –: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

والقصة يطول شرحها؛ إذ تشتمل على معانٍ كثيرة وقواعد وسنن منها سنة الابتلاء وعوامل النصر، وكيف أن الله – تعالى – قضى أن ينصر الفئة المؤمنة الصابرة قليلة العدد على العدو الغاشم المتكبر الظالم. لكن الذي يهمنا في هذا المقام هو شيء آخر سأتحدث عنه بعد ذكر بعض أقوال المفسرين والمؤرخين باختصار شديد:

• ذكر الطبري عن ابن عباس قوله: هذا حين رُفعَت التوراة واستُخرِج أهل الإيمان، وكانت الجبابرة قد أخرجتهم من ديارهم وأبنائهم... وعن السدي: كانت بنو إسرائيل يقاتلون العمالقة، وكان ملك العمالقة جالوت.

• قال ابن كثير: (كان بين موسى وداود ما ينيف على ألف سنة) وجالوت هو أمير العمالقة الذين كانوا يسكنون بحر الروم بين مصر وفلسطين وكان وأصحابُه يعبدون الأصنام

• وقال ابن الأثير: (إن جالوت ملك الكنعانيين، وكان مُلْكه بين مصر وفلسطين؛ ظفر بهم وضرب عليهم الجزية وأخذ منهم التوراة فدعوا الله أن يبعث لهم نبياً يقاتلون معه)[1].

• وفي تاريخ ابن خلدون ذكر أن الملك جالوت من الكنعانيين.

ولعل بدايات هذه القصة تشبه إلى حد كبير ما تعرض له بنو إسرائيل في مصر على يد فرعون الطاغية المفسد الذي علا وتكبر واستضعف بني إسرائيل وقتل أطفالهم واستحل نساءهم، فأراد الله – تعالى – أن يمنَّ على المستضعفين ويرفع عنهم الذل والظلم فأرسل إليهم موسى – عليه السلام – كما جاء في مطلع سورة القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٤ – ٦].

غير أن هناك فارقاً بين ما جاء في أول سورة القصص من إرسال موسى – عليه السلام – لإنقاذ بني إسرائيل وبين الجبارين العمالقة، وهو أمر القتال والمدافعة الذي لم يكن قد فُرِض بَعدُ وإنما فُرِض بعد هلاك فرعون وجنوده ونجاة موسى ومن معه. ومن هنا ويتجلى واضحاً ما يلي:

١ – أن سنة الدفع (أو المدافعة) وهي قتال الظالمين والوثنيين المشركين، قد فُرِضَت في التوراة وكانت بديلاً عن سنة الاستئصال العامة؛ وتعني أن الله – تعالى – قد كلف المؤمنين بإهلاك الظالمين والمشركين وتأديبهم لمنع الشرك بالله ورفع الظلم عن المظلومين والمستضعفين. وقد جاء في نهاية قصة طالوت وجالوت قوله – تعالى –: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

٢ – أن على أهل الإيمان والتوحيد أن يقاوموا أهل الشرك وعبَّاد الطواغيت، وأن الله ناصرٌ عباده وأولياءه ومذلٌّ أعداءه وأعداء المؤمنين، لكن بشرط أن تتحقق في أهل الإيمان أسباب النصر وأهمها التوحيد الخالص والصبر والثبات حتى ينالوا النصر أو الشهادة.

٣ – أن الابتلاء هو سنة الله – تعالى – في المؤمنين وفي القصة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولا بد أن يفهم المؤمنون أن الابتلاء خطوة على طريق النصر والتمكين، وإلا فهو العقوبة والانتقام.

٤ – أن الله – تعالى – ناصر الفئة القليلة الصابرة المؤمنة؛ لأنه قد وردت آثار صحيحة أن عدة طالوت كانوا على قدر عدة أهل بدر[2]. وأنه إذا وُجدَت الفئة القليلة المؤمنة

(١) الكامل في التاريخ: ١/ ٧١.

(٢) انظر صحيح البخاري: باب عدة أهل بدر، عن البراء – رضي الله عنه – يقول: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهدوا بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلثمائة): ٣/ ٢٣٢، دار إحياء التراث.

الصابرة فإن موازيـــن القوى ومقاييس النصر والتمكين تتغير لصالح الفئة المؤمنة؛ ففي قصة طالوت فإن داود – وكان لا يزال طفلاً صغيراً – هو الذي قتل جالوت كما أن أبا جهل قُتِل على يد طفل صغير هو معاذ ابن عفراء[1] وقيل: ابنا عفـــراء معاذ ومعوذ. وهذه قاعدة مقررة في قوله – تعالى –: ﴿كَم مِّن فِئَـةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

٥ – أنه على الفئة القليلة المؤمنة الصابرة أن تكمل إيمانهـــا وتُعِـــدَّ عدتها ما أمكن لها ذلك بقدر وســـعها وطاقتها، ثم عليها أن تثبـــت عند اللقاء وتلجأ إلى الله – تعالى – بالدعاء وطلب النصر وعند ذلك يأتي الغوث ويســـتجيب الله ويتحقق النصر. قال – تعالى –: ﴿وَلَمَّا بَـرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْـرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَـاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّـاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَـدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّـهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠ – ٢٥١].

جدير بالذكر أن سُـــنة المقاتلة أو المدافعة ظلت هي السّنة القائمـة المســـتمرة حتى زمن عيسى، عليه السلام وقد فرض الله – تعالى – القتال على النصارى في الإنجيل كما فرضه على اليهود في التوراة، لكن النصارى تركوا الجهاد وابتدعوا الرهبانية خوفاً من الموت أو القتل في الجهاد. قال – تعالى –: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧].

وظلت هذه السنة قائمة حتى فرضها الله – تعالى – على أمة الإسلام آخر الأمم. قال – تعالى –: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُـرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وفي سورة التوبة قال – تعالى –: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْـدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِـي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَـنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِـرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِـكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] «لنعلم أن القتال وسيلة مقدسة عند اليهود – مع أنهم أحرص الناس على حياة – لكنهم لا يقاتلون إلا ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤]، أو أنهم يعتمدون على الكـــذب وخداع أعدائهم بأنهم دعاة ســـلام

حتـــى يطمئن عدوهم ويركن إليهم ويغفـــل أو يتغافل؛ حتى يعطوا لأنفســـهم الفرصة للإعداد والاستعداد للانقضاض وقتما أرادوا وحددوا لقتل المســـلمين ليتأكد لنا أن العقيدة القتالية عند اليهود وما يســـمى بثقافة السلام عند العرب – أو حسبما يتحدثون دائماً في كل محفل ومؤتمر عن أهمية دفع عجلة الســـلام المعطلة – هما الســـبب الأساسي للعلو الأخير لليهود.

ويبقى ســـؤال، هو: هل لا زلنا نريد ســـلاماً مع اليهود؟ ومن المستفيد من معاهدات السلام، العرب أم القوم؟

إنـــه بعد انتصار المســـلمين في غزوة بدر، نزلت ســـورة الأنفال، وجاء فيها قول الله – تعالى –: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ...﴾ [الأنفال: ٦٠]، مشـــيرة إلى أنه على المســـلمين في حال السلام أن ينشـــغلوا بإعداد العدة وتقوية الجيوش وبناء الإنســـان المؤمن المجاهد، لكـــن اليهود يعملون بالتوراة المحرفة، والمسلمون لا يفهمون القرآن ولا يعملون به مع كل الأســـف، وسيعلم الناكثون المتخلفون عن الجهاد أي منقلب ينقلبون.

(١) انظر فتح الباري باب قتل أبي جهل: ٧/ ٢٣٤.

تناقضات الحداثة

هاني إسماعيل محمد(*)

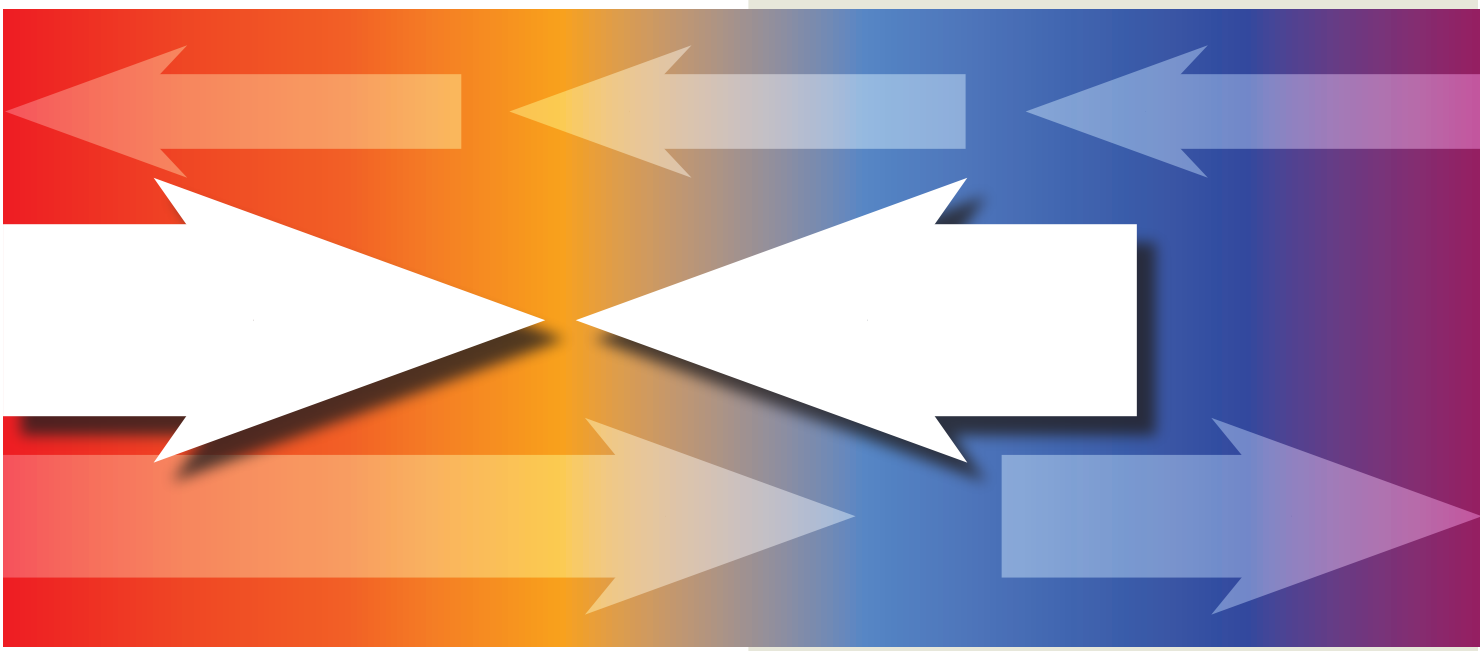

تُمثِّل الحداثة إشكالية في حقل الدراسات النقدية والأدبية على السواء؛ لِمَا تحمله من تناقضات جذرية في بنيتها المعرفية، وخلفيتها الثقافية، بالإضافة إلى التغيرات الدلالية التي تطرأ عليها بشكل متلاحق وسريع، (فهي حركة قلقة لا يَقَر لها قرار)(١) تعيش في صيرورة دائمة، وتجدُّد مستمر، فضلاً عمَّا تحتويه من اتجاهات متباينة، ورؤىً متناقضة، تؤدي إلى (انسحاب لفظة (الحداثة) على الشيء ونقيضه في الوقت ذاته)(٢).

(*) ماجستير في الأدب المقارن.

(١) رايموند ويليامز: طرائق الحداثة ضد المتوائمين الجدد، ترجمة فاروق عبد القادر، عالم المعرفة، الكويت، يونيو١٩٩٩م، ص ٦٨.

(٢) د. عبد العزيز حمودة: الحداثة والمسرح العربي، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد الثاني، المجلد الحادي والعشرون، ١٩٩٣م، ص ٤٥.

وثمة إجماع من النقاد على أن التناقض هو السمة الرئيسة، والخصيصة المميزة للحداثة، ومن ثَمَّ يرى معظم النقاد أن ليس هناك حداثة واحدة بل حداثات متعددة، وهذه الحداثات (تختلف فيما بينها أكثر مما تتفق)(٣).

ومن أبرز صور التناقض التي انبثقت من تباين تيارات الحداثة بل تضاربها، موقف الحداثة من الماضي (التراث)؛ فقد وصل الأمر في الحداثة إلى تضارب مواقفها نحو الماضي:

من موقف رافض تمام الرفض، ويمثله المستقبليون الإيطاليون، القائلون بأن الماضي خانق ولا بد من قذفه من فوق سفينة الحداثة، والدعوة إلى قطيعة معرفية مع هذا التراث.

إلى موقف على النقيض من ذلك يقف؛ يدعو إلى العودة

(٣) د. عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ٢٠٠١، ص٥١.

في حنين للماضي ونبـــذ الجديد بما فيه من خراب ودمار، كموقـــف إليوت، مثلاً. (وتتدرج قـــوة الدعوة لربط الحديث بالقديم في الواقع من الدعوة الهادئة القائلة بأن الحداثة في جوهرها استمرار للرومانسية وعـــودة واضحـــة لهـــا، إلـــى القول بـــلا مواربة بـــأن الانفصـــــال التام مـــن القديم - مـــن نوع الانفصال الـــذي ينادي به المســـتقبليون - يعني فقدان الجذور والضياع الكامل)[١].

وهناك موقف حداثي آخر يـــرى أن الحداثة قد تقبـــل الماضي وتنظر إليه بَيْـــدَ أنهـــا (لا تنظر إليه إلا بعين الحاضر الحامل شـــرط التحول)[٢]، وهذا يعنـــي أن الحداثـــة تقوم بعملية إعادة قراءة الماضي حاملة معها آليات التأويل والتحديث، فتقلب الماضي وتحوِّله إلى حداثة يختلط فيهـــا فكـــر الحاضر مع فكر الماضـــي، فيصبح ما يصمد منه مزيجاً ودليـــلاً على مشـــروعية الحداثة نفســـها، ومـــا لم يصمد منـــه لا تتـــردد الحداثة في بتره، ووضعه في ســـلة التقليدي والأحادي المخـــالـــف للتعـــددية التـــي هـــي أبرز ســـمة من سمات الحداثة.

يجب الإشـــارة هنا إلى أن الحاضـــر ليس بأفضل حالاً من الماضي؛ إذ يجب على الإنســـان الحداثـــي أن ينظر إلى الواقع نظرة ريبة وشك، أو قُلْ: نظرة نقد وفحص؛ فإما أن يقطع صلته بالحاضـــر، وإما أن تقوم هذه الصلة على نـــوع من نقد الواقع وكشـــفه؛ (لأن رفض الواقع يتخذ في بعض وجوهه طابع النقد (نقد هذا الواقع) برفض سلبياته وأمراضه وانحرافاته، وبكشف ما فيه من تناقض ومخفي ومنسي ومسكوت عنه وغير مفكَّر فيه)[٣].

كمـــا نلفت النظر هنا إلى أن الحداثة لا تعني ما قد يتبادر إلى الذهن لدى بعضهم بأنها الأخذ بكل جديد ورفض لكل قديم، بل هي على عكس ذلك؛ إذ إنها في وجهٍ مـــن وجوهها المتعددة، وفي تيارٍ من تياراتها المتباينة هي أخذ بالقديم ورفـــض للجديد تأكيداً لمقولـــة تريلنغ بأن (الحداثة: هي العداء الكامل للحضارة)[٤].

وما تناقضـــات الحداثة إلا انعكاس لتناقضات المجتمعات الغربيـــة، وما فيها مـــن تزعزع للقيـــم الإنســـانية والأُطُـــر الأخلاقية السامية التي أصابت الحضـــارة الغربية فـــي مقتلٍ، بيـــد أن من العجيـــب أن ينبهر الأديـــب العربـــي المعاصر بهذه الحداثـــة (فيفقد ثقته بنفســـه وبثقافته وأصالتـــه، ويُهرَع لاهثاً في مختلـــف الاتجاهات ليقتفي أثر أخر البـــدع أو الموضات في الغرب فيقلدها؛ سواء عن معرفة أم جهـــل)[٥]، ويتقمص أدوار المشـــاهير من الآداب الأجنبية ويأتي بحداثة زائفة (لا جوهريـــة) ليس لها جذور متأصلة في العقلية العربية، ولا تتناسب مع الظروف الحضارية التي تمـــر بهـــا الأقطـــار العربية، فتكـــون القطيعة الأبدية بين المبدع والمتلقي.

(١) د. عبد العزيز حمودة: الحداثة و المسرح العربي، ص ٤٨.
(٢) د. عبد الرحمن محمد القعود: الإبهام في شعر الحداثة العوامل والمظاهر وآليات التأويل، عالم المعرفة، الكويت، مارس٢٠٠٢، ص ١٢٥.
(٣) المصدر السابق، ص٨٤.
(٤) د. عبد العزيز حمودة: الحداثة والمسرح العربي، ص ٥٠.
(٥) محمد مصطفى بدوي: قضية الحداثة، ومسائل أخرى في النقد الأدبي، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط أولى، ١٩٩٩م، ص٢٢.

ابن خلدون...

الرؤية الثاقبة في الفكر الاقتصادي

مولاي المصطفى البرجاوي

يميِّز أغلب الباحثين في سيرة ابن خلدون وحياته التي امتدَّت على مدى أربعةٍ وسبعين عاماً، بين ثلاث مراحل في حياته العُمُريَّة: مرحلة النَّشأة والتَّكوين التي قضاها في تونس، ومرحلة النضال السياسي التي تنقَّل فيها بين المغرب الأوسط والأقصى والأندلس، ومرحلة التَّدريس والقضاء التي امتازت بِهدوءٍ نسبيٍّ استقرَّ فيها في القاهِرة، وإن لَم يفُته أن يزورَ الشَّام والحجاز.

ويُمكننا القول: إنَّ ابنَ خلدون عاش عمراً حقيقيّاً أطْول بكثيرٍ من عمره الزَّمني؛ إذْ إنَّ العمر الحقيقيَّ يقاس بالأعمال، أمَّا العمر الزمني فيقاس بوحدات الزَّمن، فقد توزَّعت حياتُه بين التَّأليف، وتولِّي وظائف عامَّة لها أهميَّتها، وسِفارات في مهمَّات رسميَّة.

أما بالنسبة لمقدِّمته التي نستقي منها أهمَّ أفكاره الاقتصاديَّة، فقد بدأ ابن خلدون في كتابتها في عام ٧٧٥هـ أثناءَ إقامته في قلعة ابن سلامة، ويصف لنا ابن خلدون إقامتَه في هذه القلعة قائلاً: «وأقمتُ فيها أربعة أعوام، متخلِّياً عن الشَّواغل، وشرعتُ في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيمٌ بها، وأكملتُ المقدِّمة على ذلك النَّحو الغريب الَّذي اهتديتُ إليه في تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر، حتى امتخضت زبدتُها وتألَّفت نتائجها»، وقد أنهى ابن خلدون كتابة مقدمته في منتصف سنة ٧٧٩هـ.

ثم إنَّ الدراسات المنْجَزة من طرف المسلمين - بَلْهَ الغربيِّين - عن شخصيَّة ابن خلدون وكل ما تعلَّق به من أفكار وآراء، كثيرةٌ جدّاً لا يمكن حصْرها، وإذا كان بعض الناس قد اعتبر أنَّ ابن خلدون لم يَترُك علماً إلاَّ وتناول منه جزءاً: فمِن التَّاريخ إلى السياسة إلى المُلْك إلى الاقتصاد، فإنَّ علم الاقتصاد الذي لم يكن آنذاك - شأنه شأن كثير من العلوم - مستقلاً عن العلوم الاجتماعيَّة، قد حاز اهتماماً كبيراً من جانب ابن خلدون.

وتشكِّل «أفكار» عبدالرحمن بن خلدون الاقتصاديَّة المبادئ الأساسيَّة للفكر الاقتصادي الغربي، لكن بانتقاءٍ منهم لخدمة عقيدتِهم الماديَّة النَّصرانية التي شغلت الاقتصاديين على مدى القرنين التَّاسع عشر والعشرين، وأفرزت مدارس اقتصادية غربية (الكلاسيكية، الاشتراكية، النيو - ليبرالية...) ومن أشْهر النظريات الاقتصاديَّة التي ظهرت في القرن العشرين: نظرية الاقتصاديِّ الإنجليزي (جون مينارد كينز) (توفي ١٩٤٦م)، التي اكتملتْ في كتابه المنشور عام ١٩٣٦م؛ فقد أدخل (كينز) العامل النفسي في التَّحليل الاقتصادي.

وهذا الانتقاء الحضاري ليْس غريباً في حقِّ هؤلاء الَّذين يُتْقِنون عمليَّة الانتقاء، وإلاَّ فكيف نفسر إسقاط نسبة الرِّبا من قِبل دولة اليابان مع الأزمة الماليَّة العالمية لسنة ٢٠٠٩م (الَّتي يسمُّونها زوراً وبهتاناً بالفائدة) إلى مستوى الصفر؟ واليابان هي التي يصِفها بعضهم بالقزم السياسي والعملاق الاقتصادي؛ وذلك لحصار الأزمة المالية العالميَّة التي ضربت طولاً وعرضاً أقوى بلدان العالم.

والآن إليك - أخي القارئ الكريم - أهمَّ الأفكار التي جادت بها قريحة المؤرِّخ الإسلامي الكبير ابن خلدون - رحمه الله - التي تتصَّل الفكر الاقتصادي الغربي من الاعتراف بفضلِه الكبير عليهم في هذا المجال. وأفكار ابن خلدون لم تأتِه هكذا جزافاً، بل استقاها من كتاب الله وسنَّة حبيبنا المصطفى ﷺ. وهذا لا يعني البتَّة أنَّ ابن خلدون لم يسقط في بعض الهفوات، وهذا ليس عيباً في حقِّ عمالقة الاجتِهاد بنوعَيْه (الشَّرعي والفكري)، على حدِّ تعبير الدكتور عمر عبيد حسنة.

العدل أساس العمران الاقتصادي:

لأن «العدل تُحْفظ به العمارة فالظُّلم يخلُّ بحفظها»، ويترجَم الظلم في البلد من خلال «وضْع الضِّياع في أيْدي الخاصَّة»، وكذلك يقوم المفسدون «بالعدوان على النَّاس في أموالهم»؛ لذا فإنَّ ابن خلدون يُزْجِي نصيحةً ليتَ كلَّ الحكَّام الفاسدين وأعوانهم يأخذون بها. يقول: «علينا أن ننزع الظلم عن النَّاس؛ كي لا تخْرب الأمصار وتكسد أسواق العمران، وتقفر الديار، وخاصَّة أنَّ الشَّارع أشار في غير موضع إلى تحريم الظلم».

ويذهب ابن خلدون إلى أبعد من الحديث عن رفْع الظلم، إلى المُدَد الزمنيَّة التي تستغْرِقها الدَّولة حتى تظهر آثار الظُّلم فيها؛ حيث يقول: «إنَّ نقْص العمران بالظُّلم يقع بالتَّدريج»، ويتوقَّف طولُ وقِصَر زمن الخراب «حسب كِبَر حجْم المِصْر».

ويقول: «يقع الخراب بالظُّلم دفعةً واحدةً عند أخْذ أموال النَّاس مجَّاناً، والعدْوان عليْهم في الحُرَم والدماء، ويقع الخراب بالتدريج»، بإحْدى الوسائل الثَّلاثة الآتية:

١ - بذرائع باطلة يتوسَّل بها؛ كالمكوس (الضَّرائب) المحرَّمة والوظائف الباطلة.

٢ - تكْليف الأعمال وتسخير الرعايا بها؛ حيثُ يغتصبون قيمة عملهم.

٣ - التَّسلُّط على النَّاس في شراء ما بأيديهم بأبْخس الأثمان.

القوانين الاقتصاديّة عند ابن خلدون:

لقد اكتشف ابنُ خلدون قوانين اقتصاديّة متعدِّدة، مستنداً في ذلك إلى كتاب الله وسنَّة الحبيب المصطفى ﷺ وفقه الواقع، ويُمكن أن تصنَّف في مجموعتين:

الأولى: تتضمَّن قوانين تعمل على تفسير نقْل المجتمع من حالةٍ إلى حالة أخرى، أو من مرحلةٍ إلى مرحلة.

والمجموعة الثَّانية: تتضمَّن قوانين تعْمل على تفسير متغيِّرات اقتصاديَّة معيَّنة.

من أمثِلة النَّوع الأوَّل: القانون المفسِّر لعلاقة العمران بالصَّنائع، والقانون المفسِّر لعلاقة العمران بالعلم والتَّعليم.

ومن أمثِلة النَّوع الثَّاني: القوانين المفسِّرة للأثمان، المتضمَّنة في نظريَّة القيمة عند ابن خلدون.

وفائدة القانون عند ابن خلدون يُحَدِّدها النَّص السَّادس؛ فالقانون معْيار للصِّدق والصَّواب، أو هو معْيار لتَمْييز الحقِّ من الباطل، والقانون عنده معيار لتمْييز الحقِّ من الباطل، وبذلك تكون له مرجعيَّة بالنسبة للماضي والحاضر، ولَم يسحب ابن خلدون مرجعيَّة القانون إلى المستقْبل؛ والسَّبب في ذلك هو إيمانه بأنَّ الغيب لله يُجريه وَفْقَ إرادته.

أوجه المعاش في عصْر ابن خلدون وما يُقابِلُها في عصرِنا الرَّاهن:

يقسِّم ابن خلدون الأعمالَ إلى نوعَين: فرْدي وجماعي، كما يفرِّق من جهة أخرى بين الإنتاج اليدوي والإنتاج الحضري، ثمَّ درس ابن خلدون الأعمال وصنَّفها من حيث طبيعتُها.

إنَّ المقصود من العملِ في نظَر ابن خلدون هو «ابتغاء الرزق»، وتعريف الرِّزْق: هو «الحاصل أو المقتنَى من الأموال بعد العمل والسَّعي، إذا عادت على صاحبِها بالمنفعة وحصلت له ثمرتُها من الإنفاق في حاجاته»، لقد وضع ابنُ خلدون تعريفَه هذا بالاستِناد إلى الفقْه ثمَّ زاده تثبيتاً الحديث؛ حيث قال ﷺ: «إنَّما لك من مالِك ما أكلْتَ فأفنيتَ، أو لبِسْت فأبليْت، أو تصدَّقت فأمضيت»[1].

ويرى ابنُ خلدون أنَّ المعاش إمارة، وتجارة، وفلاحة، وصناعة:

• أمَّا الإمارة فليستْ بمذهب طبيعي للمعاش، وهي تشمل الجندي والشرطي والكاتب، وهي عبارةٌ عن الجبايات السلْطانيَّة في ذلك الوقت، والضَّرائب والرُّسوم في عصْرِنا الحاضر.

• وأمَّا الفِلاحة والصِّناعة والتِّجارة، فهي الوجوه الطبيعية للمعاش.

• ونَجد أنَّ الفلاحة متقدِّمة على القطاعات كافَّة؛ لأنَّها كانت بسيطة وطبيعيَّة فطريَّة لا تحتاج إلى نظرٍ ولا علم؛ ولهذا تنسب الفلاحة في الخليقة إلى آدمَ أبي البشَر، وهو معلِّمها والقائم عليْها، وهذا يعني أنَّها أقدم وجوه المعاش وأنسبها إلى الطبيعة.

موقف ابن خلدون من تدخُّل الدَّولة في الحياة الاقتصادية:

يقِف ابن خلدون موقفاً متشدِّداً من تدخُّل الدَّولة في الحياة الاقتصاديَّة، خاصَّة في حالة الظُّلم والإفْساد والاحتِكار والتسلُّط، كما نُشاهِده عياناً في هذا العصْر، من خلال مساعدة الدَّولة لأصحاب النفوذ المالي، والقضاء على أصحاب المقاولات الصُّغرى، الَّتي لا تتلقَّى الدَّعم من طرف الدَّولة، ومن ثَمَّ تتعرض للإفلاس.

لذا يؤكِّد أنَّ «أكثر الأحكام السلطانية جائِرة في الغالب؛ إذ العدل المحض إنَّما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللَّبث؛ فالسُّلطان والأمراء لا يتركون غنيّاً في البلاد إلاَّ وزاحموه في ماله وأملاكه، مستظلِّين بحكم سلطاني جائر من صنعهم».

من هنا سبق في ذلك الاقتِصاديَّ الغربيَّ الكلاسيكي «آدم سميث» بنحو خمسة قرون.

لكن ابن خلدون يرفُض تدخُّل الدولة المباشر في الإنتاج والتِّجارة؛ لما يترتَّب عليه من أضرار اقتِصاديَّة. وأهم وجوه الضَّرر تتلخَّص في القضاء على ظروف المنافسة السَّائدة في السوق، واتِّخاذ الدَّولة وضعاً احتكاريّاً؛ لقوَّتِها الاقتِصادية، واعتمادها على نفوذها وسلطانِها في البيع والشراء، واستِنْزافها رؤوس الأموال السَّائلة لدى المنتجين والتجَّار، وهو ما يقعدهم عن السعي للكسب والمعاش، وينتهي كلُّ ذلك إلى تقليص الجباية وانخفاض موارد الدَّولة، وهي نتيجة مناقضة للهدف المبتغى من وراء تدخُّل الدَّولة في النشاط الاقتِصادي.

فمن أعظم صور الظُّلم وإفساد العمران والدَّولة في رأي ابن خلدون: «التسلط على أموال الناس بشراء ما بين أيديهم

(١) رواه النسائي في سننه.

بأبخس الأثمان، ثمَّ فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان، على وجه الغصب والإكراه في الشِّراء والبيع»؛ فإذا تكرَّر ذلك فإنَّه يُدخِل على الرعايا «العنت والمضايقة وفساد الأرباح، وما يقبض آمالهم من السعي في ذلك جملة، ويؤدي إلى فساد الجباية، فإنَّ معظم الجباية إنَّما هي من الفلاحين والتجَّار، لا سيَّما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها، فإذا انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعدَ التجَّار عن التِّجارة، ذهبت الجباية جملة، أو دخلها النَّقص المتفاحش».

وهكذا يخلص ابن خلدون إلى أنَّ تدخُّل الدَّولة في الشؤون الاقتصاديَّة «مُضِرٌّ بالرعايا ومفسد للجباية»، ويرجع ذلك إلى أنَّ هذا التدخُّل يقضي على المنافسة ويدعم الاحتكار ويضيِّع تكافُؤ الفرص، ويضعف الحافز الاقتصادي لدى الأفراد.

البحث في مصْدر الثَّروة:

إذا كانت إشكاليَّة القيمة تحتلُّ أهميَّة قصوى في كتابات الكلاسيكيِّين، وماركس، وألفرد مارشال، فإنَّ ابن خلدون يُعتبَر سبَّاقاً في الإقرار بالعمل كأساس للقيمة؛ وذلك من منطلق عقيدتنا وديننا الحنيف الَّذي يحثُّ على العمل، ولنا في رسولنا الكريم ﷺ المعلِّم الأكبر الأسوة الحسنة.

ويقول ابن خلدون - رحمه الله -: «لا بدَّ في الرزق من سعي وعمل، ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه».

ويربط ابن خلدون قيمة العمل بالمنفعة المباشرة وغير المباشرة، فالحاجة إلى الأعمال والسِّلع تحدِّد قيمتها. يقول: «فالكسب كما قدَّمناه قيمة الأعمال، وأنَّها متفاوتة بحسب الحاجة إليها، فإذا كانت الأعمال ضروريَّة في العمران عامة البلوى به، كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشد».

الضَّرائب:

يقول ابن خلدون: يقع الخراب بالتَّدريج - كما رأينا آنفاً - بإحدى الوسائل الثلاث الآتية:

١ - بذرائع باطلة يتوسَّل بها، كالمكوس (الضَّرائب) المحرَّمة والوظائف الباطلة.

وقبل الحديث عن موقف ابن خلدون من الضَّرائب نسطِّر موقفه من الزكاة، التي جعلها حقّاً واجباً لا إحساناً، كما اعترف بذلك المستر «دانيل جيرج» في مُحاضرة ألقاها؛ حيث يقول: «إنَّ المجتمع الغربي لم يعترف بحق الفقراء في أموال الأغنياء إلاَّ في بداية القرْن السَّابع عشر الميلادي، عندما أصدرت ملكة بريطانيا قانوناً أسمتْه «قانون الفقراء».

ويتحدَّث ابن خلدون في موضع آخر عن مستوى «العبء الضريبي»، ورأى أنَّه يرتبط بدرجة التطوُّر والتحوُّل الاجتماعي والاقتصادي الذي تبلغه الدَّولة، فكلَّما نمت الدَّولة وتطوَّرت، زادت نفقاتها، ومن ثَمَّ اتَّجهت نحو فرض مزيدٍ من الضَّرائب والرسوم. يقول: «اعلم أنَّ الدَّولة تكون في أوَّلها بدويَّة كما قلنا، فتكون لذلك قليلة الحاجات؛ لعدم التَّرف وعوائده، فيكون خَرْجها وإنفاقها قليلاً، ثمَّ لا تلبث أن تأخُذ بدين الحضارة في التَّرف وعوائدها، وتجري على نهج الدَّولة السَّابقة قبلها، فيكثر لذلك خراج أهل الدَّولة، ويكثر خراج السُّلطان خصوصاً كثرة بالغة بنفقته في خاصَّته وكثرة عطائه، ولا تفي بذلك الجباية، فتحتاج الدَّولة إلى الزيادة في الجباية، فتزيد في مقدار الوظائف والوزائع.

ويدرك الدَّولةَ الهَرَمُ، فتقلُّ الجباية وتكثر العوائد، فيستحدث صاحب الدَّولة أنواعاً من الجباية يضربُها على البياعات، ويفرض لها قدراً معلوماً على الأثْمان في الأسواق، وعلى أعْيان السِّلَع في أموال المدينة، وهو على هذا مضطرٌّ لذلك بما دعاه إليْه ترف النَّاس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية، وربَّما يزيد ذلك في أواخِر الدَّولة زيادة بالغة، فتكسُد الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدَّولة، ولا يزال ذلك يتزايدُ إلى أن تضمحل».

الإنفاق العام:

أي: إنَّ النَّفقات العامَّة تزيد بتطوُّر حظِّ الدَّولة من الحضارة والعمران. فابن خلدون إذاً يرى أنَّ إنفاق الحكومة للمال العامِّ في شراء السِّلَع والخدمات، وتقديم الأموال (الإعانات) لبعض المواطنين ضروري لرواج الأسواق وتحقيق النمو الاقتصادي، وهي الأفكار ذاتها التي تمثِّل المحور الرئيس للنظرية الكينزية التي أحدثت ثورة في الفكْر الاقتصادي قبيل الحرب العالميَّة الثَّانية، فزيادة الطَّلب الفعَّال المموَّل من الدَّولة، في إطار مشروعات الأشْغال العامَّة والإعانات

الاجتماعيَّة، وهو الحل المتميِّز الَّذي اقترحه جون مينارد كينز (اللورد كينز) للخروج من أزمة الكساد الكبير التي حاقت بالاقتصاديَّات الغربية في فترة ما بين الحربين العالميتين.

النمو الاقتصادي وعلاقته بالعمران:

يقول ابن خلدون: «فالعمران يؤدِّي إلى زيادة الدَّخل، التي تؤدي بدوْرها لزيادة الإنفاق، الَّذي يمثل طلباً على السلع التَّرَفيَّة ما يؤدي إلى رواجها، ومن ثمَّ زيادة حجم إنتاجها، الأمر الذي ينجم عنه زيادة الدَّخل الذي يحقِّقه القائمون على هذا الإنتاج، ثم يتحوَّل هذا الدخل مرَّة ثانية إلى إنفاق، وتتكرَّر الدورة نفسها من جديد».

فنظرية ابن خلدون التطورية للاقتصاد لا تتوقَّف عجلتها عند وصف الأوضاع الاقتصادية في راهنيتها، بل تتجاوزُها إلى تحليل تطوُّر الأوضاع الاقتصاديَّة على مسافة زمنيَّة طويلة، ودراسة الآثار المترتِّبة عن حدث اقتصادي معيَّن، وهو ما نسمِّيه حاليّاً بالتَّخطيط الاقتصادي.

تعظيم المنافع:

وهو البحث عن أعظم منفعة، بافتراض بقاء الأشياء الأخرى على حالها؛ أي: إذا استوى خِياران في كلِّ شيء إلاَّ المنفعة، تمَّ الأخذ بالخِيار ذي المنفعة العظمى، يقول ابن خلدون (٨٠٨ هـ): «اعلم أنَّ التجارة محاولة الكسب بتنمية المال، بشراء السِّلع بالأرخص، وبيعها بالغلاء، أيّاً ما كانت السِّلْعة، من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش، وذلك القدْر النَّامي يسمى ربحاً، فالمحاول لذلك الربح إمَّا أن يَختزِن السِّلْعة، ويتحيَّن بها حوالة (تغيُّر) الأسواق من الرُّخْص إلى الغلاء، فيعظم ربْحه، وإما بأن ينقله إلى بلد آخر، تَنْفُق (تروج) فيه تلك السلعة أكثر من بلده الذي اشتراها فيه، فيعظم ربحه».

نظريَّة ابن خلدون في التزايد السكَّاني:

تتَّسم نظرة ابن خلدون بالتفاؤل، على عكس مالتوس؛ وذلك تبعاً لمرجعيَّة كل منهما، فالأول نظرته إسلاميَّة والثَّاني صهيونية، فالإنسان هو سبب الظَّاهرة الاقتصاديَّة، وقد ربط بين الزيادة السكَّانية والزيادة في العمران، وعلاقتها بمستوى المعيشة، كما بحث أثر الرَّخاء في زيادة السكَّان.

وبهذا يكون ابن خلدون قد خالف النظريَّة التشاؤميَّة لروبير مالتوس، وتعامل مع القضيَّة بنوع من الموضوعيَّة في الطَّرح عوض الانسياق وراء التَّرهات المادِّيَّة، الَّتي تسعى لهدْم كرامة الإنسان والإنسانيَّة عامَّة والنُّزوع بها إلى الحيوانيَّة كما نظَر لذلك اليهودي «روبير مالتوس»:

- النمو السكَّاني يجلب الحاجة إلى تخصُّص الوظائف الذي بدوْره يؤدِّي إلى دخول أعلى.
- النمو السكَّاني يتركَّز أساساً في المدن؛ لذلك سكَّان المدن ذات الحجم الكبير أكثر رفاهية من المناطق ذات الحجم السكَّاني الأقل، والسَّبب هو الاختلاف في طبيعة الوظائف التي تؤدى في المناطق المختلفة.

ودائماً في دراسته للسَّاكنة النَّشيطة يقول ابن خلدون: «يؤدي نمو السكَّان وتطوُّر العمران إلى ظهور تقْسيم للعمل الاجتماعي، وتخصص يزيد من مقدار الإنتاج».

والسَّبب في ذلك كما يشرحه ابن خلدون: «أنه إذا عُرِف وثبت أنَّ الواحد من البشر غير مستقلٍّ بتحصيل حاجاته في معاشه، وأنَّهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك، والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسدُّ ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً؛ فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم».

ابن خلدون وتحليل ظاهرة التضخُّم:

ولم يُغفِل ابن خلدون تحليل ظاهرة التضخُّم بالقدر الذي كانت عليه في عصره، فيرى أنَّه «إذا استبحر (اتَّسع) المِصْر وكَثُر ساكنه، رخصتْ أسعار الضَّروري من القوت وما في معناه، وغلت أسعار الكمالي من الأدم[1] والفواكه وما يتبعها، وإذا قلَّ ساكن المصر وضعف عمرانه، كان الأمر بالعكس».

وتفسير ذلك هو أنَّ إنتاج السِّلع الضروريَّة يزيد بزيادة

(١) الأدم: جمع إدام، وهو ما يُستمرأ به الخبز.

العمـــران حتَّـى تعـمَّ وتـرخـص أسـعارُها. أمَّا السِّـلع الكمالية فإنَّها لا تنتشِـر بالقَـدْر نفسـه وترتفع أثْمانُها لثلاثة أسباب:

«الأوَّل: كثـرة الحاجة لمـكان التَّرف فـي المِصْر بكثرة عمرانه.

والثَّانـي: اعتـزاز أهل الأعمـال بِخدمتهم وامتهان أنفسهم لسـهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها.

والثـالـث: كثـرة المتـرفين وكثرة حاجاتهـم إلـى امتهان غيرِهـم وإلى اسـتعمال الصنَّاع في مهنهم، فيبذلون فـي ذلك لأهْل الأعمـال أكثر من قيمة أعمالهم مزاحمةً ومنافسةً في الاستئثار بها، فيعتزُّ العمَّال والصنَّاع وأهل الحرف، وتغلو أعمالهم وتكثُر نفقات أهل المِصْر في ذلك».

ويُدين ابن خلدون الاحتكار بعبارات صريحة، فيقول: إن «احتكار الزرع لتحيُّن أوقات الغلاء مشـؤوم، وإنَّه يعود على فائدته (المقصود: صاحبه) بالتَّلف والخسران».

ابن خلدون وظاهرة الريع:

إن قيمة العقارات ترتفِع مع تطوُّر العمران، ومن ثَمَّ تزيد ثروات ودخول مُلاَّكها دون سعي وكدٍّ من جانبِهم.

ابن خلدون والنقود:

يوضِّح ابن خلدون نظْرَتـه إلى النقود على أنَّها مقياس للقِيمة ووسيط للتَّبادُل؛ حيث هي حكمة إيجادها. يقول: «إنَّ المال المتردِّد بين الرعيَّة والسُّـلطان، وهو حكمة إيجاده منهم إليْه، ومنه إليهم».

توازن السوق:

في سـوق المنافسـة الحرَّة أو السـوق الحرَّة، فإنَّ آلية السعر هي التي تُحدِث التوازن في هذه السوق. في النظريات الاقتصاديَّة يعتبر «فالراس» هو أوَّل مَن أشار إلى ذلك، لكنَّنا سنجد أنَّ ابن خلدون قد أشـار إلى هذه الفكرة قبله بردحٍ طويلٍ من الزَّمن:

يقوم قانون التَّوازن «الفالراسي» على أنَّه: «إذا كان هناك فائض في العرض، فإنَّ الأسعار تنخفض، بينما يؤدِّي فائض الطَّلب إلى ارتفاع الأسعار».

وقد أشار ابن خلدون إلى هذا القانون من خلال مقدمته في موضعين:

الأوَّل: عندما أراد شـرْح انخفاض أسـعار الغِذاء بينما تبقى أسعار الكماليات مرتفعة.

الثَّاني: عندمـا يناقش تِجارة الأطعِمة من طرف التجَّار ونَقْلِها من مدينة إلى أخرى.

خاتمة:

يتبـيَّن ممَّا سـبق أنَّ ابـن خلدون شـخصيَّة شـموليَّة فـي التَّفكيـر الاقتصادي؛ إذ سعى من تجرِبته الميدانيَّة وتبحُّره في العلم الشـرعي إلى الخروج بمواقف وتصوُّرات اقتِصاديَّة، أصبحت إحدى الركائز الأساسـيَّة لبعض النظم الاقتِصادية الحالية.

كما أنَّ ابـن خلـدون توصَّل إلى تحليلات اقتِصاديـة مركَّزة في ظروف كانت فيها أوروبا ما تزال قابعة في ظلمات القرون الوسطى، وما يزال فيها الفكر جامداً[1].

الهوامش والمراجع المعتمدة:

١ – ابـن خلدون، مقدمة ابن خلدون، الطبعـة الأولى، بيروت: دار القلم، ١٩٧٨م.

٢ – جامـع، أحمد، التَّحليل الاقتصـادي الكلي، القاهـرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٣م.

٣ – جامع، أحمد، النظريَّة الاقتصادية، الطبعة الرابعة، ج٢، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٧م.

٤ – د. رفعت السيد العوضي: ابن خلدون وريادته للدراسات الاقتصاديّة: دراسة في البعد المعرفي، مجلة إسلامية المعرفة.

٥ – الدكتـور بن علي بلعزوز والدكتور عبدالكريم قندوز: «مبدأ «الضريبة تقتـل الضريبة» بين ابن خلدون ولافر»، المعهد الإسـلامي للبحوث والتدريب، الشبكة العنكبوتية.

٦ – عـلال البوزيدي، «نظرات في الفكر المنهجي عند ابن خلدون»، مجلة الأمة، العدد ٣٨، سنة ١٤٠٤هـ.

(١) ملحوظة: إن ابن خلدون مفكر وفقيه ومؤرخ إسلامي مبدع، اعترف له الغرب على مضض – وقلَّما اعترف لغيرِه من المفكِّرين المسلمين – بفضله عليهم.
كما أنَّه ليس عيباً أن نأخذ من الغرب ما ينفعنا، شريطة ألا يصطدم والثَّوابت الشرعيَّة، ولله درُّ أحد العلماء الأجلاَّء؛ إذ يقول: «فالواجب أن نأخُذ الحقَّ من كل شخص، وأن نتجنَّب الباطل مهما كان قائله».

الاستشراق

بين الغايات المسبقة والرؤى النقدية

عنوان الكتاب: الاستشراق: قراءة نقدية.
المؤلف: د. صلاح الجابري.
الناشر: دار الأوائل، دمشق، طبعة أُولَى، ٢٠٠٩م.
عدد الصفحات: ٢٦٥ صفحة.

هشام منور(*)
hichammunawar@gmail.com

لم يكن «الاستشراق» يوماً علْماً مبرَّأً عن الأسبقيات المعرفية أو منزَّهاً عن المآرب الغربية «الاستعمارية»، كما يرى ذلك عددٌ من دارسيه ومنتقديه على حد سواء؛ فدور الوصاية السلطوية الذي مارسته الثقافة الغربية تجاه الثقافات الأخرى ومنها ثقافتنا، وَسَم الاستشراق بصورة التبشير الديني تارة، وصورة التمثيل التصويري تارة أخرى، وصورة الاستعمار المباشر تارة أخرى.

يحاول الدكتور صلاح الجابري في كتابه هذا تقديم محاولة لبناء منهج ورؤية تنطلق من سياق حضاري إسلامي لتجاوز الأحكام الانفعالية والرؤى السطحية، والنظر إلى الإسلام بوصفه قيمة معرفية وحضارية، لا كما ينظر إليه الاستشراق.

«يشكِّل الاستشراق مظهراً من مظاهر الثقافة الغربية التي تتحكم فيه معيارية التفوق الغربي على الشرق، والفوقية العرقية، والمركزية الثقافية والسياسية الغربية»، وقد عززت التطورية الاجتماعية تلك النظرة، لتحقق رغبة الإنسان الأوروبي في القرن الثامن عشر، في ترتيب سائر الشعوب الأخرى في سلَّم التطور، ومحاولة منه للعثور على تبرير وتعليل علمي لتنوع الثقافات وتباينها وتفاوتها، لتسويغ الهيمنة الأوروبية، وهو ما وجد صيغته الفلسفية في أفكار هيجل، وماركس، وروبنز.

فمنطلق الاستشراق الاستعلائي تكمن قيمته في النظر إليه بوصفه تعبيراً عن القوة (الأوروبية – الأطلسية) إزاء الشرق، وتكمن قيمته الأداتية، في كونه إنشاءً لغوياً عن الشرق، هدفه السيطرة عليه، وهذا ما يؤكد حقيقة التمثيل، في إعادة بناء الشرق بعيداً عن واقعه، وَوَفْقَ مسلمات ذهنية

(*) كاتب وباحث.

غريبة عن ذلك الواقع، مستبعِدةً الواقع التاريخي والنفسي، ومستبدلةً إياه بصورة خيالية، ابتكرها خيال الإنسان الغربي، «أما سياسة التماثل التي سعى إلى تكريسها، فهي الغاية النهائية للإمبريالية دون إنهاءٍ لها بالمعنى السياسي أو القضائي».

ويرى المؤلف أن «العلاقة بين الاستشراق والإنثروبولوجيا، علاقة وثيقة، فقد شكَّلا رافدين أساسيين للسلطة الاستعمارية، ويشتركان في موضوع واحد، هو الشرق أو العالم الثالث، لكن الاستشراق أسبق من الإنثروبولوجيا من الناحية التاريخية»، إلا أن الدراسات الإنثروبولوجية زودت المستشرقين بمادة غنية لبناء تصوراتهم عن الحياة الفردية والاجتماعية للمجتمعات المتخلفة.

ويؤكد الكتاب أن «الموقف من القرآن (كواقعة تاريخية) لدى المستشرقين اتخذت صوراً متعددة، بالرغم من توحدها حول قطب تاريخي مركزي يميزها عن الصورة التي ينظر من خلالها المسلمون إلى القرآن الكريم». وتتمثل بالتشديد على استقطاب الإمكانات العلمية (التاريخيةواللغويةوالأنثروبولوجية)«لإثبات بشرية القرآن، وإلغاء مصدره الإلهي، وقد تفاوتت المحاولات بين التصريح والتلميح». وقد تفاوت النقد الاستشراقي بين الإقصاء والبناء، أو السلب والإثبات، وقد مثل بيرون والسفسطائيون قديماً، و(هيوم) والمدارس المعاصرة حديثاً، الطرف الأول، في حين مثل كلٌّ من سقراط والغزالي قديماً، و (كانط) حديثاً، الطرف الثاني.

وتمثل المدارس المعاصرة امتداداً للنقد السلبي القديم في موقفها من مسألة الوجود ولواحقه، لكن المدارس المعاصرة، في وضع أفضل بكثير من المدارس القديمة (السلبية)؛ ذلك أنها «وجدت في العلم بديلاً عن الميتافيزيقيا، وبالعقلانية المرتبطة بحدود التجربة والحس بديلاً منهجياً، في دراسة الوجود ولواحقه، عن المنهج العقلي المرتبط برؤية (حدسية – منطقية)، مستقلة عن التجربة الحسية».

ويرى المؤلف أن «المستشرقين انطلقوا في نظرتهم إلى الإسلام، من أن الإسلام ليس ديناً سماوياً، ولذلك يجب أن يكون تعبيراً عن إسهام عوامل مختلفة: دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية، في إنضاج فكرة مركبة في ذهن إنسان معيَّن»، ثم وجدت تلك الفكرة طريقها إلى الواقع، فتحولت إلى نظام اجتماعي وسياسي شامل، احتل تلك المساحة الواسعة على الأرض، وفي الفكر الإنساني.

وجاءت دعوة المستشرقين وتلامذتهم إلى تناول التراث الإسلامي بصورة تجرِّده من صفة القداسة غيرُ واضحة. ويؤكد المؤلف أن فهم كثير من المسلمين دعوة تجريد التراث من القداسة، بأنها إنكار الأصل الإلهي للقرآن، هو «ما قصده المستشرقون تماماً».

فقد «تجاوز المستشرقون مع الفكر والعقيدة والتاريخ في الإسلام المنهج التاريخي، ليتناولوا بتقييماتهم موضوعات سيكولوجية، خارج إطار المنهج، ولم تقتصر دعواهم على فصل الدين عن الدولة، وإنما راحوا ينكرون الأصل الإلهي للقرآن، فتخبطوا بين محاولات التحليل الفيلولوجي والتحليلات النفسية والعناية بطبيعة الحياة العربية قبيل الإسلام».

انطلق المستشرقون في نظرتهم إلى الإسلام، من أن الإسلام ليس ديناً سماوياً؛ ولذلك يجب أن يكون تعبيراً عن إسهام عوامل مختلفة: دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية.

ثم يحلل المؤلف الموقف الاستشراقي من القرآن الكريم والرسالة الإسلامية، ويرى أنه قد مرَّ بثلاث خطوات، حاول أن يدلل من خلالها على بشرية القرآن ووضعية الرسالة:

وكانت أُولَى الخطوات، تمثل «محاولات إثبات أن الرسول [ﷺ] ليس أمياً، بل يعرف القراءة والكتابة».

والخطوة الثانية هي «بما أن الرسول [ﷺ] يعرف القراءة والكتابة، فإنه استطاع الاستفادة من الأديان والثقافات السابقة لوضع القرآن».

وأخيراً، إن «ادِّعاء النبوة هو نوع من الأمراض النفسية التي لا تجعل الشخص يميز بوضوح بين وعيه الطبيعي ووعيه الباطني».

ثم يخوض المؤلف في تفنيد هذه الادعاءات ومداخلها وغاياتها، معتبراً أن الوحي ممثَّلاً بالقرآن الكريم، سيظل المحرك الحضاري لهذه الأمة، بصرف النظر عن ادعاءات المستشرقين وأسبقياتهم المعرفية والكيدية.

الدولة العبيدية في المغرب

(إفريقية والمغربَيْن الأوسط والأقصى)

أ. د. محمد أمحزون

إن تسمية العبيديين أنفسهم بالفاطميين نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ تسميةٌ كاذبةٌ أرادوا بها خداع المسلمين. وجمهورُ العلماء على عدم صحة نسبهم، وأنهم كَذَبة أدعياء لا حظَّ لهم في هذا النسب الشريف[1].

وقد بسطوا نفوذهم على المغرب مستغلين انحلال دولة الأغالبة وضعفَهم وانغماسَهم في الترف، فسددوا لها الضربة القاضية على يد داعيتهم أبي عبد الله الشيعي الداهية المراوغ الماكر صاحب الحيل العجيبة في موقعة الأربذ سنة ٢٩٦ هـ، (٩٠٨م). وأعلن أبو عبد الله الشيعي إثر هذا النصر الحاسم على الأغالبة أن الإمام الحقيقي هو عبيد الله المهدي، وأرسل إليه للمجيء من سلمية إلى القيروان. وحين دخل عبيد الله المهدي القيروان وتولى مقاليد الحكم فيها سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩م) دشن سياسة «فرّق تسد» بين القبائل، وكان يحرض بعضها على بعض ويغري بعضها ببعض لكسر نفوذ القبائل المتمردة أو التي ترفض الانسياق مع تياره[2].

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء: ١٥/٢١٣، وابن خلكان: وفيات الأعيان: ٣/١١٧ – ١١٨، وابن تيمية: مجموع الفتاوى: ٢٨/٦٣٦.

(٢) حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ص٤٧٧ – ٤٧٨.

أما سياسته المالية، ومن جاء بعده من الحكام العبيديين، فكانت تقوم على مصادرة الأموال، وأعمال السلب، ونهب المدن لتمكين أنفسهم من إنشاء جيش مرتزَق يشدُّون به حكمهم[١].

وكذلك اتسمت سياستهم المالية بفرض الضرائب الثقيلة على أصحاب الضياع والفلاحين، وهو ما تسبب في إملاق الفلاحين وقلة الزروع ووقوع المجاعات[٢].

وعلى صعيد العقيدة والدين، أنزل الإسماعيليون عبيد الله المهدي منزلة الإله، وادعوا أنه يعلم الغيب[٣]. كما أظهروا بدعاً كثيرة في العبادات والمعاملات والفرائض[٤]، ونكَّلوا بالعلماء واضطهدوهم[٥].

ولما كانت القيروان قاعدةَ السُّنة المالكية وصخرتَها العتيدة، فقد صرَّح الفقهاء بعداوتهم لهذه الدولة المارقة وأفتوا بِردَّتها وكفرها، ونسقوا المواقف بينهم لمواجهتها[٦]. ومن وعيهم بالسياسة الشرعية وتبصُّرهم بعواقب الأمور أنهم لم يعلنوا الثورة المسلحة عليها إلا عند ظهور قوة لها شوكة وهي قوة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني من الخوارج الصفرية[٧].

وكانت هذه الثورة من ناحية تدل على عدم رضا الناس وعلى رأسهم العلماء عن الدولة العبيدية وسخطهم عليها.

ومن ناحية ثانية كانت سبباً رئيساً في تراجع قوة العبيديين وأفولها في إفريقية والمغربيين الأوسط والأقصى، وتفكيرهم في الانتقال إلى مصر.

وقصارى القول: لم يعرف الناس طوال مقام الدولة العبيدية في بلاد المغرب راحة أو سلاماً أو نظاماً مستقراً، وإنما هوت البلاد في غياب الفوضى والاضطرابات والقلاقل حتى أشرقت شمس المرابطين الذين أعادوا المياه إلى مجاريها.

ومع الأسف؛ فإن المسلمين المعاصرين عبر المناهج الغربية يقرؤون تاريخ الدولة العبيدية قراءة غير علمية وغير صحيحة؛ بأنها دولة لها صلة بآل البيت، ودولة تحب العلم وتنشره، ولها مآثر تاريخية، وأن المعز لدين الله الفاطمي بطل من أبطال التاريخ، إلى غير ذلك من الادعاءات التي نشرها الباطنيون الملاحدة المعاصرون أمثال فرهاد دفتري وعارف تامر ومصطفى غالب ومحمود إسماعيل، وكذلك المستشرقون الغربيون؛ لطمس الحقائق وتزوير التاريخ.

ولأجل ذلك فإن إماطة اللثام عن زيغ وضلال العبيديين وجرائمهم، وإلقاء الضوء على سياستهم العامة الجائرة، ثم سياستهم المالية المشينة - كما مر معنا - يُعتبَر ضرورة شرعية وواجباً تاريخياً في ضوء التفسير الواقعي لتاريخنا الإسلامي الذي يحتاج إلى إعادة قراءته من جديد في ضوء المعطيات والحقائق التاريخية التي تحتضنها كتب الحديث والتراجم والسير الإسلامية.

---

(١) القاضي النعمان: الهمة في آداب اتباع الأئمة، ص ٨٥، وعريب: صلة تاريخ الطباري، ص ٥٢، والخشني: طبقات علماء إفريقيا، ص ١٧٤.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب: ١/ ١٧٣ - ١٨١.
(٣) المصدر السابق: ١/ ١٦٠ - ١٨٦، ومحمد أحمد الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلامي، ص ٨٣ - ٨٩.
(٤) القاضي عياض: ترتيب المدارك: ٦/ ٢٦٠، والمالكي: رياض النفوس: ٢/ ٤٠٤، والقلقشندي: صبح الأعشى: ٣/ ٥٧٦، والمقريزي: الخطط: ١/ ٤٩٠.
(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء: ١٥/ ١٤٥.
(٦) القاضي عياض: ترتيب المدارك: ٢/ ٢٩٢، ٦/ ٢٥٢ - ٢٥٣.
(٧) ياسين بن علي: علماء القيروان والدولة العبيدية (٢)، مجلة الزيتونة، تونس (موقع غوغل).

عمل الداعيات

بين التطوع والعلم الشرعي المؤصَّل

د. حياة بنت سعيد بأخضر(*)

إن الدعوة إلى الله هي عمل الرسل والأنبياء وأتباعهم وَلْنقرأ معاً إجابة العلاَّمة الرباني الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – على السؤال التالي: هل الدعوة إلى الله واجبة على كل مسلم ومسلمة أم تقتصر فقط على العلماء وطلبة العلم؟

قال – رحمه الله –: (إذا كان الإنسان على بصيرة فيما يدعو إليه؛ أي يكون عالماً فيما يدعو إليه، فلا فرق بين أن يكون عالماً كبيراً يشار إليه أو طالب علم مجدٌّ في طلبه أو عامياً؛ لأن من دعا بلا علم فإنه يُفسِد أكثر مما يصلح. أما المنكرات الظاهرة فله أن ينكرها بالحكمة. وأما قول بعض الناس: إنه يمكن أن يكون داعية بلا علم فنقول: من أراد داعية بلا علم غزير يستطيع أن يفتي ويناظر ويستنبط المسائل من أدلتها فيمكن قبول قوله هذا، وأما داعية لا يعلم ما يدعو به فهذا لا يُقبَل).

وبهذه الإجابة نقف على الحقيقة التي يجب على الجميع علمها والعمل بها، وهي: أن الدعوة إلى الله باب مشرَع لكل من رزقه الله علماً مَّا يدعو إليه، ولكن نشترط أن يكون علماً

(*) أستاذ مشارك بجامعة أم القرى.

صحيحاً من مصادره الصحيحة؛ سواء من الكتب أو العلماء، ولا يعتمد على أقاويل وكلمات منثورة في صفحات ورقية أو إلكترونية، ويرى أنه لا يتخطاه ويغتر بنفسه فيتكلم بما لا يعرف، بل هذا ينبغي أن يكون دافعاً لطلب العلم وتأصيله.

والدعوة النسائية في المملكة العربية السعودية. يمكن تسميتها بالدعوة المؤصَّلة التي خرجت للإعلام بقوة وحاول بعضهم تغيير قناعاتها الشرعية تحت دعاوى العصرنة ومجاراة الواقع والتيسير والإصلاح.

ولا أعلم أن هناك جهة واحدة تجمع الداعيات إلا ما تقوم به مكاتب الدعوة ومراكزها التي تبذل جهدها لجمع شتات الداعيات وتنظيم دعوتهن. ووزارة الشؤون الإسلامية أصدرت تصريحاً لبعض الداعيات كان فيه نقص واضح وعدم وضع أسماء معروفة في الدعوة، كما أن الجمعية العلمية للدراسات الدعوية لم تشملنا إلى الآن؛ ربما لأنها حديثة عهد رغم رغبة الكثيرات منَّا في الانضمام إليها.

لذا كل مطَّلع على أعداد الداعيات في صفوة النساء فإنه سيرى أنه ليس بالمستوى الكافي؛ لأن بلادنا الحبيبة مترامية الأطراف ومناشط الخير فيها كثيرة وإقبال الناس على الخير كل ذلك يحتاج إلى أعداد وفيرة جداً من الدعاة المؤهلين. ونحن حقاً نحتاج بصورة مستمرة إلى تزايد أعداد الداعيات ذوات البصيرة؛ فأعدادهن الآن لا تكفي لتؤدي الواجب وهذا ملاحظ من خلال:

- تزايد الطلب على الداعيات لمناشط عدة ومناطق مختلفة.
- عدم قدرة بعضهن على المشاركة المستمرة والفاعلة لظروف أسرية - وهذا حق لأسرتها - وظروف عملية.
- توسُّع العمل الدعوي في مجالات مختلفة تتطلب أعداداً كثيرة.
- تأخُّر بعض الناس عن القيام بواجب الدعوة تحت دعاوى شتى منها دعاوى الخلافات الشخصية.

وعلى الرغم من كل ماسبق إلا أنه بحمد الله هناك كثير من المعاهد الدعوية المنتشرة في المملكة تؤهل الداعيات ومعلمات القرآن بمناهج مؤصَّلة وعلى أيدي ثقاة وبشهادات معتمدة. ولكنها قليلة بالمقارنة للاحتياجات الملحَّة في الواقع الملموس؛ وسبب ذلك:

- ضعف الموارد المادية أو غيابها في بعض المناطق.
- قلة أعضاء التدريس المؤهلين للقيام بتعليم الدعاة، وإن وُجِدُوا فهم في ضغط قوي لكثرة ارتباطاتهم.
- عدم تكاتف أيدي الغيورين على الدعوة وما ينتج عنه من تشتت الجهود وضياع النتائج المرجوَّة وإن وجدت فهي ضعيفة.
- عدم وجود هيئة دعوية خيرية تدعم مشروع نشر معاهد إعداد الدعاة في كافة المدن الرئيسة، وتتعاون مع كبار العلماء والدعاة لوضع المناهج وسنوات الدراسة ومخرجات ذلك؛ وهذا سيقضي على الازدواجية وتشتيت الجهود.

إن هذا الأمر ليس خاصاً ببلادي الحبيبة، بل تشكو منه كل مناطق الدعوة الإسلامية في كل العالم للأسف الشديد.

كما نلاحظ أنه على الرغم من هذه القلة العددية قيام الداعية السعودية بالدعوة خارج البلاد وهذا يحتاج إلى ضوابط منها:

١ - السفر مع محرم كما قال بذلك جمهور العلماء تكريماً وصيانة لها، وللقيام على شؤونها بما يحقق لها الانصراف للدعوة في هدوء.

٢ - أن تكون هناك حاجة ماسة لسفرها.

٣ - دعم منهج أهل السنة والجماعة.

٤ - تكثير سواد الداعيات اللاتي يشاركنها المنهج.

٥ - الرد على أهل البدع والأهواء بما يحتاجه أهل تلك البلاد.

٦ - أن تكون ذات علم شرعي قوي مبني على أسس راسخة؛ فلا تتأثر بكل ما تسمع ولا تتلعثم أمام بعض المداخلات المناوئة ولا تثار بسرعة.

٧ - أن لا تجعل السفر - وإن كان لحاجة - مقدَّماً على واجبها الأصلي وهو رعاية بيتها والقيام على شؤونه وعدم تركه بيد الخدم والسائقين؛ فكيف تخدم غيرها في فرض كفاية وتترك فرض العين؟

٨ - أن لا تعتاد السفر الدائم تحت حجج شتى؛ إذ قد تقع في التساهل في الاختلاط ومحادثة الرجال ومزاحمتهم وإن كانت بحجابها الكامل.

وختاماً أقول: إن الداعية - بفضل الله - تمتلك رصيداً قوياً وأساساً راسخاً في العلم الشرعي السلفي القائم على منهج أهل السُّنة والجماعة من خلال ثلة مباركة من العلماء نذروا أنفسهم لذلك بمباركة من وفقها الله لكل خير، وهذا الثناء ليس من عند نفسي بل سمعته مراراً من الأخوات الوافدات من دول عربية وغير عربية وحرصهن على حضور دورات علمية مؤصَّلة في المملكة أو من خلال الغرف الصوتية، وشراؤهن لكتب علمائنا وأتمنى من كل سعودية أن تشعر بهذه النعمة التي يشعر بها الفاقدون لها.

وأسأل الله أن يجمع قلوبنا وأهدافنا وأن لا يجعل للشيطان علينا سبيلاً في التحريش بيننا.

وأيكم ليست له ليلى؟

منصور باوادي

عجباً - والله - لأمر أوروبا ظلت أعواماً وهي تتجادل مع نفسها في شأن المرأة: أشيطانة هي أم إنسية؟ ثم نجدها تقفز لأقصى الطرف الآخر وتجعل منها رمزاً للشهوة والنزوة، فهي من طرف إلى طرف أنكدَ منه، وكلا طرفي الأمور ذميم، والوسط دائماً يحتاج لأمة وسط ومنهج وسط، وهذا ما تفتقده أوروبا.

فهل المرأة شيطان؟

لا وألف لا.

وهل هي رمز البغاء وكأس الخمر؟

أيضاً لا وألف لا.

إذن! فمن هي المرأة؟

أقول لك: هل نظرت إلى القمر ليلة البدر؟

هل شممت الورد بعد المطر؟

هل مسست حريراً أو سندساً خضراً؟

هل رأيت جمال غروب الشمس وهي تختفي خلف البحر؟

ستقول - قطعاً -: نعم!

أقول لك: تلك هي المرأة.

ولا تلمني إن قلت: أنا معجب بالمرأة.

وأيضاً لا تلمني إن قلت: أنا محب للمرأة حتى الثمالة.

وأيُّنا - يا أخي - ليست له ليلى؟

تقول لي: لماذا هذه الإفراط في المشاعر؟

فأقول لك:

هي الشمس مسكنها السماء
فعزِّ الفؤادَ عزاءً جميلا
فلن تستطيع إليها صعوداً
ولن تستطيع إليك نزولا

فهل يظهر جمال الحديقة إلا بوردها وزهرها؟

وهل يظهر جمال البحر عند الغروب إلا بلمعانه وسكونه؟

وهل تظهر روعة الحياة إلا بشريكة تقاسمك حلوَها ومرَّها؟

أقول: لا تعجل عليَّ في الحكم يا أخي، فأنا لست ماجناً ولا عابثاً ولا فاسقاً، ولكني محب ومجل ومعظم.

وحتى تعرف مقصد قولي، وكُنْهَ حديثي، أقول لك:

اقرأ كتاب ربي لتعلم صدق قولي.

فعندما قرأتُ في كتاب ربي - عز وجل -: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ [مريم: ٢٧]، تدبرت هذا الموقف العظيم المهيب وقلت لنفسي: أي ثبات وطمأنينة كانت تمتلكها تلك المرأة العظيمة وهي تأتي بوليدها بين ذراعيها وتقدمه إلى قومها وهي تعلم أن (إتيان المرأة بولد من دون زوج ودعواها أنه من غير أحد من

أكبر الدعاوى التي لو أقيم عدة من الشهود لم تصدق بذلك)[1]، ومع هذا ثبتت ثبوت الجبال العوالي ولم تتوارى بوليدها.

وعندما قرأت أيضاً في كتاب ربي - جل في علاه -: ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، تفكرت في هذا المقطع الفريد الوحيد الذي لم يتكرر في القرآن فقلت لنفسي: أبَعْدَ هذه الشجاعة شجاعة؟ امرأة وحاكم، ضعف وقوة، قلة وكثرة، (وصفها الله بالإيمان والتضرع لربها وسؤالها لربها أجَلَّ المطالب)[2]، لم يتزعزع إيمانها، ولم يهتز ثباتها، وهي تعلم حتماً مصيرها، وآثرت جنة الخلد وقصورها، على جنة الدنيا وقصورها التي كانت فيها.

وعندما قرأت أيضاً في كتاب ربي - تقدست أسماؤه -: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقفت وقفة عند هذا الإقدام العظيم، والإقبال على الله، والشجاعة في اتخاذ الموقف، وعدم الخضوع للبيئة الفاسدة التي كانت سبب كفرها وصدها ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣].

وعندما قرأت أيضا في كتاب - ربي عز وجل -: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ [آل عمران: ٣٥]؛ (أي جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك محرَّراً لخدمتك وخدمة بيتك)[3]، رأيت هذا الحب العظيم لله - تعالى - وتقديم فلذة الكبد لله - تعالى - وإعلان التخلي عن الملكية.

وجدت - يا أخي العزيز- في كتاب الله - عز وجل -: (سورة النساء، وسورة مريم، وسورة المجادلة، وسورة الممتحنة).

وعندما تحوز امرأة كخديجة على أغلى وسامين عظيمين يتمناهما فحول الرجال:

أولهما: قول جبريل للنبي ﷺ «فاقرأ عليها السلام من ربها ومني»[4].

وثانيهما قوله ﷺ عنها «إني قد رزقت حبها...»[5]؛ فهل تظن أنها قد تحصلت عليهما دون عناء وتضحية؟ أو مجاملة من زوجها النبي ﷺ؟ حاشاه بأبي هو وأمي.

إذن يا عزيزي! فهل توافقني القول أم تريدني أن أقول لك كما قال الشاعر:

وحدثتني يا سعد عنهم فهجت لي
شجوني فزدني من حديثك يا سعدُ

حسناً! إليك هذا البيان الرائع: يقول - تعالى -: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ...﴾ [البقرة: ١٨٧]، ألا تلاحظ كيف قدم ذكرها عليك؟ وفي هذا التعبير من الدلالة ما يوحي لك بمدى حاجتك لها وعدم الاستغناء عنها.

وأزيدك من الشعر بيتاً، ذكر الله في كتابه الكريم كيف تتعامل معها بحسن أدب ولو كنت مفارقاً لها طالما أن هناك رابطاً لا زال بينكما، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦]. فهذه خطوط حمراء (أوامر ونواهٍ) إياك أن تجتازها أو تتعداها مع هذه العفيفة الكريمة! فمكانتها عندنا عظيمة.

ونفسي - يا أخي - لا تشبع من كلام ربي، واستمع إليه وهو يتصدى لمقولة المنافقين في الصِّديقة بنت الصديق منتصراً لها ومدافعاً عنها ومزكياً لها، وجعله قرآنا يتلى إلى يوم الدين، وهذا ليس لأنها زوجة الرسول فحسب، بل لأنها أيضاً مؤمنة ظُلمَت وافتُريَ عليها، فقال - تعالى -: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] ولا يزكي الله - سبحانه - أحداً عبثاً.

ألا زلت مصرّاً على نقدي وإفراطي في إعجابي؟

فاسمع أيضاً إلى حديث القرآن وهو يدافع عن امرأة لا تملك من الدنيا غير ما يستر جسدها، خلَّد الله ذكرها واستمع لشكواها وانتصر لها، فقال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، إنها امرأة ضعيفة سمع الله شكواها، ألا تستحق الحب والتقدير.

ألا تلاحظ مدى الهالة التي أحاطها القرآن العظيم بالمرأة، ولم يشترط في إكرامها طبقتَها الاجتماعية؟ أكرمها وهي ملكة، وأكرمها وهي زوج ملك، وأكرمها وهي من عامة الناس فقيرة.

وهذا نبينا ﷺ الذي قوله أسكت قول كل فصيح يقول فيهن «حُبِّب إليَّ من دنياكم النساء والطيب...»[6].

فكيف لا تريدني بعد هذا أن أحب المرأة؟

لا زال في جُعْبتي شيء كثير:

لا تُخْفِ ما صنعت بك الأشواق
واشرح هواك فكلنا عشاقُ

لقد حفل أدبنا الإسلامي قديماً وحديثاً بإبداع المرأة، وحفظ لنا أشعارها وأدبها وحِكَمها ورجاحة عقلها، وهو ما يعكس نظرة الإسلام للمرأة ومدى أهمية دورها في تنمية العقل والفكر الإسلامي، فأخرج لنا الفقيهة والشاعرة والأديبة والنسابة.

فهذه الخنساء أميرة الرثاء - رضي الله عنها - صاحبة أروع

(١) تفسير السعدي.
(٢) تفسير السعدي.
(٣) تفسير السعدي.
(٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه أحمد والنسائي.

مرثية قيلت، ترثي أخيها صخراً، حتى أُعجب عمر بفصاحتها وبلاغتها وقال بشـــار بن برد فيها غلبت فحول الشعراء، وقال جرير: إنها من أشعر الناس. تقول في مطلعها:

قـذى بعينكَ أم بالعين عـوَّارُ؟
أم ذرفتَ إذ خلتْ من أهلها الدارُ؟
كـأن عـيني لـذكـراه إذ خـطـرتْ
فيضٌ يسيل على الخدين مدرارُ

وانظر لهـذا النموذج الرائع والطريف في حـب المرأة، إنه أحد خريجي المدرسـة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - وهو يبوح بمشاعره ويظهر مكنون صدره، في مداعبة مليحة ومغازلة لطيفة تجاه مـن امتلأ قلبه بحبها، إنه صهـره وزوج ريحانته ومن تربَّى في حجره، فاسـتقى منه تلك المشاعر الجياشـة، إنه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو يغازل زوجه الطاهرة فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - في صورة رائعة تحكي جمال الحب الطاهر للمرأة:

حظيتَ يا عـودَ الأراكِ بثغرها
أما خـفتَ يا عـودَ الأراكِ أراكَ
لو كنتَ من أهل القتال قتلتُكَ
مـا فـاز مـني يـا سـواكُ سـواكَ

يقـول الأديـب المرهف الرافعـي في وصفهـا: (كالغدير الصافي: لا يعرف ماؤه إلا وجه السـماء وضوء القمرين وأخيلة النجوم وظلال الشجر)[1]. ويقول أيضاً: (فهي في معنى الكمال الأصل؛ لأنهـا الأمومة، وهي في العفة الأصـل؛ لأنها الزوجة، وهي فـي الحياة الأصل؛ لأنهـا العِرض، وكذلـك هي الأصل في المعركة الجنسـية؛ لأنها المقاوِمة والمدافِعة للرجل، والأصل في الفضيلة الإنسـانية؛ لأنها المنشـأ والمربي للطفل، والأصل في الشـرف الاجتماعي؛ لأنها المثال الأدبي للجميع)[2]. ويقول مصطفى المنفلوطي: (ما المرأة إلا الأفق الذي تشرق منه شمس السعادة على هذا الكون فتنير ظلمته، والبريد الذي يحمل على يده نعمة الخالق إلى المخلوق المتردد، والهواء الذي يَهَب الإنسان حياتـه وقوَّته، والمعراج الذي تعرج عليه النفوس من الملأ الأدنى إلى الملأ الأعلى، والرسـول الإلهي الذي يطالع المؤمن في وجهه جمال الله وجلاله)[3].

ويقول شاعر الإنسانية المؤمنة عمر بهاء الدين الأميري[4]:

عـــرفـــان جمـيـلٌ
وسـمـوٌّ بـالـعـاطـفـة الإنـسـانـيَّـة
وممـارسـة فـي الأرض
لأخـلاقِ الجـنَّـات الـعـلـويَّـة
الأم... وفي الإنـشـاد لها
تـغـدو الأنـغـامُ سـمـاويَّـة
يـنـبـوعُ الحـبِ، عـطـاءُ الـربِّ
سـنـا وجـنى كـلّ مـزيَّـة
مَـنْ بـرَّ الأمَّ يَـبَـرُّ
الخـيرَ... يَـبَـرُّ جميع البشرية

وأخيـراً: يا أخي! إن المرأة التي أحبهـا وأُجلُّها، هي تلك المرأة التي تقتفي أثر من ذكرتُ بدايةً.

فحطَّ يدك في يـدي، وكن رفيقي على الطريق، وَلْنمضِ بالمرأة معـاً نحوطها بعنايتنا وحبنـا وتقديرنا، فهي التـاج المرصع بالدرر؛ فمـن الغباء تركه مع نفاسته لأراذل القوم ممن يحبُّ فيها جسدها فقط، وهـم الذين وصفهم اللـه لنا بقوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. يقول الرافعي في هؤلاء وأضرابهم: (وكان من هؤلاء الفتيان الذين إذا تعلموا في أوروبا نَفَوْا جهلهم بالعلم، ثـم نفوا علمهم بجهل آخر... ثم جاؤونا كحرفَي النفي: ما، ولا؛ فليس منهم إلا التكذيب والإنكار والشك. وتراهم أظرف وأجمل وأزهى من فراشـة الربيع، لا يريـدون الحياة إلا أزهاراً؛ وعلى أزهارهم وربيعهم فليس لنا منهم إلا نقط من الألوان وأصوات من الطين... وأجسام ليس فيها رجالها)[5]، فلا تغتر بطيب حديثهم، ولا ببراعة لفظهم، فالسرج المذهَّب لا يجعل الحمار حصاناً.

أمَـا تـرى الـبَـحـرَ تـعـلـو فوقه
جِيَفٌ وتسْتقِرُّ بأقصى قاعِهِ الدُّرَرُ
وفي السماءِ نُـجومٌ لا عِـدادَ لها
وليسَ يُكسَفُ إلا الشمسُ والقمرُ

(١) السحاب الأحمر، ص٤٩.
(٢) السحاب الأحمر، ص٤٨ - ٤٩.
(٣) رواية ماجدولين.
(٤) ديوان (أمي).
(٥) السحاب الأحمر، ص٣٩.

خاطرة مهداة إلى الذين أثقلتهم القيود الرسمية

الهدهد الحكيم

د. بشرى بنت عبد الله اللهو
nukhba121@yahoo.com

(كان يا ما كان في قديم الزمان) كان هناك غابة اسمها غابة السلام، وعلى الرغم من اسمها المسالم، إلا أنها كانت كمثل غابات الزمان لا تخلو من فترات انعدام السلام، وكان يميزها أمران: سلطان عادل وهدهد حكيم، وكان السلطان يهتم بأمر الهدهد ويثق بآرائه، فتعالوا بنا نرَ أحوال هذا الهدهد: هل يستحق هذه الثقة؟

كان الهدهد يحبُّ سكان الغابة حباً صادقاً حقيقياً؛ يُثني عليهم إن أحسنوا، ويعتب عليهم عتاباً محبَّباً إلى نفوسهم إن أساؤوا؛ لأنهم كانوا يعلمون صدق نواياه، وعلى الرغم من كونه حكيم الغابة، إلا أنه كان يحمل قلباً رحيماً حنوناً، وصدراً يسع الجميع، وتمتد محبته إلى جميع السكان دون تفرقة بينهم، بل كان يرحم فقيرهم وضعيفهم ومريضهم، وكلَّ معذبٍ ومضطهد عندهم، ويرفع أمرهم للسلطان، فشاع صيته وازدحمت الجماهير أمام بيته؛ لأنه لم يكن يعطيهم حِكَماً نظرية، بل يقدِّم لهم برامج عملية ليضع حلولاً دائمةً لكل من عانى مثل معاناتهم، وبالطبع - مثل سائر غابات الدنيا - لم تخلُ الساحة من الحساد الذين تطوَّعوا، بل هرولوا للفتنة لدى السلطان قائلين:

إنه يسحب البساط من تحتك، والناس يحبونه أكثر منك.

ولكن هل تذكرون ماذا كانت صفة السلطان؟ لقد كان السلطان العادل.

أجاب السلطان: هذا خبر مفرح وليس محزناً، مثل هذا سيعينني على العدل مع الرعية، أيها الكاتب! اكتب: أصدرنا (فرماناً) بأن يعيَّن الهدهد الحكيم مستشاراً في مجلسي.

وطارت طيور الفرح تنشر الخبر عبر الغابة، ووصل الخبر الجميعَ قبل أن يصل منادي السلطان، ففرح الجميع إلا شخصاً واحداً اهتمَّ وحزن، من هو يا تُرى؟

إنه الهدهد الحكيم نفسه. أغلق باب بيته لأول مرة وأعلن الحِداد، وتدخَّل المصلحون:

- هذا شرف يتمناه الجميع.

الهدهد: إلا أنا؛ فأنا لديَّ الشرف، ولديَّ المال؛ فما الذي سيزيدني إن أصبحت مستشاراً؟

- ستكسب حب الناس.

الهدهد: أنا في موقعي أكسب حب الناس أفضل، وإن أضيفت لي صفة الرسمية، أخاف أن أفقد حب الجميع، السلطان والناس.

- لماذا؟

الهدهد: ألا ترون المستشارين السابقين كيف يتكلمون؟ إنهم مقيَّدون.

شهق الجميع باستغراب وصرخوا: مقيَّدون؟!

طارت طيور الفرح لتعود بعد قليل قائلة:

- سيدي الحكيم! اقتربنا إلى كل المستشارين ولم نرَ أي قيدٍ في أقدامهم أو رقابهم.

الهدهد: لا، بل توجد، ولكنها خفية؛ فكيف أتنازل عن حريتي وانطلاقي؟

- سيدي الحيكم هؤلاء تزيِّنهم المناصب ولكنك أنت تزين المنصب؛ وفرق شاسع بين من يبغي إصلاحاً ومن يبغي وجاهة.

الهدهد: ولكن المنصب له فتنة.

- وأنت ستصمد أمام هذه الفتنة؛ فإن رفضت فسيأتي غيرك قد يعيث في الأرض الفساد، ولا تنسَ أن هذا أمر سلطاني لا يقبل الرفض.

وقَبِل الهدهد الحكيم سائلاً الله أن يكون نافعاً لأهل الغابة.

وبدأ العمل، وبدأت أشياء كثيرة لم يكن معتاداً عليها... رسميات وقيود بدأت تثقل عليه.

وفي أحد المجالس الرسمية، طُرِحَ موضوع لم يعجبه، فأحب أن يبدي رأيه، ولكنه شعر أن هناك قيداً حول رقبته، لم يصدق نفسه، تلمَّسه بيده... إنه موجود! خاف وذُعِر وقفز يريد الهرب، ولكنه صُدِم حين أحس أن هناك قيداً آخر في قدمه! حاول الخلاص منه، ولكن دون فائدة، شعر زميله في المجلس بما يعانيه، فحاول أن يخفف عنه (كما تعودنا).

فقال الهدهد: لا، لا، أنا سأستقيل.

- من الأفضل أن تُعوِّد نفسك على ذلك؛ لأنها قيود ستبقى آثارها حتى بعد أن تستقيل. أَصدُقُكَ القول: أن تكون هنا بقيودك ستنتج أفضل من الآخرين.

فقال متنهداً: آهٍ على زمن الحرية.

الاستخفاف بالعقول!

تعطينا إحدى المذيعات دروساً في كيفية تكوين علاقة سامية مع الله - تعالى - على طريقتها، ثم تقول: «أنا لا أؤمن بأن قطعة قماش توضع على الرأس يمكن أن تدخلني الجنة».

و يفتي أحد الممثلين كذلك بجواز تبرُّج المرأة، ويستدل على ذلك بأن من يراها يقول: الله!

إنه استهبال يحاكي منطق ذلك اللص الذي سأله رفاقه عن سرِّ كثرة المال في يده، فقال: كنت أسرق في اليوم منزلاً واحداً، فبارك الله لي فصرت أسرق ثلاثة.

هذه الصور المضحكة المستفزَّة، تطالعنا بها وسائل الإعلام كلَّ يوم دون مراعاة لحجم التغابي الذي تحمله وكأنما تخاطب أطفالاً.

ولم يعد غريباً أن تنشر مجلةٌ في صفحتها الدينية فتوى العلماء بتحريم التبرج ثم تملأ بقية الصفحات بصور النساء المتبرجات.

ولا تتعجب حين ترى من يكتب على طريقة: «حاربوا التطرف بالفن» و «من كان يحب مايكل فإن مايكل قد مات»؛ فالأمور قد اختلطت.

كانوا يلعبون سابقاً بورقة الخلاف بين العلماء. أما اليوم فصاروا يفتون بأنفسهم؛ فالرقاصة تفتي، والممثل يفتي، والمغني يفتي... وكلٌّ يخوض على طريقته.

و إذا انتقدهم أحد رُمي بتلك التهم الجاهزة: متشددٌ، متزمِّتٌ، ظلاميٌّ... إلى آخر قاموس الشتائم المغلَّفة التي يتقنونها.

عبد اللطيف بن بريك الثبيتي
nmnm15@gmail.com

أين حقوق الانسان عند آكلي اللحوم؟

إن أي مجتمع يعتدي على علمائه بأي شكل من أشكال الاعتداء، فهذا يدل على المخاطر والمخاوف المحدقة به من تسوُّد الجهال وضعاف الرأي، وضياع العلوم والمعارف واحتقارها، وازدراء الفكر والثقافة والوعي؛ وهو ما يهدد ذلك المجتمع في وجوده وبقائه أو استمراره.

فهؤلاء وغيرهم ممن يتكلمون في العلماء هم الأعداء اللدودون لمجتمعنا، وهم الذين لا يريدون لمجتمعنا تحضراً من حيث لا يشعرون، وهم العاملون لانحطاط المجتمع وجعله مجتمعاً جاهلاً ساقطاً عادياً لا يُنظَر إليه ولا يسمع منه قول.

لماذا كل ذلك؟ لأننا حططنا من قَدْر علمائنا فانحط العلم وانحطت المعرفة؛ ولا يمكن لعاقل أن يأخذ من أحد جاهل لا علم له بالمعارف.

فالمجتمع متى رفع من قَدْرِ العلماء فإن الله سيرفعه وسيُعزُّه؛ لأن الله يقول: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فلقد سماهم الله هنا (مفلحون) أما أنت يا من يتكلم في أعراضهم فماذا سماك الله؟

وإذا حُطَّ من قدر العلماء فإن الله سوف يحط من قدر هذا المجتمع.

فَلْنُعطِ علماءنا الاحترام والتكريم!

واحذر من الكلام في العلماء أو تنقُّصهم!

فالعلماء ورثة الأنبياء كما قال ذلك المصطفى الكريم ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء؛ والأنبياء لم يورِّثوا ديناراً و لا درهماً وإنما ورَّثوا العلم».

والله - سبحانه وتعالى - مع العالم؛ ومن كان الله معه كفاه، ثم إن الحيتان والدواب لتستغفر لمعلِّم الناس الخير. قال - تعالى -: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وفي الختام يقول الله - تعالى -: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ويقول الله في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

حفظ الله علماءنا ودعاتنا من كل مكروه، وردَّ ضُلاَّل المسلمين إلى رشدهم.

عبدالإله عبد الرحمن الصقيهي

وَفاءُ الأرض والسماء!

سَأل باستغرب: أَتبكي السَّماءُ والأرضُ؟

فجاءَه الجَواب: ومـــا للأرضِ لا تبكي على عبدٍ كان يعمرها بالركوعِ والسجود؟

وما للســـماءِ لا تبكي على عبدٍ كان دَمعُه يَسبقُ دعاءَه ساعةَ القنوت؟

نَعَم تبكي السماءُ كما تَبكي الأرض على الراحلينَ من الصالحينَ والصالحات!

تبكي على أرواحٍ طَاهرةٍ فاضَت وعَلَتْ.

يروى عن رسول الله ﷺ: «مَا من عَبد إلا وله في السماءِ بابان: بابٌ يخرجُ منه رزقه، وبابٌ يَدخلُ منه عمله وكلامه، فإذا مَات فَقداهُ وبَكيَا عليه»[1].

وقيل: إذا مَات المؤمن وفَقَدَه مُصلاَّهُ من الأرضِ التـــي كانَ يُصلي فيها ويَذكر الله - عز وجل - فيها بَكَت عليه.

أيُّ وفاءٍ هذا؟

تَبكي الأرض لموضعِ سَـــجدةٍ، وتَذرفُ الســـماء دموعَها لكلمةِ خيـــرٍ صَعدَت إليها بنيَّةٍ خَالصة، في حين قد تشح مآقي الخَلقَ لحظةَ الفَقدِ بدمعةٍ.

وأي حبٍّ هذا؟

يُنسكبُ الدمعُ وينسابُ من جَمادٍ على قَلبِ عَبدٍ مُؤمن غَمرهُ بنقائه ساعةَ خلوة.

وأي روح تلكَ التي تســـكن الأشـــياء من حولنا، ونحن نظنها خُلقَت بلا روح؟

حبٌّ ووفاءٌ، ونِداء هزَّ الأرجاء:

يا أرض ربي، علمينا كيف تُرعَى العُهود؟

ويا ســـماء ربي، أخبرينا كيف تصـــدق الدَّمعَةُ ويُنبَذ الجُحود؟

رجاء محمد الجاهوش

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً بنحوه.

استمطار القدوات

إن لكل عمل دعائم وركائز يقوم عليها، وهكذا هي التربية عملية صعبة شاقة.

مـــن المتطلبات الأساســـية الفاعلة فـــي العملية التربويـــة: وجود القدوات الذيـــن يصيِّرون الكلمات أعمالاً والأمنيات واقعـاً مشاهَداً.

لو تســـاءلنا عن أســـباب ضعف القدوات وندرتهم وقلة عددهم لتوصلنا إلى أسباب كثيرة؛ إلا أنني أرى أن هناك سبباً ظاهراً وخللاً بيِّنـاً؛ وهو ضعف التربية وعدم اهتمام بعض المربين بتخريج قدوات متجردة للحق.

إن النظرة القاصرة التي ينظر بها بعض المربين، هي التي تتمحور حول (نفسي... نفسي).

إذا تبـــيَّن هذا فســـنتوصل إلـــى أن الخلل ليس فـــي ذات المتربين، بـــل هو كامن في أفهـــام المربين وأهدافهم.

إن المطلـــوب - باختصار - أن نحمل جميعاً فكرة صناعـــة القدوات ونشـــرع في برامـــج تصنع القادة والأفذاذ بدل أن ننتظر السماء أن تمطر علينا قدوات فإنها لن تمطر أبـداً أبـداً.

وعلى هذا مضى سلفنا الأوائل فهذا إمامهم نبينا محمد ﷺ صنع من أصحابه - رضوان الله عليهم - قدوات سطر التاريخ صنائعهم وجميل فعالهم، لذلك هم قدوات لا مثيل لها.

وخاتمة القـــول: أن الواقع في أمسِّ الحاجة إلى قدوات وكلما استطعنا صناعة وتخريج قدوات صالحة فإننا نبعث بالرسالة الخالدة إلى شتى أصقاع الدنيا وبهذا يحلُّون في مواطن هـــم أَوْلَى بها من القدوات المزيفـة التـــي ضلَّت وأضلت قد صنعها المغرضون لا كثَّرهم الله.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

راحم بن خضر المالكي
r.abuomar1430@hotmail.com

لِمَ كان القول بخلق القرآن كفراً؟

د. عبدالعزيز بن محمد آل عبداللطيف(*)
www.alabdulltif.net

حكى الإمام اللالكائي (ت ٤١٨هـ) مقالة السلف الصالح: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن من قال بخلقه فهو كافر، وأسندها إلى خمس مائة وخمسين إماماً، سوى الصحابة الأخيار - رضي الله عنهم[١] - ثم قال: «ولو اشتغلتُ بنقل قول المحدِّثين لبلغتُ أسماؤهم ألوفاً كثيرة، لكني اختصرت وحذفت الأسانيد للاختصار، ونُقلَتْ عن هؤلاء عصراً بعد عصر لا ينكر عليهم مُنكِر، ومن أنكر قولهم استتابوه، أو أمروا بقتله، أو نفيه، أو صلبه»[٢].

والأدلة على كون القرآن كلام الله غير مخلوق أكثر من أن تُحصَر، ومن ذلك أن الله - تعالى - فرق بين الخلق والأمر في قوله - تعالى -: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فالخلق خلق الله، والأمر: القرآن.

كما فرَّق - سبحانه - بين علْمه وخَلْقه، فقال - عز وجل -: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ [الرحمن: ١-٣]؛ فالقرآن علمُه، والإنسان خَلْقُه؛ فعلمه - تعالى - غير مخلوق. قال - سبحانه -: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١]؛ فالعلم هاهنا هو القرآن.

وفي حديث خولة بيت حكيم - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق، لم يضرَّه شيء حتى يرحل من منزله ذلك»[٣].

فلكمات الله غير مخلوقة؛ إذ لا يُشرَع الاستعاذة بمخلوق، وإنما يستعاذ بالله - تعالى - وبأسمائه وصفاته.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «فَضْل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»[٤]؛ فلو كان كلام الله مخلوقاً لم يكن فضل ما بينه وبين سائر الكلام كفضل الله على خلقه، وليس شيء من المخلوقين من التفاوت في فضل ما بينهما كما بين الله وبين خَلْقِه»[٥].

فالقول بخلق القرآن كفر ظاهر؛ إذ هو تكذيب لنصوص الوحيين، وإلحاد في أسماء الله وصفاته، وتعطيل لما يحب الله - عز وجل - من الكمال، أفيقال بعد هذا: إن هذه المسألة ليست من أصول الدين[٦]؟

أيُظَن أن السلف الصالح يكفِّرون ويغلِّظون على من خالفهم في مسألة فروعية؟

أيُظَن أن الإمام أحمد بن حنبل يُعرِّض نفسه للتلف لأجل

(*) أستاذ مشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(١) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي: ٢/ ٣١٢، ٢/ ٢١٦ - ٣١٢.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣١٢.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه أحمد: ٣/ ٣٩٠، وأبو داود: (٤٧٣٤)، والترمذي: (٢٩٢٥) وصححه.

(٥) انظر: الرد على الجهمية لعثمان الدارمي: ص ١٦٢.

(٦) قالها بعض الذين أُشربوا البدعة كالمقبلي في العلم الشامخ، وأبي غدة في مسألة خلق القرآن، وتبعهم بعض متسننة هذا العصر، أرباب الترنح والتلفيق.
انظر في الرد عليهم: رسالة تنبيه الإخوان، لحمود التويجري، والمحنة وأثرها في منهج الإمام أحمد، لعبد الله الفوزان.

مسألة يسوغ فيها الخلاف؟

فلقد كابد الإمام أحمد السجن أكثر من عامين، وتخلَّى عنه الناس، وتوالت عليه السياط، وعانى الضرب الشديد حتى تخلَّعت يداه، وتفاقمت جروحه، ومُنِع من صلاة الجمعة والجماعة... أفيكون ذلك كله لأجل أمر اجتهادي؟ رحم الله الإمام علياً بنَ المدني؛ إذ يقول: «أعز الله الدين بالصدِّيق يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة»[1]، بل قال بِشْر الحافي بشأن الذين أجابوا في المحنة: «وددت أن رؤوسهم خُضِّبت بدمائهم، وأنهم لم يجيبوا».

والمقصود أن القول بخلق القرآن من أشنع الزندقة وأخبثها، وقد أدرك سلفنا الصالح فداحة هذه الزندقة ومآلاتها، وبيَّنوا مناقضتها لأصول الإسلام؛ سواء في الدلائل أو المسائل:

فأما الدلائل: فإن القول بخلق القرآن باعثُه القياس الفاسد والعقل المريح؛ فهو تحاكم وتسليم لعلم الكلام والابتداع، وإعراض واعتراض على نصوص الوحيين (أصدق الكلام وخير الهدي)[2].

لقد أكمل الله - تعالى - لأمة الإسلام الدين وأتم عليهم النعمة: «فنحن نعلم أن كل حق يحتاج الناس إليه في أصول دينهم لا بد أن يكون مما بيَّنه الرسول ﷺ؛ فكيف يجوز أن يترك الرسول أصول الدين التي لا يتم الإيمان إلا بها لا يبينها للناس؟

وهذا مما احتج به علماء السُّنة على من دعاهم إلى قول الجهمية القائلين بخلق القرآن، وقالوا: إن هذا لو كان من الدين الذي يجب الدعاء إليه لعرَّفه الرسول ﷺ، ودعا أمته إليه... فكل من دعا إلى شيء من الدين بلا أصل من كتاب الله وسُنة رسوله لقد دعا إلى بدعته وضلالته»[3].

وأما مناقضتها لأصول الإسلام في مسائله: فهي تنقض أصلَي شهادة لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ؛ فالقول بخلق القرآن تعطيل لرب العالمين - عز وجل - وطعن في الرسالة وإبطال للشرائع... وهذا قد جاء مبيَّناً في آثار السلف الصالح؛ فقد قال الإمام عبد الله بن إدريس: من قال القرآن مخلوق فقد أمات من الله شيئاً[4].

«وقال الإمام أحمد بن حنبل: إذا زعموا أن القرآن مخلوق فقد زعموا أن أسماء الله مخلوقة.

فأجاب أحمد بأنهم وإن لم يقولوا بخلق أسمائه فقولهم يتضمن ذلك، ونحن لا نشك في ذلك حتى نقف فيه»[5].

وقال عبد الله بن أيوب المخرمي: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: إنه مخلوق، فقد أبطل الصوم والحج والجهاد وفرائض الله»[6].

وقد أوجز ابن تيمية هذا الطعن في الشهادتين لدى القائلين بخلق القرآن؛ فقال: «وكان أهل العلم والإيمان قد عرفوا باطن زندقتهم ونفاقَهم، وأن المقصود بقولهم: إن القرآن مخلوق أن الله لا يكلم ولا يتكلَّم، ولا قال ولا يقول، وبهذا تتعطل سائر الصفات: من العلم والسمع والبصر وسائر ما جاءتْ به الكتب الإلهية، وفيه أيضاً قدح في نفس الرسالة؛ فإن الرسل إنما جاءت بتبليغ كلام الله، فإذا قُدِح في أن الله يتكلم كان ذلك قدحاً في رسالة المرسلين، فعلموا أن في باطن ما جاؤوا به قدحاً عظيماً في كثير من أصلَي الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله»[7].

لقد كانت مقالة الأشاعرة في القرآن أقلَّ انحرافاً من مقالة المعتزلة؛ فإن المعتزلة يزعمون أن القرآن مخلوق لفظاً ومعنىً، وأما الأشاعرة فيجعلون القرآن هو المعنى القائم بذات الله، وأما الحروف والأصوات فهي دالة عليه، وهي مخلوقة. ومع ذلك فإن مقالة الأشاعرة قد آلت بالمتأخرين منهم إلى القول بأن المصحف ليس فيه إلا المداد والورق، فامتهنوا القرآن وداسوه بأرجلهم[8].

وأخيراً فإن المتعين الرسوخ في فقه هذه المسألة الجليلة، وإظهارها بين الخلائق، وبيان عمق علم السلف، وحِدَّة أفهامهم، ودرايتهم بمآلات الأقوال ولوازمها، خلافاً لمن تنكَّب سبيلهم فهوَّن من شأن هذه المسألة، وخاض فيها بالباطل، وانتقص أهل السُّنة، فجمع بين الجهل والظلم، فلا عِلْم مصدَّق ولا عدل محقَّق. وبالله التوفيق.

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى: ١/٢٨.
(٢) انظر: الأشاعرة عرض ونقد لسفر الحوالي: ص ٦٤ - ٦٦.
(٣) الدرء لابن تيمية: ١/٢٣٣ - ٢٣٤ = باختصار.
(٤) أخرجه ابن بطة في الإبانة (الرد على الجهمية): ٢/٤٤.
(٥) التسعينية: ٢/٥٧٧ - ٥٨١.
(٦) أخرجه ابن بطة في الإبانة (الرد على الجهمية): ١/٣٥٢.
(٧) بيان تلبيس الجهمية: ٣/٥١٨ - ٥١٩، وانظر: شرح الأصفهانية (ت: مخلوف): ص ٦٠، ومجموع الفتاوى: ١٢/٧.
(٨) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٨/٤٢٥.

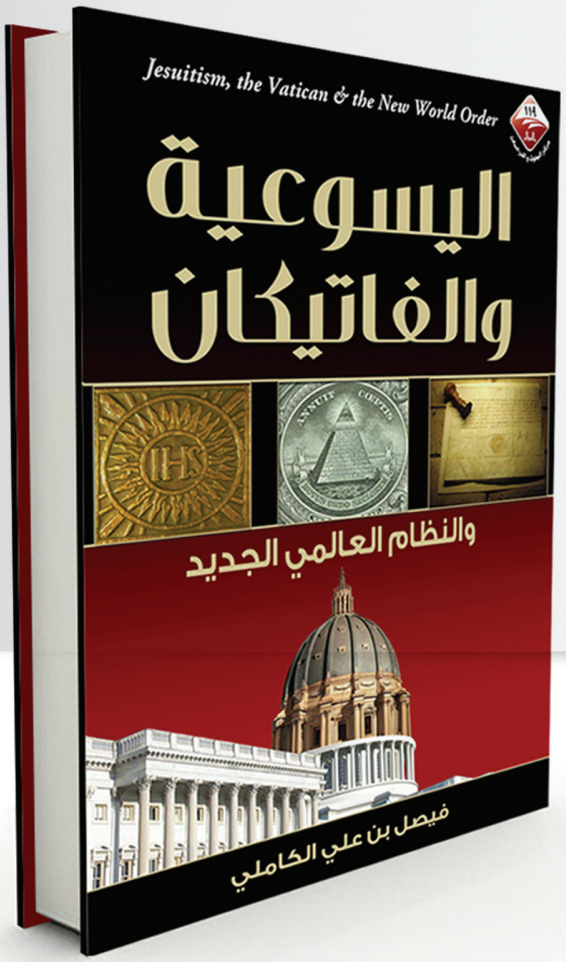

اليسوعية والفاتيكان

و النظام العالمي الجديد.

جديدنا

اكتشف السر بعد خمسمائة عام من نذور الكتمان !

- **ما أخطرُ الجماعات السرية على الإطلاق ؟ ولم لا نعلم عنها شيئاً ؟**
- **ماذا تعرف عن ((أصحاب الأيكة)) الجدد ؟**
- **هل الماسونية حقاً صناعة يهودية ؟ فمن تخدم إذن ؟**
- **لم لا تتغير سياسة أمريكا بتغير الزعماء ؟ ومن هو الموجه الحقيقي لهذه السياسة؟**
- **ما حقيقة التحالف البابوي ـ الصهيوني ؟ وماذا يراد للقدس ؟**

وثائق سرية وحقائق مزعجة تقرؤها لأول مرة بالعربية في كتاب

((اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد))!

Badr: 0508948947

مجلة البيان

الريـــاض: ـ هـــاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحـــويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فـــاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جـــدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكـــة والمدينـــة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقـــة الجنوبيـــة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقـــة الشرقيـــة: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقـــة القصيـــم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦